سمير الصالحين

وأنيس المتقين

الجزء الأول

أحمد الشهاوي سعد شرف الدين

ضياء سعيدة

المكتبة التوفيقية

إهـــــــداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

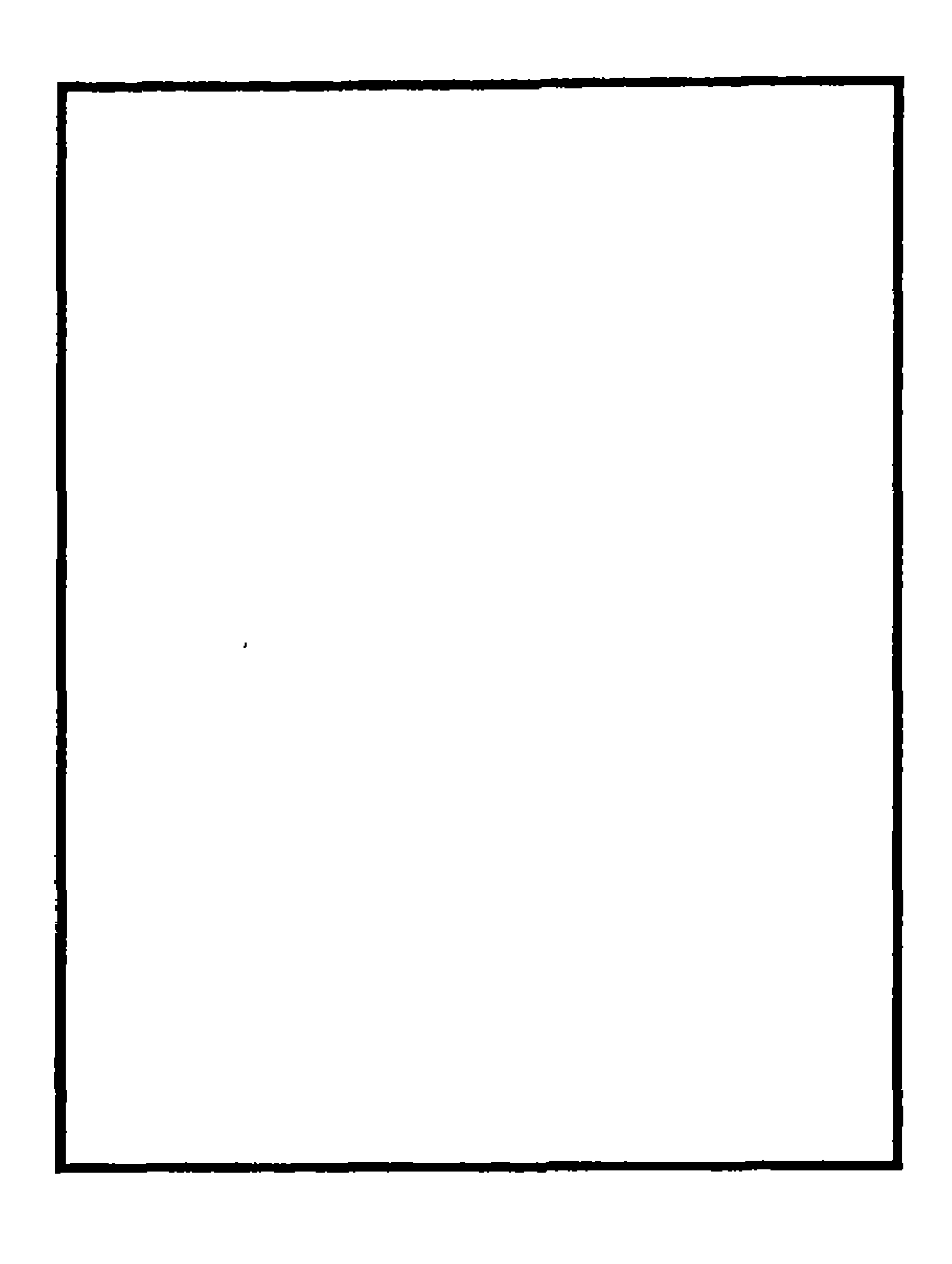


أحمد الشهاوى سعد شرف الدين

الجزء الأول



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠



مــاذا يقــول إذا رآنــى صــديقى
ورأى بيـاض الشيب فى حـقيـقى

أيجل منى ضـوءه فى مـفــرقى
ويقــول يا لـك من فــتى منـطيق

أم يســخــر بشيـبتى مــتـذكـرًا
ما قال فى صـدق فتى الإغريق[1]

«مـا أجمل الدنـيا إذا خـلا دهرها
من غـدرة أو شــيـبــة أو ضـيق»

(١) فـتى الإغريق أى أرسطو فـقد قـال: لولا عـيوب ثلاثة بالدنيـا لجـمل البقـاء فيـها - الغـدر، والشيب، والهموم.

إهداء

إلى العابدين المتبتلين، والنساك الورعين، والمتيمين حبًا فى الله وإعجابًا بشخص رسول الله ﷺ.

إلى المؤمنين الموحدين، والصالحين المحسنين، والمتقين الزاهدين.

إلى الذين يشرفهم أن يكونوا من الأخيار الأبرار، ويرضيهم أن يكونوا من النبلاء الأحرار، ويفخرون بأن يكونوا عبيدًا لله.

إلى الزنادقة الملحدين، والشيوعيين المنكرين، والكفرة الجاحدين.

إلى الذين يحبون الله ورسوله، ويقدسون القرآن والسنة، ويجلُّون العلم والدين.

إلى الذين ينشدون القدوة الحسنة، ويطلبون الأسوة الطيبة، ويبتغون المثل الأعلى، وينقبون عن مكارم الأخلاق.

إلى الذين يعشقون الطرفة النادرة، والفكاهة العذبة، والأجوبة المسكتة، والذكاء الخارق اللماح.

إلى الذين يحبون أن تسامرهم الحكمة، وتؤنسهم المعرفة، وتبهرهم القصة، ويبهج نفوسهم الأدب، وتستولى عليهم رقة العبارة، وجمال الأسلوب، وعذوبة الحديث.

إلى الذين يهربون من الدعوة الدينية لفقرهم، ويهملونها لعجزهم، ويفرون من وجهها لقلة المئونة وندرة الزاد.

إلى الذين أحرجهم التكرار، وأخجلتهم كثرة الإعادة، وصفَّر وجوههم العجز عن التجديد والابتكار.

إلى الذين يريدون أن يجتذبوا قلوب الجماهير، ويحبون أن يستولوا على عواطفهم وأحاسيسهم، ويطمعون أن تخضع العقول والأذواق لأحكام الإسلام.

إلى الذين يكرهون الإمامة لجهلهم بشرفها، وينبذون الدعوة لضعفهم عن حملها وينفرون من الوعظ والإرشاد لأنهم لا عدة لديهم ولا عتاد.

إلى الذين يحبون الحسناء ولا يجدون مهرها، ويعشقون العلياء ولا يعرفون طريقها. ويريدون الحج ولايستطيعون إليه سبيلا.

إلى هؤلاء وأولئك أقدم كتابى هذا راجيًا أن أكون قد يسرت الصعب، وذللت الوعر، وقربت البعيد.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى تتجدد نعمه على عباده، وتتوالى أفضاله على خلقه. ولا ينضب معين فضله، ولا تغيض منابع جوده، ولا تجف بحار رحمته، ولا ينقطع مدده ما توالى الجديدان وتعاقب الملوان «لا إله إلا هو إليه المصير».

أحمده -سبحانه وتعالى- حمد من يقدر فضله، ويكافئ عطاءه، ونشكره على ما نفحنا به من أنوار العلم، وفيض الحكمة، وهداية الدين.

وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له القائل فى محكم كتابه ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾[1].

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله القائل فيما ورد عنه: (إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة). صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين تركوا لنا ذخيرة طيبة من المثل العليا، وتراثًا مباركًا من مكارم الأخلاق، ورصيدًا ثابتًا من الحكم والمواعظ نفاخر بها الأمم، ونتحدث بها على مدى الأيام والعصور ونباهى بقصصه الهادفة أزهى مدنية، ونسبق بنصائحه وتوجيهاته أحدث الحضارات لو أننا أحسنا عرضه وتقديمه، وأحكمنا استثماره والانتفاع به، وقدمناه إلى الناس فى صورة شيقة مشرقة، وعبارة جذابة خلابة، وأسلوب ساحر ممتع يثير الهمم من مكانها، ويوقظ المشاعر من مراقدها. وحاولنا أن نستخرج من لبابه وعصاراته.

---

(١) طه: ٩٩.

ونعرض منه خلاصته وصفوته، وجمعنا إلى حسن السبك، وحكمة الاستنباط وأحسنا اختيار الوقت المناسب والحالة الملائمة إذًا لقبضنا -والله- على أزمة النفوس والأرواح، ولأخذنا بقياد القلوب والعقول فى سهولة ويسر. ولاستولينا عليها فى لطف وأناة، ولاستطعنا أن نهبط إلى قاعها ونسبر أعماق أغوارها، ونعرف أماكن الشر فيها ومواطن الداء منها وآنذاك يسهل علينا توجيهها إلى طرق الخير، والسير بها إلى سبل الرشاد. وبالتالى نستطيع أن نعالج شرورها، ونقضى على أوكار الفساد فيها، ونسد على الشيطان كل مداخله ومنافذه، ونحكم إغلاق الباب فى وجهه ووجه جنوده المفسدين.

وحينئذ يسود الخير وتنمو الفضيلة وتقوى القيم والأخلاق وتهيمن المبادئ والمثل وعندها يسيطر الدين ويحكم كتاب الله وتكون ثمرة ذلك اختفاء الشر من الوجود أو على الأقل إضعاف شوكته، وكسر حدته، فلا ترى غشًا ولا خداعًا، ولا نشهد غدرًا ولا مكرًا. ولا نعانى حقدًا ولا حسدًا، ولا نكابد عداوة ولا بغضاء ولا نقاوم فتنًا ولا حروبًا لأن أسباب ذلك كله فساد النفوس، وصدأ الأرواح، وموت الضمائر، وانحلال الأخلاق، كما جاء ذلك فى قول الرسول ﷺ: **«ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»**.

فإذا ما تمكنا من القضاء على كل هذه الجراثيم، وطهرنا النفوس من كل هذه الميكروبات. واستأصلنا بذور الشر، وقدرنا على محاربة الشيطان، ونجحنا فى إقامة مجتمع فاضل. فزنا بسعادة دائمة، وحققنا لأمة الإسلام الصفاء والهناء وكنا بحق ﴿**خير أمة أخرجت للناس**﴾ كما قال الله فى كتابه الكريم حيث قد خلع علينا هذا الشرف دون غيرنا من الأمم السابقة.

ولابد أن تنتهى إلينا تبعًا لذلك السيادة والقيادة، وتصل إلينا القوامة

والزعامـة. ونظفر كـأمة فـاضلة بالتقـدم والرقى والسمـو والنهوض، والـنجاح والفلاح.

فإنما الأمـم الأخـلاق ما بقيـت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولم يمدح رسول الله شيئًا كـما مدح مكارم الأخلاق، ولا أثنى على شىء مثلما أثـنى على حب الخير ونشر السـلام والوئام بين الناس. استمعـوا إليه أيها الأخوة الفضلاء وهو يعلـى من شأن الخلق النبيل ويشيد بسمـو السلوك الحميد: «**إن الرجل من أمـتى ليبلغ بالخلق الحـميد عنـد الله درجة الصائمين والـقائمين**». ويفيـض النبى العظيم فى وصفـه وتمجيـده لأرباب الأخلاق الحـميدة، والـطباع المجيدة فـيقول: «**ليس شىء فى الميزان أثـقل من حسن الخلق**». ويقول أيضًا: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقا**».

ومـالنا نذهب بعيـدًا وحـسن الخلق من أجلِّ مفـاخـر النبى، ومن أعظم مواهب الله له وأقدس منحه وعطاياه. ألم يقل له مولاه العلى الأعلى فى محكم التنزيل:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(1).

ألم يقل له تعالى: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾**(2).

ألم يقل له سـبحـانه بعد ذلك كله، وأفـضل من ذلك كله: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**.

ولقد كان رسول الله ﷺ من الأخلاق الحـميدة، والصفات الرشـيدة فى أعلاها منزلـة، وأجلها مكانة حتـى أثار بأخلاقه وآدابه إحـساس أصـحابه ونال إعجابهم وتقديرهم إياه وفى مقدمتـهم صاحبه وصفيه الصديق -رضى الله عنه-

---

(1) آل عمران: ١٥٩ . (2) الأعراف: ١٩٩ .

سأله يومًا فقال: يا رسول الله لقد طفت فى العرب والعجم فما رأيت أحسن منك خلقًا ولا أكثر منك أدبًا. فمن أدبك؟ فقال له: «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**». فنعم المؤدب والأستاذ، ونعم المعلم والتلميذ.

وقد بنى النبى النفوس والأرواح، وربى العقول والقلوب على لبان الدين والإيمان، وهبط بتعاليمه إلى قرارة القلوب فزكاها، وإلى أمراض النفوس فداواها وما زال بها حتى سمت إلى مدارج العزة، وحلقت فى سماء الكرامة، وتبوأت منازل السعداء الفضلاء والأئمة الزعماء فكان منهم من جاد بماله كله، ومنهم من ضحى بنفسه فى سبيل الله، ومنهم من هجر وطنه وأهله، وترك دياره وعقاره وأزواجه وأولاده حبًا فى الله، وفداء لدين الله. وإلا فكيف افتدى «على» رسول الله بنفسه، وكيف تصدق «أبو بكر» بماله كله، وكيف جلد «عمر» ابن أبا شحمة تنفيذًا لأحكام الإسلام، وإقامة لحد من حدود الله. وكيف جهز «عثمان» «جيش العسرة» وحده من ماله الخاص حتى دهش النبى من كرمه وسماحته فرفع وجهه إلى السماء وبسط كفيه إلى الله وقال: «**اللهم إنى قد رضيت عن عثمان: فارض عنه**». ثم قال يبشره بالجنة ورضوان الله عليه فقال: «**لا يضر عثمان ما فعل بعد اليوم**».

ولو أننا ذهبنا لنجمع المُثُل، ونستخلص العبر، ونقدم الأدلة والشواهد لضاق بنا الحصر، وقعد بنا العد ويكفى أن نضرب للقراء الكرام مثلاً واحدًا على سمو التربية الدينية وما لها من أثر طيب فى حياة الأفراد والجماعات.

قالوا: إن سيدنا «سلمان الفارسى» كان مثلاً أعلى بين الصحابة فى إخلاص العبارة، وكثرة الطاعة وقوة الإيمان، وكمال اليقين، وشدة الزهد والورع إلى حد أن تنافس الصحابة فى شأنه، وتضاربوا فى نسبه، وحرص كل من المهاجرين والأنصار على أن يكون منهم «سلمان» وقد أدلى كل منهم بحجته وبرهانه على دعواه. فقال المهاجرون: إنه منا لأنه لم يكن من أهل المدينة وإنما

هاجر من بلاد الفرس إليها بحثًا عن الدين، وطلبًا للإيمان الحق، والتوحيد الصحيح. وقال الأنصار: لا. بل هو منا لأن الرسول ﷺ هاجر إلى المدينة وهو مقيم فيها واشتد الخلاف بينهم، واحتدم الجدل حتى خرج عليهم رسول الله فسألهم فيما تختصمون؟ فأخبروه عن سبب اختصامهم وحكموه فيما بينهم. فقال لهم النبى: **«إن «سلمان» منا أهل البيت. ولو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من فارس»**.

لك الله يا سلمان بأى عبادة نلت هذه المنزلة، وبأى طاعة ظفرت بهذه المرتبة اللهم إنه العمل المخلص، والخلق الحميد.

ويكفى الرسول عظمة ونبلاً، ويكفيه شرفًا وفضلاً أنه كون فى فترة وجيزة، وأقام فى زمن قصير أمثال هؤلاء الغر الميامين من الذين فتحوا بأخلاقهم الأرض، وملكوا بصلاحهم وإصلاحهم رقاب الناس فدانت لهم، وخضعت لسياستهم المماليك والشعوب.

ويقول علماء الاجتماع: إذا شئت أن تعرف عظمة أمة من الأمم، ومبلغ تقدمها ونهوضها فانظر إلى عراقة أخلاقها، وأصالة مبادئها، ومدى تمسكها بالقيم السامية والمبادئ الرفيعة فإذا كانت على شيء من الأخلاق القويمة فأمرها وعاقبتها إلى رشاد وسداد، ومجد وعزة، وتقدم ونهوض. أما إذا أخطئوا الأخلاق، وتجنبوا الفضائل، وحاربوا الدين فاعلم أنهم إلى تأخر وانحلال. ولابد أن ينال منهم أعداؤهم ويكون مآلهم الفشل والضياع ورحم الله أمير الشعراء فقد كان يقول:

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتمًا وعويلا

وبعد: فيا أيها القارئ الكريم فهذا هو كتاب راجيًا من الله الكريم أن يجدوا فيه غذاء أرواحهم، ودواء نفوسهم، وشفاء قلوبهم، وأن يكون عونًا لهم على حمل أثقال الدنيا وأعبائها، وأن يكون سلاحًا يقهرون به الهوى، ويقاومون

به الشيطـان والشهوات. وأن يجـدوا فيه أنـيسهم عند الوحـدة، وسمـيرهم فى الخلوة وأن يكون نوراً للبصائر والأبصار، وصديقًا لهم من وحشة الذنوب وظلمة الآثام. كما أرجـو أن يكون بستانًا يانع الأزهار، شـهى الثمار، وصديقًـا نافعًا، ومدداً زاخراً لأبنائى الأئمة الفضلاء، وإخوانى الوعاظ والدعاة وأن يجدوا فيه إن شاء الله - بصـفة مركـزة، وموضـوعية شـاملة- كل ما تصبـو إليه نفـوسهم، وتشتهيه أذواقهم، وتشرئب إلى نيله هممهم، وتطمح إلى تحقيقه عزائمهم، وقد حرصت فيه جهـدى، وعملت وسعى على أن أقدم لهم فيه مجـموعة طيبة من الموضـوعات المخـتارة التى لابد لهم من الحـديث عنهـا فى دروسهم الدائمـة، والمستمـرة، والمتجددة الثابتة علـى طول أيام الأسبوع دون أن يتغيـر المستمع، أو ينصرف الناس دون أن يسـمعوا منهم جـديداً مفيـداً. وبناء على أننى لمست هذا العبء الثـقيل وباشـرته بنفسى وهو عبء لا يحس بـه إلا من عايش الإمـامة، وباشر الدعوة بنفسه. بناء على ذلك قـصدت إلى تأليف هذا الكتاب لأقدمه زاداً لإخوانى الأئمة، وذخيرة للوعاظ والدعـاة فلعلهم ينهضون برسالتهم، ويجدون فى نشر دعـوتهم، ويقومـون مخلصين بخدمـة العلم والدين وقد جـمعت لكل موضوع ما ينـاسبه من الآيات القرآنية، والأحاديث النبـوية، والحكم التى تناسبه ويسهل على المحـدث حفظها وإلقـاؤها والقصص التى تتـفق معهـا حتى يكون الموضوع شيقًا، والكلام متجدداً، والبحث مستوفيًا وبالتالى يكون الدرس نافعًا، والعلاج ناجعًا والمستمعون فى تكاثر وإقـبال وقد ذكرت فى كتابى شيئًا من الملح والفكاهات، وأودعـته عدداً من الطرائف والـنوادر التى يخف وقعـها على آذان السـامعين والتى تـطرد الكسل والملل، وتبـعد عن النفـوس السـآمة والضـيق، وتجعلهم يقـبلون على المتحدث ويصغـون إلى عذب حديثه فى شـغف وشوق، ومتـعة، وإعـجاب وسـوف أوالى إخراج الأجـزاء البـاقية مـن كتـاب «سمـير الصالحين» على هذا النسق حتى لا يقع الواعظ والإمام فى ورطة التكرار ويوصم بوصمة الإعادة. وسوف لا يجد نفسـه مضطراً إلى إعادة ما سبق ذكره، وتكرار

ما فات الحديث عنه قبل خمس سنين إن شاء الله. والله أسأل أن يهبنى من أيام حياتى ما أستطيع به خدمة العلم والدين، وتيسير المواعظ والدروس على أهلها والقائمين بها كما قد فعلت ذلك فى الخطابة. وهو وحده نعم المولى ونعم النصير.

كما أسأله -جلت قدرته، وتقدست عظمته- أن يمد فى عمر ابنى البار، وصديقى الحميم. من ساهم معى بجهده وقلمه غير مبال بالشدائد والمتاعب، وغير مكترث بالصعاب والأعباء ذلك هو الشاب الصالح الذى سبق للقراء أن عرفوه الأستاذ - عبدالحميد مصطفى المنشاوى كتب الله له ولوالديه السعادة والكرامة فى الدنيا، والأجر والثواب يوم الجزاء إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

أحمد الشهاوى سعد شرف الدين

إمام وخطيب مسجد المحلى برشيد

رشيد فى ٥/ ٧/ ١٩٧٧

التفكير فى هذا الملكوت أوضح دليل على وجود الله

يقول الله -سبحانه وتعالى- مشيرًا إلى عظمته، ومتحدثًا عن قدرته، ومبينًا لفضله وجوده، ومرشدًا إلى رؤيته وشهوده ودالاً على ذاته ووجوده.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(1).

فى القرآن كثير من أمثال هذه الآيات التى تحدثنا عن آثار قدرة الله، وتشد أنظارنا إلى قراءة كتاب الكون، وتفتح عيون قلوبنا وعقولنا على إبداع خلقه، وإحكام صنعه، ودقة تدبيره، وكيف أنه ربط الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، والقوانين الكونية، والنواميس الطبيعية بنتائجها ومؤثراتها ليهتدى الناس من هذا الطريق إلى رؤية عظمته، وليلمسوا بأنفسهم شيئًا من مشاهدته ورؤيته. وهيهات أن يتم لهم ذلك طالما كانوا غافلين، وعن آياته فى ملكه وملكوته معرضين. والقرآن -وإن كان كتابًا سماويًا، ومرجعًا دينيًا- لا يصح دليلاً بوصفه هذا لإقناع الكافرين والملحدين إلا أن المتجردين من الهوى، والمنصفين من العقلاء، والبعيدين عن التعصب الممقوت. لو تأملوا معنا فى هذه الآيات لا يجدونها آيات قرآنية بقدر ما يجدونها أدلة عقلية، وبراهين منطقية لأنها تعتمد فى مقدماتها ونتائجها، وتدور فى نقاشها وحوارها، وتقوم فى جدلها، وتحديها على الآيات الكونية البحتة، والمعجزات العقلية المشاهدة. وهى بهذا الاعتبار حجة دامغة، وبرهان ساطع، ودليل قوى أكيد على وجود الله لو فكر الملحدون وتأمل الكافرون.

ويعجبنى قول «الحسن البصرى» فى تفسير قوله -عز وجل- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا

---

(1) الزمر: ٦٢ - ٦٣ .

سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(١) .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢) . قال الحسن فى معناها : أى أمنع قلوبهم من التفكير فى ملكى وملكوتى .

وأى إنسان يقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٤) .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾(٥) .

أى إنسان نزيه له عقل ومنطق ، وله علم وفطنة يقرأ هذه الآيات ثم لا

---

(١) الأعراف : ١٤٦ . (٢) الأعراف : ١٤٧ . (٣) البقرة : ١٦٤ .
(٤) لقمان : ١٠-١١ . (٥) الروم : ٢٠-٢٥ .

يضعها موضع التفكير والاستنباط ويستدل بمعناها وفحواها على وجود صانعها، وعظمة منشئها؟!.

الحق أقول: إن من أفضل المشكلات توضيح البديهيات، وإذا لم يقنع هذا الملك العظيم بما فيه من إحكام وإبداع عقول الشيوعيين والملحدين فلا يقنعهم بعده شيء. وإن من الإشكال أيضًا أن نحاول إقامة الأدلة والبراهين على وجوده تعالى ونحن من صنعه، ومن آثار قدرته، وآية جلية من آيات تدبيره وحكمته لكل ما حول الإنسان من مخلوقات دقيقة، وموجودات متقنة، وكائنات منتظمة كل هذا براهين صادقة على أن هذا الملك العجيب، وذلك الملكوت الغريب مصنوع لرب قادر، وخاضع لتدبير إله حكيم. فالسموات وما فيها من شموس دائبة، وأقمار منيرة، ونجوم متلألئة، وأفلاك منتظمة لا تكف عن الجريان، ولا تسكن عن الدوران منذ أوجدها الله. لا يعلم أحد منذ كم خلقت؟ ولا من أى مادة صنعت، ولا كيف تسير؟ ولا متى تتوقف عن الحركة والدوران؟ ولا ماهى الوظيفة التى خلقت من أجلها؟ ولا لماذا لا تفنى مادتها ولا يصيب الخلل جوهرها، ولا ينزل بها التلف، ولا يؤثر فيها القدم، ولا يلحقها عجز ولا قصور، وهى تعمل فى جد مستمر، ودأب متصل منذ ملايين السنين دون أن تشكو سأما، دون أن تعرف مللا، ودون أن يلحقها حتى مجرد ضعف فى أداء مهمتها، وإتمام رسالتها، ودون أت تصطدم أجرامها أو تتداخل أبراجها. أو تختلف مواقيتها فهل يدور بذهن عاقل أن هذا الصنع المتقن، وهذا التدبير المحكم، وهذا الوجود البديع من صنع نفسه، أو أنه كما يقول الجهلة من الشيوعيين «وليد الصدفة» وأنه وجد من غير صانع ولا مدبر حكيم. إن العلم الذى يؤمنون به قد أثبت بأدلته ومقاييسه التى لا ينكرونها أن عمر الشمس خمسة عشر ألف مليون سنة. ونحن لا نعارض هذا ولا نكذبه فليس فى الدين ما يثبته أو ينفيه. لكن الذى نود أن نسألهم عنه: أى مادة هذه التى تمد هذا الكوكب بوقوده ولهبه طيلة هذه المدة إن لم تكن هنالك قدرة الله تمده وتغذيه؟ لقد أثبت العلم بالأدلة المحسوسة، والبراهين الملموسة أن هنالك تزاوجًا تامًا بين السماء والأرض، وأن هذه الكواكب التى ترسل إلى الأرض أضواءها وتبعث

إليها بأشعتها موضوعة على أبعاد دقيقة التنظيم لا ينبغى أن تكون أقل أو أبعد مما هى عليه.

واستنبطوا لذلك حكمًا، وضربوا لذلك أمثالاً، فالمسافة التى بين الشمس وكوب الأرض مثلاً ثلاثة وتسعون مليون ميلٍ وقالوا: إنها لو كانت أبعد من ذلك قليلاً أصيبت الأرض وما عليها بالتجمد والشلل فلا ينبت فيها نبات ولا يعيش عليها حيوان. ولا يتكون بداخلها معادن، ولا يتحقق فيها قوانين ولا نواميس. كقانون الجاذبية، والأثير، والمجال المغناطيسى. كما أنها إذا قربت من الشمس أكثر من هذا. لا يعيش عليها أيضًا حيوان ولا ينمو فيها نبات لأن كل ما فيها ومن فيها سيصيبه التسوس والاحتراق. وتختل الدورة المنتظمة بين البحار والسحاب من تبخير البحار بنسبة معينة وجريان السحاب، وإرسال الرياح لتكوين الأرزاق والأقوات. والدين يشكر العلم على هذا الكشف العظيم، ويحيى نوره ودقته على اكتشافه لكل هذه الأسرار الخفية، ريطمع أن يرى منه أكثر وأكثر ولكنه يصر إصرارًا تامًا على أن يوجه للعلم هذا السؤال: من صاحب هذا النظام الدقيق، ومن صاحب تلك الدقة المتقنة؟ هل هى الصدفة كما يقول الجاهلون الأغبياء . إننا نطمع من العلم أن يكتشف كل شىء وأن يقف على كنه كل شىء، وأن يسبر أعماق الحقائق والأشياء، ولكنه أبدًا لن يصل إلى نهاية ملكوت الله، ومافيه من آيات غامضة، ومعجزات خفية تتخذ من خفائها وغموضها سلاحًا تشهره فى وجه العلم والعلماء حتى يؤمنوا بأن للكون ما يشاهدونه منه، وما لا يشاهدونه خالقًا عظيمًا.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(١).

والأرض على ضخامتها، وما تحمل فوق ظهرها من جبال وتلال، وسهول ووديان، وبحار وأنهار، وأشجار، وحيوان، وجماد وإنسان. وما تخبؤه فى باطنها من زيوت ومعادن، وكنوز ودفائن، وغرائب وعجائب، ومخبئات وأسرار مازال العلم يجد فى اكتشاف أسرارها، ويعمل على معرفة كنهها، والوقوف

(١) فصلت: ٥٣ .

على منافعها وخواصها، ويجتـهد وسعه ليعرف أصل تكوينها، وزمن وجودها، ومفاتيح تسخيـرها مستخدما معامله ومخابره، وراصـدا أجهزته ومعداته، وتفنى الأجيـال وتفرغ الأعمار، وتمر الأحـقاب والقرون، وتنطوى العـصور والدهور والكون كما هو منذ أوجده خالقه لغز غامض، وأحجية مبهمة فإذا اكتشف العلم منه شيئا فـإنما هو شىء ضئيل، ونزر يسير تتفق العلماء عليـه اليوم، ويختلفون عليه غداً.

إن الأرض التى حملت فوق ظهرها آلاف البشـر وملايين الحيوانات وأمثال ذلك وأضعاف أضعافه من الوحـوش والدواب، والحشرات والهوام ثم هى تقدم لكل منها قوته، وتهيئ لها طعامهـا، والجو الذى يناسبها، والطقس الذى تعيش فيـه، والمكان الذى يأويها، والسلاح الذى تدافـع به عن نفسهـا، والوسيلة التى تحفظ بهـا نوعها والعـلاقة التى تنظم بهـا حياتهـا مع غيرها إلى غـير ذلك من العجـائب والمدهشات التى لا تقف عند حـد ولا تنتهى عند غـاية، فهل هذا يا قوم، من صنع الطبيعة، أو محض الصدفة؟!

إن المرور فى العواصم والمدن من أقوى الأدلة على وجود الله، ومن أوضح البـراهين على عظمـته، فـعلى الرغم من كـثرة القـائمين عليـه، والمنظمين له، والمبتكرين له اللوائح والقـوانين والمخترعين له الأجهزة والإشارات التى تسـتخدم فى تنظيـمه، والشـوارع التى تجـدد كل يوم، والميادين التى تخطط، والجسـور والكبـارى التى تعلق لفك أزمـته واخـتناقاته، والجنود الـتى تعمل بصـفة ثابتـة ودورات منظمة، ودوريات مـتقاربة والدروس التى تلقى فـى التوعية، وأجـهزة الإعلام التى تصرخ ليل نهار فى آذان المسـتمعين. على الرغم من ذلك كله، لا يمكن أن تمر ساعة واحدة بدون حـوادث أو مصادمات لا على أن الظلام مطبق، ولا على أن الأجـهزة مـعطلة، ولاعلى أن الحـارس نائم، ولا على أن الزحـام شديد ولكن لأن تنظيم الإنسان مهـما دق وتعمق لا يمكن أن يسلم من الخطأ فى التقدير والتدبير، وآية ذلك، السكة الحديد لم تسلم من هذا القصور، وهى التى لا يكون عليـها زحام فكل قطار منهـا له طريقه واتجـاهه، وحرسه الـيقظون من أعمدة البرق، وأسلاك الهاتف والأجـراس المنبهة، والأنوار الكاشفة، والمزلقانات

التى تعمل بأجهـزة يدوية أو كهربائية، كل هذا وغيـره لم ينج تلك المصلحة من الأغلاط والأخطاء.

أمـا هذه السمـوات فإنهـا مليئـة بالأفـلاك، مكتظة بالنجوم، مـزدحمـة بالكواكب والأجـرام التى لا تكف عن الحـركـة ليـلاً أو نهـارًا، ولا تسكن عن السعى صـيفًا ولا شـتاء، وتَجِـدُّ فى سرعة مـهولة، وتجرى فى مـسالك مـعينة ومحددة دون أن يسـوقها سائق أو يحـرسها حارس، أو ينظم سـيرها منظم، أو يوضع لهـا أجهزة منبـهة أو إشـارات متـغيرة ومع ذلك لا تصـطدم أفرادها ولا تصطك أجرامـها، ولا تتأخر عن مـواعيدها، ولا تتوقف مـجموعة منهـا لتمر مجموعة أخرى، ولا رأينا فى طريقها ومجاريها زحامًا ولا اختناقًا ليلاً أو نهارًا، لأن المشرف على تدبيـرها، والمنظم لسيرها، والقـيوم على حركـاتها إنما هو الله مالك الملك، ومبدع الملكوت.

والآيات غير ذلك كثـيرة وكثيرة لمن شاء أن يتدبرها أو يعـيها، وصدق الله العظيم إذ يقول فى محكم كتابه: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

بل لقـد نعى سـبـحانه على عـبـاده أنهم غـافلون عن التـفكيـر فى آياته ومصنوعـاته فيقول سبـحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[2]. ويقول سبـحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3].

ومن عجيبب أمر الإنسان وفساد منطقـه أنه إذا رأى مكتشفًا أو مخترعًا أو مصـمما خلع عليه صـفة العبقـرية ونسب إليه القدرة والمهـارة، وسماه عمـلاقًا عظيـمًا. فـالذى اكتـشف قانون الجـاذبية مـثلا عظيم فى نظر الإنسـان. والذى

---

(١) يونس: ١٠١ . (٢) يوسف: ١٠٥ . (٣) الأنبياء: ٣٠-٣٣ .

اكتشف المجال المغناطيسى للأرض الذى تسير على هديه السفن فى البحار، والطائرات فى الجو فى نظر الإنسان عظيم.

والذى اكتشف البخار والكهرباء والذرة كل هؤلاء عظماء وعباقرة ولكن الذى خلق هذا الكون كله بما فيه ليس بقادر ولا عظيم لأن الإنسان يعز عليه لكبره وغروره أن يعترف لله بالعظمة والجلال، وصدق الله العظيم الذى رماه بالجهل مرة، وبالظلم أخرى، وبالجحود لفضله والكفران لنعمه مرارًا وتكرارًا.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾[1].

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2].

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[3].

ومن المخجل جدًا، والمخزى حقًا أن يصف الله كونه كله بالسجود لعظمته والامتثال لجلاله وقدرته حتى إذا وصل إلى الإنسان العاقل من كونه وملكه انقسم هذا الخضوع، وافترق ذلك السجود فى شخصه دون غيره من الكائنات. فتأمل يا أخى طويلاً فى هذه الآية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[4].

وسبب هذا فيما أعلم هو عدم التفكر فى ملك الله وملكوته، وتغذية القلب بثمار العقل وأنواره لأن الله أودع العقل قوة التأمل، وحكمة التدبر، ومزية المقارنة والاستنباط. ولذلك خاطب العقلاء وحدهم، وتعبدهم بدينه، وجعلهم موضع أمره ونهيه، وملتقى رضاه وغضبه، وكان من أجل مزايا الإسلام: أن أفضل أنواع العبادة وأسماها عبادة العقول أعنى التفكر فى عالم السموات والأرض وما بينهما من عوالم وكائنات وفى هذا المعنى يقول ﷺ:

«تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فإنكم لن تقدروه قدره».

---

(١) العاديات: ٦-٧. (٢) إبراهيم: ٧٢.
(٣) الأحزاب: ٧٢. (٤) الحج: ١٨.

وفى هذا المعنى يقول أحد الحكماء.

إذا المــرء كانـــت لـــه فكــرة ففـــى كـــل شـــىء له عبـــرة

وجاء فى كـتب السابقين أن الحـواريين قالوا لسـيدنا «عـيسى» إعـجابًا به وتقـديراً له: يا روح الله، هل على الأرض اليـوم مثلـك؟ قال: «نعم من كـان صمته فكراً ونطقه ذكراً، ونظره عبرة فهو مثلى».

وهذه بعض الوصـايا التى نقلت عن نبى الإسـلام حينمـا قال: أوصـانى خليلى بتسع أوصيكم بهن وذكر منها هذه الثلاث.

وفى الحديث القدسى:

«تفكر ساعة خير من عبادة ليلة».

ويقول سـيدنا على: «من لم يكن كلامـه حكمة فهـو لغو، ومن لم يكن صمته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو».

وقال الإمام الجنيـد -رضوان الله تعالى عليه-: أشـرف المجالس وأعلاها. الجلوس مع الفكرة فى ميدان الـتوحيد، والتنسم بنسيم المعـرفة، والشرب بكأس المحبة من بحـر الوداد. والنظر بحسن الظن به عز وجل. فيالها مـن مجالس ما أجلها! ومن شراب ما ألذه! فطوبى لمن رزقه وآتاه.

وقال الحـسن -رضى الله عنه-: «إن أهل العقل لم يزالوا يعـودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحجة».

وكان سيدنا لقمان -عليه السلام- يطيل الجلوس وحده. فكان يمر به سيده ويقول له: فـلو جلست مع الناس كان ذلك آنس لك، فـقال له: يا سـيدى إن طول الوحدة أدوم للفكر، وطول الـفكر دليل على طريق الجنة، ولو تفكر الناس فى عظمة الله ما عصوه طرفة عين.

فالتفكـر فى ملك الله وملكوته هو أيسر طريق يوصل الإنسان إلى مـعرفة ربه وخصوصـًا فى هذا الزمان الذى كثرت فيه الأهوال، ورانت فـيه الغفلة على العقـول والقلوب، وخـيم ضباب الشـهوات وظلمـاتها على الـنفوس والأرواح

فقطعها عن الله، وأفسد فيها الفطرة السليمة التى خلقها الله فيهم لتكون نبراسًا يوصلهم إليه، ودليلاً واضحًا يدلهم عليه، وكان أول هذه الغفلة طاعة الشيطان وأعوانه من الأهواء والشهوات، وفى الحديث عن الرسول ﷺ عن الله -عز وجل- أنه قال:

«إنى خلقت عبادى كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم». ولقد كانت الفطرة فى الصدر الأول أيام الرسول ﷺ نقية صافية لا تحتاج إلى جهد وعناء لتعرف ربها. قال سيدنا عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه-: «كان لى جارية ترعى الغنم لى، فهجم عليها الذئب فأخذ منها واحدة فضربتها ثم ندمت، فجئت إلى النبى وأخبرته بالقصة، فلامنى على ضربها. فقلت يا رسول الله، أو أعتقها؟ فعسى أن يكون ذلك كفارة لى عن ضربها؟ فقال لى النبى: يا عبد الله ائتنى بها، فأحضرتها إلى مجلس النبى، فلما جلست بين يديه قال لها: يا جارية، أين الله؟ قالت هو فى السماء، فسكت النبى ثم قال: فمن أنا؟ فقالت أنت رسول الله، فالتفت النبى إلى وقال: يا عبد الله اعتقها فإنها مؤمنة.

فانظر كيف نطقت الجارية على سجيتها بالحق اليقين دون التواء ولا مراء. أما وقد كثرت الشهوات، ورانت الغفلات فلا مفرّ إلى الله إلا عن طريق التفكر والتدبر قالوا: إن رجلاً من الدهريين الذين لا يؤمنون برب، ولا يعترفون بدين كالشيوعيين فى هذا العصر، قالوا إنه جادل الإمام أبا حنيفة فى وجود الله وقال له، هل من دليل تقنع به عقلى بعيدًا عن قرآنكم الذى لا أؤمن به، فتظاهر الإمام بالإعراض عنه، فأخذ «الدهرى» يلح عليه، وكان معه جماعة من الزنادقة والملحدين، وكان الإمام جالسًا آنذاك فى مجلس الخليفة أبى جعفر المنصور، فأصر الإمام على إظهار التشاغل عن إجابته، فلما بالغ فى الإلحاح قال له الإمام:

دعنى الساعة فإن لى سفينة ضخمة محملة بأنواع البضائع والأمتعة وقد أبحرت وحدها من الهند دون أن يكون فيه ملاح ولا ربان. وأنا أخاف عليها

أمواج البحر ولججه، وما عسى أن يعترض طـريقها من عقبات وسدود فتغرق بما فيهـا، فتعجب الـدهريون من قوله. وقالوا له: إنك تهرف بما لا تعـرف. كيف يصح فى العقل أن تبحر سفينة وحـدها بدون ربان إلى هنا. وترجو لها السلامة والنجاة فقال لهم الإمام: أو ترون أن هذا مستـحيل عقلاً؟ قالوا: نعم لا يتصور العقل ذلك. فقـال الإمام: يا سبحان الله إذا لم يجز هذا فى العـقول أن سفينة تسير من غير ربان ولا ملاح فكيف يجوز قـيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وأعمـالها، وسعـة أطرافها، وتبـاين أكنافها مـن غير صـانع عليم. ودون مدبر حكيم؟ فقالوا له: صدقت وألزمتنا الحجة وأسلموا جميعًا على يديه.

وقد سئل الإمام الشافعى- رضـوان الله تعالى عليه- عن دليل عقلى يثبت للملحديـن أن للكون ربًا موجودًا، فـقال: إنى أستـدل على هذا بشىء صغـير يتحـول إلى أشياء مخـتلفة ومتناقـضة مع أن أصله واحد. فقـالوا له: وما هو؟ فقال: ورقة التوت، طعمها واحد فى شـجرتها، ولونها واحد، وريحها واحد، وطبعها واحد. ولكن تأكلها دودة القز فـتتحول إلى حرير ناعم، وتأكلها النحلة فتخرج من بطـنها عسلا شهيا، وتأكلـها الشاة والبقرة فيخـرج منها بعرًا وروثًا، وتأكلها الظبـاء والغزلان فينعـقد فى بطنها نوافج المسك. فـمن الذى جعل هذه الأشيـاء كذلك مع أن الأصل واحد؟! فـاستحسن الناس قـوله وأعجبـوا بذكائه وفطنته وأسلم كثير من الملحدين على يديه.

أما الإمـام مالك -رضى الله عنه- لما سـألوه عن دليل يثبت وجود الله. فقال: أما الأدلة فهى أمامكم كثير، ألا تنظرون إلى اختلاف الناس فى أصواتهم وصورهم وتركيبهم وألوانهم مع أن أباهم واحد وكلهم من تراب.

وكـيف جـاءوا مخـتلفين فى الطول والقـصـر، مـتبـاينين فى الأصـوات والنغمات؟ أليس هذا دليل واضح على وجود الله؟

ونزيد على دليل الإمام ما توصل إليه العلم الحديث فى هذا العصر من أنه لا يوجد حتى الآن اثنـان من الناس تتفق بصمتـهم فى رسم واحد. وصدق الله

العظيم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(١).

أما الإمام أحمد بن حنبل -رضى الله عنه- فقد أقبل عليه الملحدون بنفس هذا السؤال فقال لهم: إن عندى فى منزلى حصنًا حصينًا فهيا بنا نراه، فإنه يحمل الدليل على وجود الله. فلما دخلوا منزله وجلسوا معه قال لهم: إن ههنا قلعة منيعة وأشار إلى شيء بجواره كإناء مكفوء وقال: إن تحت هذا الإناء قلعة مغطاة بغطاء أملس ناعم وليس للحصن باب ولامنفذ، وهذا الحصن له ظاهر وباطن. فظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هذا الحصن كذلك إذ تصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، فلما استثار انتباهم وأشواقهم، واشتدت بهم الرغبة إلى رؤية هذا الحصن وما خرج منه كشف لهم الغطاء. فإذا بيضة مشقوقة وبداخلها فرخ صغير لم يخرج منها إلى الدنيا فدهشوا جميعًا وقالوا: سبحان من يخرج الحى من الميت والميت من الحى وهو على كل شيء قدير.

وكان النبى ﷺ -يضرب لأصحابه الأمثال- على عظمة الله ودقة تدبيره. فقد جاء أنه ﷺ بصق فى كفه يومًا ثم وضع إصبعه بجانب بصقته وقال لأصحابه: «**إن الله عز وجل يقول: يا بن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذا، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت فى بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟!**».

وسئل أعرابى، هل رأيت الله الذى تعبده؟ فقال: يا قوم، ألا تنظرون الأرض وما عليها، والبحار وما فيها والأفلاك وحركاتها. والكواكب وأجرامها، والرياح وما تسوقه إليكم من سحاب. يا قوم إن البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير. فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك كله على العليم الخبير؟!

ويقول الشاعر العربى الحكيم:

---

(١) الروم: ٢٢.

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال حكيم:

«عرفت الله بالنحلة أحد طرفيها عسل وفى الآخر إبر».

وسئلت رابعة، هل رأيت ربك حين عَبَدْته؟ فقالت: نعم يا قوم، لقد أغنى الصباح عن المصباح. وأنشدت تناجى ربها وخالقها:

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ولو أننا ذهبنا نجمع الأدلة ونحشد البراهين، ونبسط الحجج لأولئك الذين طبع الله على قلوبهم، وختم على بصائرهم وأبصارهم ما اقتنع منهم ملحد، ولا آمن من بينهم زنديق. وصدق الله العظيم إذ يقول فى حقهم: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾[١].

ويعجبنى نكتة وقعت من حافظ إبراهيم مع أحد الشيوعيين قالوا: إن حافظ إبراهيم كان يشهد حفلاً راقصًا مع أحد الطبيعيين الذين ينكرون وجود الله. وكانت الراقصة تأتى بحركات عجيبة، وفن مثير فكان الناس جميعًا يعجبون من حركاتها وتقلباتها ومنهم ذلك الطبيعى الذى بلغ إعجابه بالراقصة مداه حتى كان يقول من شدة إعجابه مع الجمهور رغم أنفه: «الله، الله» فالتفت إليه حافظ ووكزه فى جنبه وقال له يتهكم به: «لا تقل معنا الله، الله. ولكن قل على مذهبك: طبيعة طبيعة».

وهذا يدل على أن الإنسان مؤمن بفطرته سواء نطق بلسانه أم لا وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾[٢].

---

(١) النحل: ١٠٧-١٠٨ .   (٢) النمل: ١٤ .

فـى محبـة اللـــه

محبـة الله هى اتباع تعاليمه وأحـكامه، وامتثال أوامـره ونواهيه. وإجلاله وتقديسه، والوقوف عند حدوده، والإكثار مـن عبادته وطاعته، والحرص الشديد على اجتناب مـحارمه. فإذا فـعل المكلف ذلك كان مطيعًا لرسـول الله، ومنفذًا لأحكام دينه، عاملاً بكتابه وسنته. وحينئذ يحبه الله ويعينه على أمر دينه ودنياه، ويمنحه العزة والسؤدد، ويهبه السعادة والكرامة، ويمده بالسداد والتوفيق وهذا هو الطريق الأقوم، والصـراط المستـقيم الذى ينتهى بصـاحبـه إلى محبـة الله وإليه الإشارة بقوله تعالى فى محكم التنزيل: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

أما من عـصى أمره تعـالى، وخالف نهـيه، وانتـهك محـارمه. واقـترف الذنوب والآثام، وخـرج على طاعة النبى الكريم فى سـيرته وسنتـه فهـو شقى محروم، ومبـعد عن رحمة الله، ووليه الشـيطان وأعوان الشيطان لأن من أحب الله أطاعه، ونفذ أمره، وعمل بكل ماجاء فى كتابه، وسارع إلى اقتفاء آثاره لأن منطق الحبيب مع محـبوبه الطاعه فى العسر واليسر، وامتـثال الأوامر فى السراء والضراء.

وقد أثر عن رابعة العدوية قولها:

تعصى الإله وأنت تظهـر حبـــه	هذا لعمـرى فى القيـاس بـديـع
لو كان حبـك صادقا لأطعـتـه	إن المحـــب لمـن يحـب مطيـع

فالـعمل الصـالح، والاتباع الصـادق، والجهـاد الحق فى سبـيل اكتـساب رضوان الله كل هـذه الأشياء عنوان صـحيح لمحـبة الله، وبالتـالى فهى مـصدر لسعادة الإنسان، ومفـتاح لتوفيق الله إياه، كما أن مخالفـته والخروج على طاعته

(١) آل عمران: ٣١ .

عنوان الشقاء، وسبب كل بلاء، ودليل الفشل، ومقدمة للطرد والحرمان، وصدق الله العظيم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[1].

فعليك يا أخي باتباع الدين، والسير على منهج سيد المرسلين إن شئت أن تفوز بحب الله لك وتكون من أهل محبته ورضاه الذين قال فى حقهم:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

ومتى نال هذه المنزلة، ودخل الدين من هذا الباب دخل فى عباد الله الصالحين، وتدرج فى معارج المقربين، ونزل منازل الأبرار، والأخيار الذين قال فى حقهم:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[3].

وقد جاء فى حقهم أخبار صحيحة، وآثار مبشرة لو تذوقها الصالحون لأدركوا أن محبة الله هى لب هذا الدين، وجوهر الإيمان واليقين، وإن المؤمن لا يتذوق حلاوة إيمانه، ولا يرتشف رحيق دينه إلا إذا شرب من كئوس المحبة أصفاها من الكدر، وأنقاها من الشوائب، وأمتعها وألذها لروحه ونفسه وفى هذا المعنى يحدثنا الرسول ﷺ ويضع فى يد كل منا مقياسًا يعرف به مبلغ إيمانه بربه، ومقدار يقينه فيه فيقول ﷺ:

«ثلاث من كن فيه ذاق حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

وقال الإمام الجنيد- رضى الله عنه- يصف المحبين المخلصين، المقبلين على طاعة ربهم فى شوق، المجدين فى عبادتهم بصدق وإخلاص، قال: «أهل المحبة، شربوا بكأس الوداد فضاقت عليهم الأرض والبلاد، فعرفوا الله حق معرفته،

---

(١) محمد: ١٦ . (٢) المائدة: ٤٥ . (٣) البقرة: ١٦٥ .

فتاهوا فى عظمته وتحيروا فى قدرته، وشـربوا من معين محبته، وغرقوا فى بحر أنسه، وتلذذوا بمناجاته وذكره وعكفوا عـلى قرآنه، ونهجو نهج رسوله فكان الله لهم كما كـانوا له». وكان الشبلى -رضى الله عنه- يقـول: «علامة المحب ثلاثة أشياء، أن يختـار كلام حبيبـه على كلام غيره، ويختـار مجالسته على مـجالسة غيره، ويختار رضاه على رضا غيره».

وقد روى عن سيدنا ذى النون المصرى -رضى الله عنه- أنه قال: «دخلت المسجد لأصلى فيه الفجر فسمعت أنينًا خافتًا فى ناحية المسجد فقصدت إليه فإذا شاب مريض يئن موجعا، وينشج نشيجًـا محزنًا فسلمت عليه فرد على السلام، فسألته عن نفسه وقلت: من أنت يرحمك الله؟ فقال الشاب: إنى غريب. ففهم «ذو النون» قوله لأن أهل الله لهم لغة وإشارات يتفاهمون بها، ويدركون فحواها ومرماها، فإذا قال أحدهم إنى غـريب، فمعنى ذلك أنه غريب عن الدنيا وليس من أهلها، ففهم «ذو النون» منه مراده، وأدرك إشارته فنالت من قلبه، وحركت مشـاعره ووجدانه فـبكى. قال: رحمـه الله: فجلست عنده أمرضـه وأقوم على خدمته حتى فاضت روحـه إلى الله فغطيته بردائى، ورثيت لحاله، وخرجت من المسجد فأحضرت كفنًا طيبًا، وحنوطًا ومـستلزمات تجهيزه، ثم عدت إلى المسجد فغسلته و حنطته وكفنتـه، فلما فرغت من أمره صليت عليه، وخرجت أطلب من يعيننى على حمله ودفنه فى مقابر المسلمين، فلما عدت إليه لم أجده فى مكانه، فتـعجـبت من شأنـه وقلت: يا سبـحان الله، أين ذهب الغـلام؟ ومن نقله من مكانه؟ فسمعت من يهتف بى ويقول: لا تجهد نفسك فى البحث عنه ياذا النون- فقد تولى شأنه الملائكة. لأنه كـان غريبًا فى الدنيا، وقد طلبه الشـيطان فيها فلم يعده.

فقلت: وأين ذهبت به الملائكة، قالـوا: لا تسل عن المحبين المقربين، إنهم فى منازل الشهداء والسعداء. ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1].

وأنشدوا فى وصف المحبين الصالحين:

---

(١) القمر: ٥٥ .

لا تخــدعن فللحبيـب دلائـل	منهــا تنعمـه بمــر بلائــه
فالمنــع منه عطيــة مقبولـة	ومن الدلائل أن ترى من عــزمه
ومن الدلائـل أن يرى متبســما	ومن الدلائــل أن يرى متفهــما
ومن الدلائــل أن يرى متقشفـا	ولديـه من تحف الحبيـب وسائل
وسـروه في كــل ما هــو فاعــل	والفقــر إكرام وبــر عاجــل
طـوع الحبيب وإن ألـح العــازل	والقلب فيـه من الحبيـب بلابـل
لكلام من يحظـى لـديه السائـل	متحفظا مـن كل ما هـو قائــل

وقد أخبر الرسول ﷺ أن من بين السبعة الذين يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «رجل تعلق قلبه بالمساجـد والجلوس فيها». وهذا كناية عن كثرة العبادة، والمبالغة فى الطاعة، والإقبال على دين الله.

وقـد جاء أن فـرعون -لـعنه الله- لما طغى وبغى،وتكبـر وتجبـر، وادعى الألوهية لنفـسه، وخلع وصف الربوبيـة على شخصـه، عنفتـه زوجته «آسـية» وكـانت تؤمن بالله، وتتبع «مـوسى» على دينه. بيـد أنهـا كانت تكتم إيمانهـا، وتخفى عـبادتها. فلمـا لامت «فرعون» على ادعـائه الألوهية سألهـا عن دينها قائلا: ألا تؤمنين بى؟! ألا تعبدينني كمـا يعبدنى الناس؟! فقالت له أنا لا أؤمن إلا بالله فاطر السموات والأرض، ولا أقدس إلا ذاته تعالى.

فزجرها «فرعون» وهددها بالعذاب الشديد، وشد جسمها على الأوتاد فى حر الشمس عساها أن ترجع عن إيمانها، أو تكفـر بربها فلم يؤثر فيها عذابه ولا أنقص من إيمانهـا ذرة واحدة. فهـددها بالموت إن لم ترجع عن دينها، فـقالت: والله لا أكفـر بالله ولو كان دون ذلك الموت والسـيوف. يا هذا إنك قد غـلبتنى على نفسى وجـسمى، أما قلبى فـهو فى عصمـة ربى، فافعل بى ما تشـاء فإن مرجعنا جميعًا إلى الله فتـركها مشدودة على أوتادها فى أشد الحر دون طعام ولا ماء ولا غطاء. فكان الصـالحون من بنى إسرائيل يرثون لهـا، ونبى الله «موسى» يتوجع لعذابهـا فكان يأتيها ويقول لها: «يا آسـية» ألك حاجة أقضـيها. فكانت

تجيبه قائلة: يا موسى، أرضى ربى أم لا يزال غضبانًا؟ فيقول لها الكليم عليه السلام: يا «آسية» كيف لا يرضى عنك ربك؟ إنه يباهى بك الملائكة فى السماء: إن الملأ الأعلى كلهم فى انتظارك. فسلى حاجتك من الله فإنها مقبولة، فقالت: «رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين» ثم فاضت روحها إلى الله. وماتت شهيدة حميدة، مؤثرة دينها على دنياها. مختارة ربها على كل من سواه.

لقد كانت تتقلب فى منازل النعيم. وتتنقل فى البذخ والترف، وتتمتع بالجاه والسلطان. ولكن ذلك كله لم يفتن قلبها عن طاعة ربها، ولم يفسد عليها محبتها لمولاها. وهذا كلام قد يعتبره أهل هذا الزمان، وأبناء هذا العصر عجيبا وغريبا لأن الزمان قد فسد. والهوى قد تمكن من النفوس، والشيطان قد هيمن على القلوب، والغفلة عن دين الله قد رانت على البصائر والأبصار. وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ بأن الزمن سوف يفسد ويفسد أهله، ويضعف الدين تبعا لهذا الفساد فتسود الدنيا وتسود شهواتها، ويصبح المؤمنون فيها غرباء، والصالحون فيها أقلاء، وآنذاك تختل المعايير، وتفسد المقاييس، وتنقلب القيم والأوضاع فيصبح الفخر بالرذيلة لا بالفضيلة، والتباهى بالشر لا بالخير، والإصرار على السيئات لا على الحسنات. فقد جاء فى سنن أبى داود أن النبى ﷺ قال: **«يأتى على أمتى زمن يحبون فيه خمسًا وينسون فيه خمسًا: يحبون الدنيا وينسون الآخرة. ويحبون المال وينسون الحساب. ويحبون الخلق وينسون الخالق. ويحبون الذنوب وينسون التوبة. ويحبون الدور وينسون القبور»**.

وصدقت يا رسول الله فى كل ما أخبرت به عن أمتك حينما يتغير الزمن، وتتقلب الأحوال، وتجمل الدنيا بما فيها من شهوات فى عيون أصحابها غير عابئين بالموت وضجعته، والقبر وضمته، ويوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب. وإذا لم يكن هذا الزمن هو الزمن الذى وصفه الرسول بتلك الصفات فما عساه أن يكون؟!

لقد كان السابقون الأولون يتيمون بحب الله، ويهيمون بذكره. ويدلهون فى العبادة تدلها حتى ليظن من رآهم أنهم فقدوا عقولهم، وغابوا عن وعيهم

وما هم فى الواقع ونفس الأمـر إلا سكارى أذهلتهم محبـة الله، وآنسهم قربه، وأبهج نفوسـهم وقلوبهم جمال وجـهه. فشغلوا بـه عن شهوات الحيـاة الدنيا. وفتنوا بحلاوة العبادة والطاعة عن جميع الرغبات والملذات.

قالوا: إن رجلاً من الصـالحين صدرت عنه حركة غريبة لأنه كـان مجذوبًا فأنكر عليه أحد الجهال صنعـه فشكاه إلى «الكرخى» وهو عالم فقيه، وزاهد من العارفين والورعين. فـقال للرجل الذى أنكر على المجذوب: ومـاذا رأيت حتى أنكرت عليه؟ قال: رأيتـه يكلم نفسه ولا أحد معه، فـقال له: كن فى نفسك يا أخى، واشتغل بتـأديبها وتقويمهـا فإن ذلك خير لك من أن تعـيب على غيرك، واعلم أن لله محبين صغارًا وكبارًا، وله مـحبون عقلاء ومجانين. فلعل هذا ممن جُنُّوا بحب الله. فخجل الرجل من نفسه وقال: والله لا عبت أحدًا بعد اليوم.

ولما مرض الشبلى -رضى الله عنه- جـعلوا يجلبون له الدواء من كل فج، ويحـضـرون له الأطبـاء من كل مكان فكان لا يبـرأ من علتـه، ولا يشـفى من مرضـه، وذات يوم دخل عليـه طبيب فقـال: إن أريتمـونى بوله عرفت عـلته. فأخذوا من الشيخ بوله وعرضوه عليه. فلما نظر فيه، قال: هذا بول رجل أنهك جسمـه الصوم، وأضعف كبده الزهد، وأطفأ حـرارة بدنه شدة الخوف من الله، فلما سمع ذلك «الشبلى» قال: قاتله الله ما أحذقه، فليتنى أبلغ وصفه فأكون من المؤمنين ثم لا أبالى بعد ذلك أتبرأ علتى أم أعيش عليلاً مريضًا.

ولقد سئل -رحمه الله- يومًـا: يا شبلى، هل تحب الله؟ فقال لسائله: إن هذا سؤال لا أقـدر على جوابـه: فقال له: ولماذا وأنـت إمام العارفـين، وشيخ العلمـاء العاملين؟ فـقال: يا أخى إذا سـألك سائل: هل تحب الله فـاسكت عن جوابه فـإنك إن قلت له: لا أحبه. كـفرت. وإن قلت إنى أحبـه. فليس فعلك فعل المحبين المخلصين فاحذر أن يمقتك الله على قول لا يصدقه فعل. وتدبر قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُـونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[١].

---

(١) الصف: ٢-٣.

فقــال له السائل: يا سـيدى. متى يكون الرجــل صالحًا؟ قــال: إذا كانت النصيحة فى نيته، وخوف الله فى قلبه، والصدق فى لسانه، والعمل الصالح فى جوارحــه. واعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيـئة كمــا قال رسول الله. فـقال: وهل لذلك من علامــة يعرف العبــد بها، قال: نعم يا أخى، عــلامة حب الله، حب القــرآن، وعلامــة حب القرآن حب النبــى، وعلامــة حب النبى التمـسك بسنته، والســير على منهاجــه وقدوته. وعلامة ذلك حب الآخــرة وبغض الدنيا وهو ألا تأخــذ منهــا إلا زادك. وقــد ثبــت عن النبى ﷺ أنه قــال: كل أمــتى يدخلون الجنة إلا من أبــى. فقــالوا له: ومن يأبى دخــول الجنة يارســول الله؟! فقال: من أطاعنى وتمسك بـسنتى، ونهج منهجى، واتبع هداى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى».

وقال السرى السقطى -رضى الله عنــه-: إن لله شرابًا فى الدنيا ادخره فى ربوبيته يســقيه أولياءه فى ميدان مــحبته على منابر كرمه فــإذا شربوا طربوا، فإذا طربوا طاشوا، فــإذا طاشوا هاموا، فــإذا هاموا طاروا، فــإذا طاروا وصلوا، فإذا وصلوا اتصلوا فهم عنده تعالى فى مقعد صدق وإن رآهم الناس من أهل الدنيا.

وقد قــيل لمريم- عليهــا السلام- وهى تتــعبد فى مــحرابهــا ألا تتزوجين؟ فقالت: إن لسانى مــشغول بذكر الله، وجوارحى مشغــولة بخدمته، وقلبى هائم بحبــه. فليس لى فى الزواج حظ ولا مــأرب فمن أجل ذلك رزقــها الله بســيدنا عيسى -عليه السلام- دون أن تتزوج أو يمسها بشر.

وقال ســيدنــا «داود»: يا رب، إن لكل ملك خزائن، فــما هى خــزائنك؟ وأوحى الله تعالى إليه: «يا داود، إن لى خزانة هى أعظم من العرش وأوسع من الكرسى، وأطيب من الجنة، وأنور من الشمس وهى قلب عبدى المؤمن».

وفى الحديث القدسى أن الله أوحى إلى سيــدنا موسى -عليه السلام- «**إن السموات والأرض لم تسعنى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن**».

وقال سيدنا ذو النون- رضى الله عنه-:

بينما كنت أمشى فى الطريق، أبصرت جارية والصبيان يعبثون بها، فأبعدتهم عنها. ثم أقبلت عليها فأصلحت من شأنها وسألتها عن أمرها، فجعلت تسألنى فى علم الحقيقة، وتناقشنى فى الزهد والورع، وتتكلم بلسان المريدين الصديقين فقالت لى: يا ذا النون ما علامة الصدق مع الله؟ فقلت لها: صيام النهار وقيام الليل، والإيثار على النفس طلبًا لمرضاة الله. فقالت: وكيف يلذ النوم لمن أيقن أن حبيبه لا ينام؟! ثم رفعت وجهها إلى السماء وقالت تناجى ربها: إلهى إن فكرت فى إحسانك إلى لم أبلغ كنهه بفكرى، وإن فكرت فى فضلك على لم أقم فيه بشكرى فواعجبا لقلوب العارفين كيف لا تتفطر إجلالا لقدرك، وإعظاما لوصفك تباركت يا مولانا ما أحلمك على من عصاك وما أكرمك على من لم تدع له شغلاً سواك. ثم أنشدت هذه الأبيات:

يا طبيب القلوب أنت الطبيب ... أنت أنسى وأنت منى قريب

يا طبيبًا بذكره يتداوى ... كل ذى سقم فنعم الطبيب

طلعت شمس من أحب بليل ... واستنارت فما تلاها غروب

إن شمس النهار تغرب ليلاً ... وشموس القلوب ليست تغيب

وإذا ما الكلام أسبل سترا ... فإلى ربها تحن القلوب

قال ذو النون: فعلمت أنها من الصالحات القانتات، والزاهدات الورعات. فكنت أزورها من حين إلى حين وأتدارس معها كتاب الله.

وجاء فى كتاب الحلية لأبى نعيم -رضى الله عنه- أن رجلاً كان فقيرًا على عهد رسول الله ﷺ وكان مع فقره تقيًا صالحًا حريصًا على صلاة الجماعة خلف رسول الله- وكان لا يملك إلا ثوبًا باليًا قديمًا كان يرقعه من حين إلى حين حتى أصبح لا يتحمل ترقيعًا، فانقطع عن صلاة الجماعة خلف رسول الله، فسألته زوجته عن سبب تخليه عن المسجد فأخبرها أنه يستحيى من ثوبه. فقالت له الزوجة وكانت صالحة أيضًا: خذ ثوبى فصل به. ففعل فكان إذا فرغ من صلاته أسرع إلى منزله لتتمكن زوجته من صلاة الوقت فى حينه. وظل على ذلك أيامًا

وافتقده رسول الله ﷺ فسأل عنه أصحابه فقالوا له: يا رسول الله إنه يصلى فى الصف الأخير ، فـإذا فرغت من صلاتك أسرع إلى العـودة دون أن يكلم أحداً منا. فقال النبى: على به فأحضـروه إلى مجلس رسول الله. يعلو وجهه الخجل ويكسوه الاستخزاء. فسأله النبى: عن أسباب غيبته عن مجلسه. فقال: يا رسول الله: إن أحب شىء إلى أن أصلى خلفك. ولكن ليس لى ثوب أصلى فـيه وقد أخذت ثوب زوجتى منها فأنا أحضر به الجماعة خلفك. فإذا فرغت أسرعت فى عودتى لكى تدرك الزوجة الوقت قبل خروجـه. فلما سمع الرسول منه قوله رق له وأمر له بـثوب. فأخـذه وعاد به إلى منزله. فلمـا رأت زوجتـه الثوب مـعه سألته: من أين لك هذا الثوب؟ فـحدثها حديثه، عليها خـبره. وأعلمها أن هذا ثوب رسـول الله فـأغضـبـهـا قـوله وقـالت له: يرحـمك الله، أوتشكو ربك لرسوله؟!.

فانظر يا أخى أى قـوم هؤلاء الذين صنعهم الإسلام على عـينه، وغذاهم بلبـانـه. وجـعل منهم مـلائكـة أبراراً يمشـون على الأرض وهم بشـــر يأكلون ويشربون.

وروى الإمـام أحمـد بن حنبل -رضى الله عـنه- فى كتـاب الزهد قـال: حدث الأصمعى فقال: دخلت الكعبة فى منتصف الليل ألتمس هدأة أطوف فيها حول بيت الله فـوجدت شابا مـتعلقا بأسـتار الكعبـة يتضرع إلى ربه ويناجـيه، وينشد فى ذلة وابتهال هذه الأبيات:

ألا أيها المقصـود فى كـل حالــة	**شكوت إليك الضر فارحم شكـايتى**
ألا يا رجـائى أنـت تكشــف كربتى	**فهب لى ذنوبى كلها واقض حاجتى**
أتيـــت بأعمـال قبـاح رديئـــة	**وما فى الـورى عبد جنى كجنـايتى**
اتحـرقنى بالنــار ياغـايــة المنى	**فأين رجائي فيــك؟ أيـن مخافـتى؟**

ومازال هذا شأنه، يبكى ويتضرع حتى خر مغشيًا عليه فدنوت منه لأخفف عنه وطأة الحزن، وأخذت رأسه فجعلتهـا فى حجرى وتأملت فى وجهه فإذا هو

«على زين العـابدين». فلمـا أحس قال: من هذا الذى يتـهجـم علينا فى خلوتنا بحبيب قلوبنا؟ فقلت له: عبدك الأصمعى. وأخذت أروح عن نفسه ما يجد من الهول والخوف. وقلت له: سيدى ما هذا البكاء؟! وما هذا الحزن وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة؟! أليس قد أخبركم الله -عز وجل- أنه قد غفر لكم ذنوبكم، وأذهب عنكم كل رجس وطـهركم تطهـيراً، ألم ينزل الله فى حـقكم قرآنًا يتلى في المساجد والمحـاريب آناء الليل والنهار. ألم يقل فى حقكم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]. فاشـتد بكاؤه وقال: هيـهات هيهـات يا أصمعى إن الله خلـق الجنة لمن أطاعه ولو كان عـبدا حبشيًا، ويخلق النار لمن عصاه ولو كان شـريفًا قرشيًا أو ما قرأت قوله تعالى فى محكم تنزيله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[2].

وقال «عبد الرحمن بن المهلب»: خرجت إلى سـوق العبيد لأشترى لنفسى عبـدًا يخدمنى. فـوجدت سيـدًا يبيع عبـده وينادى عليه فى السـوق قائلاً: من يشتـرى هذا العبـد على عيبـه؟ فقلت له: يا سـيدى، وما العـيب الذى فى هذا العبـد؟ فقال: سل العبـد يخبرك. فسـألته فقال: عـيوبى كثيـرة ولا أدرى بأيها شهرونى فرجعت إلى صاحبه وقلت له يرحمك الله. ألا تخبرنى عن عيب ذلك الغلام؟ قـال: إنه معتـوه العقل ينتابه الصـرع من حين إلى حين. فقلت للعـبد أيأتيك هذا كل يوم أم يأتيك كل أسـبوع؟ فاسـترجع وبكى وقال: يا سـيدى إذا استـولى داء المحبة على القلب سـرى فى الأعضاء، وإذا استـولى على الجوارح نشر خـمار المحبـة على سائر البدن فـيطيش العقل بذكر الحـبيب. فيـحدث فى القلب استغـراق، وعلى البدن سكون فيراه الجـاهـل فيظنـه عتهًـا وجنـونًا، قال عبد الرحمن: فعلمت أن الغلام من أولياء الله الصالحين. فقلت لسيده: كم ثمن هذا الغلام؟ فقال: ثمنه مائة درهم فـقلت له: ولك منى عشرون فوق المائة. ثم جئت به إلى منزلى. فكان يصـوم النهار ويقوم الليل ولا ينقطع لحظة عـن عبادة الله وتلاوة كتاب الله.

---

(١) الأحزاب: ٣٣ . (٢) المؤمنون: ١٠١-١٠٤ .

وذات ليلة دخلت مخدعه فوجـدته يصلى ويبكى حتى سجد فكان يناجى ربه، فحـفظت من مناجاتـه هذه الكلمات: «إلهى أغلقت الملوك أبوابهـا وبابك مفتوح للسائلين. إلهى غارت النـجوم، ونامت العيون، وأنت الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم. إلهى فرشت الفـرش، وخلا كل حبيب بحبـيبه، وأنت حبيب المجتهدين، وأنيس المستوحشين. إلهى إن طردتنى عن بابك فإلى باب من ألتجئ، وأن قـطعتنى عن جنابك فـبجناب من أحـتمى. إلهى إن عذبتـنى فإنى مسـتحق للعذاب والنقم، وإن عفـوت عنى فأنت أهل الجود والكرم، يا سـيدى لك أخلص العارفون، وبفـضلك نجا الصالحون، وبرحمـتك أناب المقصرون. يا جميل العـفو أذقنى برد عفوك، وحلاوة مغـفرتك. إن لم أكن أهلاً لذلك فأنت أهل لذلك وأنت أهل التقوى وأهل المغفرة».

فلما أصبحت قلت له: يا أخى، كيف كان نومك الليلة؟ فقال: كيف ينام من يخاف النار والعرض على الواحد القـهار. ثم بكى: فقلت له: اذهب فإنك حـر لوجه الله. فلم يفـرح بذلك. وقـال: يا سيـدى، كـان لى أجران: أجـر العبودية وأجـر الخدمة فحرمـتنى من أحدهما أعتق الله وجـهك من حر جهنم. فدفعت إليـه نفقة. فأبى أن يأخذ شيـئًا وقال: إن من تكفل برزقى حى لا يموت ثم غاب عنى. فكنت كلما ذكرت كلامـه أخذنى البكاء فسألت الله أن يحشرنى فى زمرة عباده الصالحين المحبين لقربه. والساعين ليلهم ونهارهم إلى طلب فضله ورضاه.

وبالجملة فإن مـحبة الله سبحانه تملأ القلب بأنوار المعـرفة، وتفتح له باب الأسرار وتنصب له مـعراج الوصول، وتوقفـه على باب النفحات والتـجليات، وتجعله أهلا للكرامـات ومهبطًا للخـيرات والبركـات يعبد الله على درجة عـباده الصديقين، وأوليائـه المقربين الذين يجدُّون إليه، ويسعـون إلى قربه والذين أثنى عليهم فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) الزمر: ٣٤-٣٥ .

فى محبة الرسول ﷺ

للرسول ﷺ على أمته فضل لا ينسى، ومعروف لا يجحد، ومكارم وأفضال يعرفها التاريخ ولا ينكرها إلا الجاحدون، ولا يجهلها إلا من يجهل الشمس فى رائعة النهار، كيف لا، وهو الرحمة المهداة التى تفضل الله بها على عباده، والغيث المبارك الذى أحيا الله به القلوب من مواتها، وصقل به الأرواح من صدئها، وزكى به النفوس من خبثها، وأنقذ به العقول من حيرتها وضلالها، وشفى به القلوب من عللها وأمراضها، وكشف الحجاب عنها فرأت ربها فهو منة من الله تفضل بها على عباده المؤمنين، وهو السراج المنير الذى أضاء لنا طريق الهدى فسلكناه، وهو الفرقان القائم، والبرهان الصادق بين ظلمات الشرك، وضباب الكفر، وبين نور التوحيد، وضياء الإخلاص، وبفضل جهاده وثباته، وبفضل نضاله وكفاحه، وبفضل صموده وتجلده، وبقوة إيمانه ويقينه محا الأصنام والطواغيت، وأزال الظلم والطغيان، وأقام للسماء دولة فى الأرض تقدس الله وتعظمه، وتخافه وتخشاه، حمل لواء الدعوة الإسلامية وحده، وواجه أعباءها ومصاعبها بمفرده لا يؤازره جند، ولا يساعده جاه ولا سلطان، ولا يعينه على أمره معين ولا ظهير، لم يكد يعلن فى قومه كلمة التوحيد -وهم غلاظ شداد، وقساة طغاة، ومردة مستبدون- حتى هبوا فى وجهه، ووقفوا حجر عثرة فى طريقه، وحشدوا الأموال والرجال، وجمعوا الذخيرة والعتاد لمحاربته والقضاء على دعوته فلم يعبأ بجمعهم، ولا اكترث بوعيدهم وتهديدهم. بدأ دعوتهم إلى الله بالحسنى. ونهاهم عن كفرهم وشركهم بالحكمة والموعظة الحسنة فلما لم يستجيبوا لدعوته، ولم يذعنوا لرسالته خرج إليهم بسيفه ورمحه فقاتلهم وقاتلوه، ونال منهم ونالوا منه حتى كانت الدائرة عليهم وساد الحق، وباتت الملة المحمدية فى ركن ركين، وحصن حصين ولكن بعد ما دفع النبى عمره كله ثمنًا لذلك النصر، وبعد ما قدم حياته كلها قربانا لهذا الفوز العظيم، ولم ينته عمره، ولا انطوت صفحة حياته على الأرض حتى أبدل الجاهلية المتأصلة، والهمجية

المتمكنة بالمعرفة الشاملة، والإنسانيــة الكاملة، والملائكية الربانية تصنع من الجهال علمــاء ومن الضعفــاء أقوياء، ومن الفــقراء أغنيــاء، ومن العبــيد والأرقــاء قادة فاتحين، وجنودًا مهاجمين يخشى بأسهم الفرس، وتتقى غضبهم الرومان، وتعنو لعظمتهم وعزتهم وجوه الجبابرة، وجباه القياصرة، ومازال الإسلام تخفق بنوده، وترفرف ألويته، ويغزو بنوره العقول والقلوب، ويهذب بأحكامه وقضائه النفوس والأخلاق، حتى وصل إلينا سليــمًا قويًا وعامرًا زاخرًا. وكــان صاحب الفضل الأول فى ذلك علينا وعلى الناس هو رســول الله الأمين. فأى فــضل أعظم من فضل رسول الله على أمــته، وأى منن طوق بها أعناقهم، وأى ذكر تركــه فيهم، الحق إننا لا نعرف منة نــقدرها، ولا نعمــة نشكرها، ولا معروفًــا نمدحه ونطريه بعد منة رسول الله على أمته إلا أن تكون منــة الله على عباده فى إعطائهم الحياة ومنحهم الوجــود. ولا غرابة إذًا ولا عجب إذا رأينــا المسلمين قديمًا وحديثًــا قد تفانوا فى حــبه، وأسرفــوا فى تعظيمه وتكريمه، وفــدوه بالنفوس والأرواح لأنه مصدر سعادتهم فى الدنيا، وشفيعًا لهم فــى القيامة، وساقيهم بيده الشريفة على الحوض، ودليلهم على الصراط يسعون فــى نوره إلى الجنة لا سيما وأنه بعد كل ما تقدم بأكــرم منزلة. وأعظم مكانة من تقدير الله وتكريمه، وإجلاله وتــعظيمه. فقد روى صاحب الشمائل أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يتحدثون فيما بينهم عن منزلة الأنبياء، ومكانة الرسل من الله فخــرج عليهم النبى الكريم فقال لهم: فيما تتحدثون وعلام تختلفون؟ فقالوا: يا رسول الله، جرى بيننا ذكر أنبياء الله ورسله فوددنا أن نعــرف أيهم أفضل منزلة، وأعلا مكانة عند الله فــقال لهم النبى ﷺ: «**إن إبراهيم خليــل الله وهو كــذلك، ومــوسى نجى الله وهو كــذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم صفى الله وهو كــذلك، ألا وإن محمدًا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأول شافع وأول مشفع يوم القــيامة ولا فــخر، وأنا أول من يحــرك حلق الجنة فــيفتح لــه فأدخلهــا ومعى الفقراء والمساكين، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر**».

وقال فى حــديث آخر لأصــحابه: «**أو تعــجبــون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ**».

من هذا وغير هذا نعلم كيف كانت الصحابة يقبلون على حب رسول الله، ويفدونه بالنفوس والأرواح، ويتلقون الضربات والطعنات عنه بوجوههم وأجسامهم حتى كانت الملائكة تتعجب منهم. فقد ثبت أن سيدنا «جبريل» نزل على رسول الله بعد فراغه من «غزوة أحد» ليواسى قلبه، ويضمد جراحه، ويعزيه فى أكبر مصاب أدمى قلبه وأوجع كبده، وقطع أحشاءه فى مقتل «الحمزة» عمه من النسب وأخيه من الرضاع ، وليبصره بدور أصحابه فى المعركة، فقال له: يا رسول الله، من حملك على ظهره والقتال على أشده وقد أقبل الموت على النفوس فقال النبى: حملنى «طلحة بن عبد الله». فقال: جبريل أقرئه منى السلام وبشره أنى لا أراه يوم القيامة فى هول من أهوالها إلا أنقذته منه، ثم قال: فمن هذا الذى كان قائمًا على يمينك يفديك بنفسه، ويرد عنك الأعداء فقال: «المقداد بن الأسود» فقال له جبريل: بشره بأن الله يحبه ويأمرك أن تحبه. ثم قال: يامحمد، فمن الذى كان بين يديك يكشف بسيفه الكربات عن وجهك، ويدفع الضربات عن جسمك، ويستقبل السهام حتى لاتصيبك، ويستصرخ الناس أن يذودوا عن دينهم ونبيهم. قال: «عمار بن ياسر» قال: بشره بالجنة، حُرِّمت عليه النار، ثم قال له، فمن الذى كان يرد الخيل بنبله عن ساحتك، ويدفع فرسانها عن موضعك؟ قال: ذلك «سعد بن أبى وقاص» فقال جبريل: بشره بالجنة ورضوان الله عنه يوم الجزاء فأخبر الرسول ﷺ كل إنسان منهم بمكانته من الله فازدادوا له حبًا على حب. وتكريمًا على تكريم.

وإذا سخر الإله إناسا لسعيد فإنهم سعداء

وتحدثنا كتب السيرة أن النبى ﷺ لما خرج إلى العمرة بعد أن رأى رؤياه، وخرجت أصحابه معه قاصدين بيت الله الحرام، فتصدت لهم قريش ومنعتهم من دخول «مكة» بلد الله الحرام وهى يومئذ كُلٌّ مباح ينال منه القاصى والدانى، ويتقرب فى رحابها وجنباتها البعيد والقريب، ويطوف بالكعبة المشرفة البار والفاجر، ولم يمنع منها، ولم يبعد عنها إلا المسلمون، وعلى الرغم من أن الدواعى كلها، والأدلة جميعها كانت تشهد بأن الرسول ما جاء لحربهم ولا قصد

لقتالهم، ولكنهم تصدوا له حتى منعوه وقومه العمرة والطواف حول بيت الله، فلما تأزم الموقف، واشتد الحرج دعا الرسول أصحابه إلى البيعة على قتال المشركين فأجابوه جميعًا، وتمت «بيعة الرضوان» التى أشاد بها القرآن فى قوله تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

فلما رأت «قريش» مبايعة الصحابة للرسول خافوا العاقبة، وتوقعوا أن تكون الدائرة عليهم فطلبوا من الرسول الصلح فصالحهم بشروط قاسية وكان القائم على إبرام هذه الشروط، والمشرف على إتمام هذا الصلح سهيل بن عمرو وهو سيد من ساداتهم، وطاغية من طغاتهم، ورجل ممن يزنون الأمور ويقدرون العواطف والأحاسيس لقد رأى من الصحابة وحبهم لرسولهم، وتكريمهم لشخصه ما أدهشه، وأثار إعجابه ومخاوفه. رآهم كلما ذكر شرطًا من شروط المصالحة، أو بندا خشنًا من بنودها يرضى به الرسول، ويثور المسلمون حتى يشير الرسول إليهم فتهدأ نفوسهم، وتسكن مشاعرهم حتى قالوا: إنه نقل هذه الصورة الرائعة إلى «قريش» فنالت من نفوسهم، وضاعفت من خوفهم. فما الذى قاله سهيل يا ترى للمشركين من كفار مكة وهو الخطيب اللسن، والفصيح القئول الذى يقول الكلمة بقدر فى حينها وأوانها بدون مواربة ولا نفاق فتحمل عنه إلى آفاق الدنيا لتحفظ وتروى. حكمة موجهة، ومثلاً سائرًا، وتوجيهًا رشيدًا سديدًا؟! لقد قال لهم «سهيل» وهو من هو فيهم عزة ومكانة، وسيادة وقيادة: يا قوم، دعوا عنكم «محمدًا» ولا تتعرضوا له بسوء. فوالله لقد أتيت «كسرى» فى قومه، وأتيت «هرقل» فى عزه وملكه، وأتيت الغساسنة بالشام، والمناذرة بالعراق، والتبابعة فى اليمن. فما رأيت أحدًا يحب أحدًا، ويتفانى فى حبه وتقديسه؛ كحب أصحاب محمد لمحمد، ووالله لقد رأيته وقد قام إلى وضوئه ثم أخذ يحلق شعره. فوالله ما وقع من وضوئه شيء على الأرض، وما

---

(١) الفتح: ١٨ .

ذهب من شعره شعرة فى الهواء فكان المشركون يسمعون من «سهيل» وهم خشعًا صامتين، وكأنما على رءوسهم الطير.

وكلنا نعلم كيف فداه «على بن أبى طالب» بنفسه حتى باهى به الله ملائكته فى السماء؟ وكيف فداه «الصديق» بشخصه وهما ذاهبان إلى الغار تحت ستار الليل وفى غسق الظلام حتى قالوا: إنه كان يمشى مرة عن يمينه وأخرى عن يساره وتارة خلفه وتارة بين يديه فلما سأله النبى عن ذلك قال: يا رسول الله، وددت أنى فديتك بنفسى من جميع الأضرار والأخطار، إن نفسى قلقة عليك يا رسول الله فأنا إذا ذكرت الرصد كنت أمامك، وإذا ذكرت الطلب كنت وراءك، وإذا ذكرت الخطر المحيط بك عن اليمين وعن الشمال كنت عن يمينك وشمالك، فأثنى الرسول عليه كثيرًا، ودعا له بخير.

وتذكر كتب السيرة أن النبى حفيت قدماه من صلابة الصخر، ودميت أخماصه من خشونة الحصى، فحمله «الصديق» على كتفيه حتى انتهيا معا إلى الغار فبادر الرسول إلى دخوله فأمسك بثيابه «أبو بكر» وقال لا تدخله يا رسول الله حتى أستبرئه لك فإن كان فيه أذى أصابنى قبلك. أو خطرًا أهلكنى دونك فإننى إن مت كنت فردًا لا أغنى بنفسى شيئًا، أما إن مت أنت يا رسول الله فقد ماتت أمة بأسرها، وأبيدت دعوة برمتها. وقد قدر الرسول شعوره، وأذعن لنصيحته. فدخل ذلك الغار المظلم واستبرأ ذلك المكان المهجور، وجعل يتلمس أرضه وجوانبه بيديه فى ذلك الظلام الدامس غير حافل ولا آبه بما عسى أن يصيبه من هول، أو يمسه من شر فلما اطمأنت نفسه إلى سلامة الغار ونظافته من كل مكروه، أذن للرسول بالدخول فيه.

فلما اطمأن بالرسول المقام فيه أخذه النوم لشدة ما لقيه من عناء السفر، وخوف الطلب فنظر إليه سيدنا «أبو بكر» فإذا هو قد أخذه نوم شديد فأسرع الصديق إلى جنبات الغار يسد شقوقه وجحوره بقطع من ثوبه خوفا أن يخرج منها حشرة ضارة أو ثعبان سام فيعتدى على جسم الرسول، ويقول كتاب السيرة: إنه مازال يتقى الجحور بثوبه حتى نفدت كل خرقه ومزقه وبقى منها

جحر لم يجد له الصديق بقية من ثوبه فاتقى خطره بقدمه ووضع على فمه كعبه، وكان بداخله ثعبان فلدغ «أبا بكر» فسرت فى جسمه حرارة السم، ودب فيه دبيبه حتى آلمه ذلك، فأجهش بالبكاء فاستيقظ الرسول فزعًا مذعورًا لبكائه وقال له: ما الذى أصابك يا أبا بكر؟ قال: لدغنى ثعبان يا رسول الله، وهنا تمثل للرسول أمام عينه كل ما قدم «أبو بكر» فى سبيل حبه من جهد، وما بذله من تضحية وفداء، وأنه كان أول المؤمنين بدعوته يوم أن جاء الإسلام، وأول المصدقين بمعجزته يوم أن أسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء. ثم هو اليوم يخرج من داره وبلده، ويفارق أولاده وأهله مهاجرًا إلى الله ثم لا يزال به حب رسول الله حتى يلحقه كل هذا الأذى. تمثل ذلك كله أمام عينى الرسول، فرفع يديه إلى السماء وقال:

«اللهم إنى قد رضيت عن أبى بكر، فارض عنه. اللهم كما جعلته رفيقًا لى فى الدنيا، وصاحبًا لى فى الغار فاجعله رفيقًا لى فى الجنة واجمعنى وإياه فى مستقر رحمتك يا أرحم الراحمين».

قالوا: فسمع النداء من قبل الله -عز وجل- «أن قد استجبت لك».

وكان من أصحاب رسول الله ﷺ من تيم بحبه، وأغرم بلقائه وأصبح لا يستغنى عن رؤيته صباح مساء، ولا تطيق نفسه الصبر على بعده وفراقه، ومن هؤلاء خادمه «ثوبان».

الذى كان يبرح به الشوق، ويأخذه الوجد، ويضنيه الحب والهيام إن غاب رسول الله عنه، أو مرت به أيام دون أن يجلس إليه أو يراه. وفى يوم من الأيام رآه الرسول وقد هزل جسمه، وشحب لونه، ولا يشك من رآه أنه مريض عليل.

فسأله النبى: أو تشكو علة يا «ثوبان» نطلب لك الشفاء منها؟! فقال: يا رسول الله، ما أشكو مرضًا ولا علة إلا أنى إذا لم أرك اشتد بى الشوق، وهام بى الوجد ولا يسكن ما بى حتى أشاهدك وقد فكرت فى ذلك طويلاً وذكرت أمر الآخرة حيث أحرم منك، وأبعد عنك وتكون أنت فى أعلى عليين ومنازل

الأنبياء والمرسلين، وأكون أنا حيث أكون وآنذاك يحال بينى وبينك فلا أراك. فرق الرسول لحالته، وقدر عواطفه وإحساسه ودعا له أن يكون معه فى درجة النبيين والصديقين فشفعه الله فى حبيبه، واستجاب دعاءه فيه، وأهبط عليه «جبريل» بوحى يتلى وقرآن يردد على مدى العصور والدهور. ليقرأ على الناس بشارة «ثوبان» بأكرم منزلة، وأعلى درجة ثمنًا لطاعة الله، ومهرًا لحب رسول الله، أنزل «جبريل» بهذه الآية:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[1].

وكان سيدنا بلال -رضى الله عنه- يحب رسول الله ولا يكاد يصبر على لقائه طرفة عين ودخل فى الإسلام يوم أن دخل الإسلام «مكة» وعذب فى الله، وأوذى إيذاء شديدًا حتى رق له الرسول من شدة ما كان يعانيه من العذاب على يد سيده «أمية بن خلف» فكان الرسول يبكى إذا رآه يعانى من التعذيب، وقد أدرك «أبو بكر» فى نفس الرسول شيئًا وكأنما لسان حاله يقول: لو كان لى مال لاشتريت «بلالاً» من سيده وأعتقه ابتغاء مرضاه الله.

فأسرع «أبو بكر» واشترى «بلال» من «أمية» ثم أعتقه يوم أن اشتراه. فجند «بلال» شخصه لخدمة الإسلام، فشهد مع رسول الله المشاهد كلها. وكان حسن الصوت فقضى عمره كله مؤذنا لمسجد الرسول، وكان حبشى اللهجة ينطق الشين سينًا. فكان إذا رفع صوته بالشهادتين قال: أسهد أن لا إله إلا الله، فأراد قوم من الصحابة أن يغمزوا أذانه، ويقللوا من شأنه فقالوا للنبى: إن «بلالاً» يلحن فى الأذان، وأنه ينطق الشين سينًا وفينا من هو خير منه أذانًا، وأحسن منه صوتًا، وأكمل نطقًا وأداء، فلم يشأ الرسول أن يجليه عن موقفه، ولا أن يحرمه من شرف هذا المقام، بل قام لأصحابه يرفع من مكانته، ويعلى من قدره، ويعرفهم بما له عند الله من مقام محمود فقال لهم: يا قوم. إن سين «بلال» عند الله شين، وهو يلحن الأذان فى الأرض فيصححه له الملك فى السماء.

---

(١) النساء: ٦٩ .

وانتقل رسول الله ﷺ و«بلال» على ما هو عليه فى الإسلام إلا أنه ترك الأذان حزنًا على موت رسول الله. ولم تطب له المدينة بعد موت حبيبه وانتقال رسوله إلى جوار مولاه، فرأى أن يهاجر إلى الشام فذهب إلى سيدنا «أبى بكر» ليستأذنه فى ذلك فعز على «أبى بكر» أن يفارقه «بلال» فتشبث ببقائه معه فى المدينة وأصر «بلال» على أن يهاجر إلى الشام فتشدد الصديق فى الإذن له بالهجرة لأنه من الرعيل الأول، وبقية الصالحين. فلما رأى «بلال» تشدد الخليفة الراشد فى الإذن له أراد أن يستثير شعوره فقال له: يا خليفة رسول الله، إن كنت قد اشتريتنى وأعتقتنى لنفسك فأنا لك ولا أعصيك. وإن كنت قد اشتريتنى وأعتقتنى لله فدعنى أذهب حيث أشاء. فخجل الصديق من قوله وخنقته العبرة وقال بصوت يقطعه البكاء: والله يا أخى ما أعتقتك إلا لله، وقد أذنت لك على كره منى فاذهب حيث شئت يا «بلال». فذهب «بلال» إلى الشام وارتضاها وطنًا ثانيا. ومر عام كامل لم ير فيه «بلال» بعدما قضى يومه، وأدى فرضه، وقرأ ورده رأى رسول الله ﷺ فى منامه يعاتبه فى رفق، ويسأله فى شوق ويقول له: ما هذا الجفاء يا «بلال». ألم يأن لك أن تزورنا؟ فاستيقظ «بلال» من نومه فزعًا، وجعل يبكى وينتحب وتذكر الأيام الخوالى، والساعات الحالمة، والأوقات الميمونة التى قضاها فى رحاب الرسول، تذكر يوم أن كان يشق إليه حجب الظلام ليوقظه من نومه، ويعلمه دخول الفجر ويقول له بصوت عذب حنون لم تشبع منه ساعات الصباح الأولى حتى اليوم ولا سئمته آذان المسلمين حتى الآن: «الصلاة خير من النوم» فيجيب الحبيب حبيبه بصوت أكثر منه رقة، وأحلى عذوبته وأمتع جرسًا وانغامًا: صدقت وبررت» ثم لا ينصرف «بلال» إلا ويده فى يد الرسول حتى يدخلا المحراب، تذكر ذلك كله دفعة واحدة. ثم أسرع إلى «المدينة» ودخل مسجد رسول الله، وأقبل على قبره الشريف فأكب عليه فى شوق، واحتضنه فى لهفة. وجعل يبكى بكاء الثكلى ويئن أنين الملدوغ حتى اجتمع المسلمون عليه يهدئون من لوعته، ويكفكفون من دموعه، فدارت عينه حوله يتفقد هذه الوجوه فوقع بصره فجأة على «الحسن» و«الحسين» فهاج به الوجد أكثر، وتملكه الحنين وكادت تعصف به ما اجتمع عليه فى هذا الموقف من

ذكريات غالية، ولم يطفئ هذا الشوق ولم يبل هذا الظمـأ، إلا قبلة طبعها على فم «الحسن» و«الحسين» حيث كان يقبلهما رسول الله. وقد عانق «بلال» السبطين الحبيـبين وطلبا إليه أن يؤذن لهم كمـا كان يؤذن أيام الرسول فاسـتجاب «بلال» لرجاء «الحـسن» و«الحسين» وكان الوقت قد حـان فرفع صوته قائلاً: الله أكـبر. فتسمع أهـل المدينة إلى صوت طالما أشجى آذانهم. وهز قلوبهم وضجوا جـميعًا بالبكاء. إنه صـوت «بلال» مؤذن النـبى. فلما قـال: «أشهـد أن لا إله إلا الله» صدق الشاك، وأيقن المرتاب أنه «بلال» فلما قال: أشـهد أن محمدًا رسول الله. لم تبق امرأة فى بيتهـا، ولا عذراء فى خدرها إلا خرجت لرؤية «بلال». ولم ير أكثر من هذا اليوم باك ولا باكية. حتى قيل إنه كان أشبه الأيام باليوم الذى انتقل فيه الرسول إلى جوار الله. حتى قال بعضهم -من هول الموقف-: إن رسول الله قد بعث بيـننا من جديد فعـاد «بلال» بعودته إلى المدينة. ثـم أمسك «بلال» عن الأذان بعدها حتى فارق الدنيا.

وكلنا نذكر بكاء «عمر» يوم أن أبلغ بوفاة رسول الله.

وقال أبو نعيم فى كتاب الحلية: إن رجلا من اليـهود قال لسيدنا «سعيد بن المسيب» يومًا: يا سـعيد، ما لكم إذا نظرتم إلى قبر نبـيكم تبكون وتسرفون فى البكاء. فقـال له «سعيد»: إن أسـلمت ووقعت عينك عليـه، ولم تبك أعطيتك ألف دينار. وإن بكيت لا آخذ منك شيئًا. فقـال له اليهودى: لك ذلك فأحضر المال. ففعل «سعيد» وذهب إلى قبـر رسول الله بعدما أعلن إسلامه فلم تكد تقع عينه على قبـر رسول الله حتى ولول باكيًا. وصاح بأعلى صـوته مرة ثانية: إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ومن المسلمين من هامت روحه بحب رسول الله فكان يحتضن قبره ويبكى حتى تفـيض روحه، قال «عبـد الله بن عمر» لما غزونا بلاد فـارس خرجت إلينا امرأة والهة متعبدة، ونادت بأعلى صوتها: إنى مسلمة قبل أن تجيئوا وقد أسلمت وجـهى لله، فأخـذوها إلى قـائد الجـيش. قالت: بل إنى أريـد أكبـر من ذلك فحملوها إلى سيـدنا «عمر» فقالت لا، إنى أريد أكبر من «عـمر» فحملوها إلى

قبر النبى، فـأقبلت عليه تحتضنـه شوقًا، وتقبله وجدا، وتمرغ خـديها فى رحابه الطاهر، ومازالت جمـرات الشوق تضطرم فى قلبها، ولهـيب الوجد يعتلج فى صدرها والدمـوع تنحدر على خديها سـاخنة حارة على قبر الحـبيب المصطفى، والسيد المجتبى حتى أغـمى عليها. فحركها الناس ليخففـوا من لوعتها فوجدوا روحها قد فارقت الحياة.

تلك هى منزلة الرسول ﷺ فى قلوب أمته حيًا وميتًا يحبونه ويسرفون فى حبه، ويرون أن فى حبه حيـاة نفوسهم، وربيع قلوبهم، وغذاء أرواحهم. قال سيدنا «سعد بن الربيع» وهو من شهداء «أحد» وقد مر به «الزبير بن العوام» وبه رمق: يا أبا عبـد الله، أبلغ رسول الله منى السلام، وقل له جزاك الله خـيراً عنا ما جزى نبيًا عن أمته. وأبلغ قومى منى السلام، وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله أذى وفـيكم عين تطرف، ثم مات. وقيل لسـيدنا «أبى هريرة» هل أصبت فى حياتك بسوء منذ أسلمت فـقال: لقد أصبت فى الإسلام بمصائب ثلاث: أمـا الأولى فبموت رسـول الله. وأما الثانية فـبمقتل «عـمر ابن الخطاب» وأما الثالثة فضياع الجراب منى يوم مقتل عثمان.

فقـالوا له: وما هذا الجـراب؟! قال: كنا فـى غزوة مع رسول الله. فـقل طعـامنا فـأمـر الرسول من يـنادى فى الجيش: مـن كان عنده بـقيـة من طعـام فليحـضرها إلى رسول الله. فأحـضر كل من عنده زاد. هذا تمرة وذلك تمرتين. هذه حفنة وتلك حفنتين . فأخذ رسـول الله تلكم الفضلات وجعلها فى جراب وقال لأصحـابه: سموا الله وخذوا منه حـاجتكم. فأكل الجيش كله حـتى شبع وبقى الجراب على ما هو عليـه فدعا الرسول فيه بالبركـة وقال: خذه إليك يا أبا هريرة، وخذ منه حـاجتك. ولا تفرغه. فكـان عندى مباركًا حـتى هجم الثوار على مـدينة رسول الله فنهـبوه من بين مـانهبـوا من المدينة عند قـتلهم للخليـفة «عثمان بن عفان». ولما حضرت بلال الوفـاة كان ينشد فى رغبة وفرحة، وغبطة وسرور: «غدًا ألقى الأحبة، محمدًا وصحبه».

فى فضل العلم والتعليم

أطال القرآن الكريم فى فضل العلم ومدحه، وأكثر من ذكره، ورفع قدر العلماء، وشرف مقامهم، وجعلهم فى مكانة تلى منزلة الملائكة فى الفضل والكرامة، وأفردهم بخوف الله وخشيته، ونفى التسوية بينهم وبين الجاهلين، وأقام على الملائكة الحجة حينما ثبت لآدم أنه أعلم منهم وذلك بعد ما علمه الله أسماء الأشياء كلها، فكان أن اعترفوا له بالشرف عليهم، وأنه بهذا أصبح أفضل منهم وأهلا لأن يكون خليفة الله فى أرضه. ولم يكن هناك بد من أن يعظموه ويسجدوا له.

ولقد بلغ من فضل العلم وشرف منزلته أن جعل الله طلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد.

فقد نقل عن الرسول ﷺ فى حديث طويل فضل العلم وتعلمه. فقال ﷺ:

«تعلموا العلم فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذكراته تسبيح، والبحث عنه جهاد. وتعليمه لمن لم يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والصديق فى الوحدة ، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء. يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة قائمة يقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم ترغب الملائكة فى صحبتهم وبأجنحتها تمسحهم، وإن العالم ليستغفر له كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة. التفكر فيه يعدل الصيام. ومدارسته تعدل القيام. به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام. وهو إمام العمل والعمل تابعه. تلهمه السعداء وتحرمه الأشقياء».

ولو لم يكن فى فضل العلم والتعليم إلا هذا الحديث الجليل. لكفى به مقنعا لمن أراد به الاقتناع ومبينًا لمن أراد التبيان، فكيف لو زدنا على هذا الحديث ما أخبر الله به فى كتابه فى فضل العلم والعلماء فيقول -سبحانه-:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾(١).

ويقول عز من قائل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٢).

ويقول أيضا: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣).

ولقد جعل الله العلم تراث الأنبياء. والعلماء ورثتهم وحدث النبى ﷺ بأن الملائكة تضع أجنحتها لطالبى العلم تواضعًا لهم، وإجلالاً لمنزلتهم. وأخبر رسول الله ﷺ أن بابًا من العلم يتعلمه المسلم ابتغاء وجه الله وحبًا فى المعرفة، وإقبالاً على الحكمة خير له عند الله من أن يصلى ألف ركعة تطوعًا. وكان ﷺ يرحب بطالب العلم، وأخبر أن الله -تعالى- يغفر له ذنبه قبل أن يتحفف لطلبه. فأى شرف يعدل هذا الشرف؟، وأى مقام يضارع هذا المقام؟!، وبمقدار ما رغب الله المسلمين فى العلم نفرهم من الجهل، وقبحه فى نفوسهم، وشبهه تارة بالعمى، وتارة بالموت، وثالثة بالظلام حتى تأباه هممهم، وتنفر منه طباعهم ويترفون عن وصمته مهما قامت فى طريق العلم عقبات وصعاب.

وقد جاء عن الرسول ﷺ أنه قال:

«من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيها علمًا سهل الله له بها طريقًا إلى الجنة».

وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم

---

(١) المجادلة: ١١ .   (٢) فاطر: ٢٨ .   (٣) آل عمران: ١٨ .

إلا حفتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

وقال رسول الله ﷺ فى حديث آخر: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع. وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهمًا. وإنما ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**».

ولقد بالغ الإسلام فى تكريم طالب العلم حتى جعل من مات فى طلبه، وجاءه أجله وهو يحصله مات شهيدا فيقول ﷺ فى هذا المعنى:

«**من جاء أجله وهو يطلب العلم لقى الله شهيداً. ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة. ومن طلب علمًا فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر. ومن طلبه ولم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر**».

وقالوا: إن سيدنا «أبا هريرة» مر يومًا فى السوق فجعل ينادى ويقول: يا أهل المدينة ما أعجزكم، وما أغفل قلوبكم، هذا تراث رسول الله يقسم فى مسجده، فأسرع الناس إليه، وتوافدوا من كل فج عليه، فلما دخلوا المسجد لم يجدوا إلا العلم يدرس، والقرآن يتلى فعادوا من فورهم إلى «أبى هريرة» وقالوا له: كيف قلت ما قلت ولم نجد فى مسجد رسول الله إلا العلم والقرآن. فقال لهم: ويحكم يا قوم، أليس هذا هو تراث رسول الله».

وقال سيدنا «أبو ذر» لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أيهما أفضل، صلاة نفل أصليها أم تعلم سورة من كتاب الله؟ فقال له ﷺ: «**يا أبا ذر لئن تغدو فتحفظ سورة من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة تطوعًا ولئن تغدو فتتعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل خير لك من أن تصلى ألف ركعة تطوعًا**».

ولقد دعا رسول الله ﷺ للعلماء من بعده، وخلع عليهم شرف الخلافة،

فقال فيما أثر عنه: «نضر الله أمرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع. اللهم ارحم خلفائى. قالوا: ومن هم خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يروون سنتى ويعلمونها للناس».

ولقد ذم رسول الله ﷺ الحسد على الدنيا، والتدابر فيها، والتخاصم على حطامها ولكنه استثنى التحاسد على الخير والتنافس فى طلب العلم والحكمة. فقال ﷺ:

«لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها للناس».

ولقد فرق رسول الله ﷺ بين القلوب. وأخبر أن منها قلوب واعية متفتحة، وضرب لها مثلاً بالتربة الخصبة، والأرض الصالحة للزراعة والإنبات إذا وضعت فيها قليلا من البذور استحال زرعًا، وتحول إلى شجر، وأصبح بساتين يانعة وحدائق غناء تجود بالثمار أضعافًا مضاعفة، وتعطى أكلها كل حين بإذن ربها، ومنها قلوب مقفلة صماء لا تعى شيئًا، ولا تحفظ شيئًا ومثلها كالأرض الموات التى صلدت حجارتها، وسبخت تربتها فلا تلد شجراً ولا تنبت زرعًا. فيقول ﷺ موضحًا هذا المعنى، ومفصلاً له تفصيلاً حتى نعلم الفرق بين القلوب.

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء. واحتفظت به وأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب[1] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا زرعهم، وأصاب طائفة أخرى من الأرض إنما هى قيعان[2] لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

هذا هو المثل الذى وضح رسول الله فيه نوعية القلوب المتفتحة لطلب

---

(١) الأجادب: فجوات من الأرض تشبه الأحواض يجتمع فيها الماء.

(٢) قيعان: وهى عكس الأجادب من أرض مسطحة لا يجتمع فيها الماء.

العلم، الواعية لما فيه من معان وأسرار مباركة يمتد نورها، ويخلد أثرها على مدى الأيام والأعوام.

وفى كتاب الله الكريم ما يشير إلى هذا المعنى:

قال سبحانه-: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾(١).

وهذا مثل جليل من أطال فيه النظر، وأمعن فيه الفكر أدرك منه رصانة القرآن، وإعجاز ألفاظه، وقوة سبكه وإحكامه. وقد ضربه الله -سبحانه وتعالى- مثلاً جليا شبه فيه ما ينزله -تعالى- من نور وحيه، وإشراق علمه بماء المطر النقى حينما ينزل من السماء صافيًا لا شائبة فيه، كما شبه فيه قلوب العباد بالأرض الجافية الجدباء حينما يصيبها هذا الماء فإن منها المعادن الكريمة، والتربة الطيبة التى تصيب منه حظها، وتأخذ منه نصيبها فيتحول فيها إلى زرع أخضر، ونبات مزدهر، وأشجار مورقة وثمر يانع نضير. ومنها أرض سبخة موات تبتلع الماء فى جوفها، وتغيبه فى أعماقها دون أن تفيد منه أحدًا، أو تخرج به عشبًا أو كلأ، كذلك العلماء الذين هدى الله قلوبهم، وأضاء عقولهم، وأنار بصائرهم بأسرار حكمته، وأضواء شريعته فنفعوا بها أنفسهم، وجلوا بها صدورهم، وأفاضوا من أنوارهم وأسرارها على الناس، وعلموهم ما شاء الله لهم أن يتعلموا من كتابه وسنته فكانوا من جند الرحمن يرفعون راية الحق، وينشرون لواء الدين أينما حلوا، وحيثما وجدوا. وفى هذا المعنى يقول ﷺ: «**إنما أنا مبلغ والله يهدى. وأنا قاسم والله يعطى**».

---

(١) الرعد: ١٧-١٨.

وقد وضح الرسول ﷺ منزلة العلماء أكثـر من هذا فقال: «**أقرب الناس من درجة النبـوة أهل العلم والمجاهدون فى سبـيل الله، فأما العلمـاء فدلوا الناس على ما جـاءت به الرسل. وأما المجاهدون فجـاهدوا بسيوفهم على مـا جاءوا به إلى الناس**».

وفى الحديث القـدسى الذى رواه الرسول ﷺ عن رب العزة: «**يقول الله للعلماء يوم القـيامة، إذا قـعد على كرسيـه لفصل القضـاء: إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالى**».

ولقد فضل الإسلام العلم على العـبادة لأنها لا تنفع بدونه، ولا تصح إلا بهدايته، ولا يعظم أجرها، ويتـضاعف فضلها، وتسمو درجتـها ومنزلتها إلا إذا سبقها إلى القلوب فهذبها، وإلى النفوس فزكاها، وإلى العقول فانتزعها من أسر الشهـوات، وظلمة البدع والأهواء، وأغلال العـادات والتقاليد فـبدونه لا تكون صـحيـحة، وبدونهـا لا توصل العـبد إلى الله، ومن هنـا شبـه الله العلم كنور للقلوب. والجهل كـمرض من أمـراضها. شبـه هذين بنور الأبصار وظلامـها. فيقول -سبحانه-:

﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾[2].

ذلك هو فضل العلم على العبادة فى الدنيا، أما فى الآخرة فيقول المصطفى ﷺ.

«**يقـال للعابد يوم القـيامـة ادخل الجنة، ويقال للعـالم قف حتى تشـفع فى الناس**».

---

(١) الرعد: ١٩ . (٢) الأنعام: ١٢٢ .

وذلك لأن العالم بما وهبه الله من معرفة، وبما رزقه من حكمة، وبما تجلى عليه من فيوضات ونفحات يميز الحق من الباطل، وتعرف البدعة من السنة، ويدرك بثاقب فكره أقرب طريق يوصله إلى مولاه ولا يمكن أن يلبس الشيطان عليه دينه، أو يزيف عليه عقيدته، أو يلعب به فى ميدان الأهواء والشهوات لأن مسالكه لا تخفى على العلماء الأجلاء، وحيله لا تنطلى عليهم فهم فى حصن من علمهم ومعرفتهم، وفى قلعة من إيمانهم ويقينهم وليس له عليهم سلطان ولا سبيل، وقد وضح هذا النبى ﷺ بقوله:

«لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».

وإذا كان الدين قد رفع من شأن العلماء هكذا، وأجل قدرهم وأعلى منازلهم فى الدنيا والآخرة، فإنه لا يكون العلم هكذا، ولا تكون العلماء بهذه المرتبة فى الدنيا والآخرة إلا إذا عملوا بما علموا، وخافوا الله، واتقوه حق تقاته فى كل ما يفعلون أو يتركون فإن وضعهم فى الأرض أدق من وضع غيرهم، وإن موقفهم بين الناس أحرج من سواهم فهم فى موقع السيادة والقيادة، وهم فى موقف الإمامة والزعامة، وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله، فينبغى لمن أكرمه الله بنور العلم وشرفه أن يكرم نفسه بمشقة العمل وجهده، وألا يأمر الناس بشىء إلا إذا ائتمر به أولا، ولا ينهاهم عن شىء إلا إذا انتهى هو عنه. وليعلم أن أعين الناس مشدودة إليه، وأنظارهم متعلقة به فإذا لم يكن قدوة حسنة، وأسوة صالحة، وطبيبًا حازقًا فَقَدَ شرف الدنيا وثواب الآخرة، وانفض الناس من حوله مهما كان علمه غزيرًا، وكلامه كثيرًا ولذلك وزنه الله بآلاف الرجال، واعتبر موته مصيبة فاجعة، وخطبًا أليمًا.

قال رسول الله ﷺ:

«والله الذى لا إله إلا هو لموت قبيلة بأسرها أيسر عند الله من موت عالم».

«إن العلماء فى الأرض كالنجوم فى السماء فإذا انطمست النجوم بالليل تخبط السائرون فى الظلام».

ولا يعقل أن يكون عالم تافه بهذا الوزن عند الله.

وفى الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**يبدأ بالعلماء يوم القيامة قبل عباد الأصنام. فيقولون أو يبدأ بنا قبل عباد الوثن. فيقول الله لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم**».

وقال ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه**». وسئل سيدنا «على»: أى الناس أشد ندامة؟ فقال أما فى الدنيا: فواضع المعروف عند غير أهله، وأما فى الآخرة فالعالم المفرط فى دينه».

وقال الحسن البصرى: «لا تكن ممن جمع علم العلماء، وطرائف الحكماء ثم هو يجرى فى عمله مجرى السفهاء».

وقال الغزالى- رحمه الله- للعلماء غير العاملين: «يا علماء السوء، إنكم تصفون الطريق للمدلجين: وأنتم مقيمون مع المتحيرين».

وقال رسول الله ﷺ: «**يظهر الإسلام حتى تختلف التجار فى البحر، وحتى تخوض الخيل فى سبيل الله ثم يظهر قوم يقرءون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا. ثم قال: هل فى أولئك من خير؟! فقالت الصحابة: الله ورسوله أعلم. فقال النبى أولئك منكم، من هذه الأمة. أولئك هم وقود النار**».

وليعلم كل داعية إلى الله بقوله وفعله أن العلم غنيمة فى ذاته، ومتعة نفسية، وحلية حسية، وسلم يصعد الإنسان عليه إلى قمة المجد والسؤدد، فلتكن حليته التقوى، وزينته الفضيلة، وشعاره ودثاره الأعمال الصالحة، والأخلاق السامية والأدب النبيل.

كان أحد علماء الدولة العباسية فى زمن «الرشيد» واسمه «أبو معاوية» وكان ضريرا إلا أنه كان تقيًا ورعًا، فقيهًا زاهدًا، وكان «الرشيد» يحب قربه، ويتمنى الجلوس معه. وكثيرًا ما كان يستحضره ليسأله فى الدين، ويأخذ عنه العلم والحكمة، وكثيرًا ما كان يحرص على مؤاكلته ومؤانسته. دعاه يومًا من

الأيام ليسأله عن شىء فجاء وقت الطعام فاستأذن «أبو معاوية» فقال له «الرشيد»: والله ما دعوتك اليوم إلا لأكل معك فهل تتفضل على قصر الخلافة بهذا الشرف ليقول التاريخ: إن «أبا معاوية» آكل أمير المؤمنين «الرشيد». فقال أبو معاوية: إن للخليفة علينا حق السمع والطاعة. ولكننى صائم. فإن بقيت هنا حتى يأذن الله لى بالفطر أفطرت معك، فقال الخليفة: ليس المغرب ببعيد، وإن الجالس معك لايحسب لمرور الزمان حسابًا فلما جاء وقت الفطور، مدت موائد الخلافة. وحرص«الرشيد» أن يكون مجلسه مجاورًا لمجلس «أبى معاوية» لا لشىء إلا ليخدمه بنفسه، ويتولى إطعامه بيده حتى إذا فرغوا من الطعام قام الشيخ ليغسل يديه، ويتهيأ للوضوء. فتسابق الحاضرون ليصبوا على أعضاء الشيخ الماء إلا أن «الرشيد» ظفر بهذا دونهم جميعًا ولكن فى صمت حتى لا يتحرج الشيخ. ومد الشيخ أعضاءه فتوضأ ولا يعلم من الذى يوضئه. وكان «يحيى بن أكثم» حاضرًا فاقترب من «أبى معاوية» وقال له: أعز الله سيدنا الشيخ. هل تعلم من الذى يصب على يديك الماء؟! قال: لا. قال: إنه أمير المؤمنين نفسه. فلم يدهش «أبو معاوية» لعزته وكرامته، ولم يعيه الجواب أيضًا. وإنما قال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم أكرمك الله وأثابك، وأعز بك العلم والدين.

قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدًا أوتى أفضل منه فقد حقر ما عظم الله»**.

وقال ﷺ: **«لا يشبع عالم من علم حتى يكون منتهاه الجنة. وإذا أبغض الله عبدا حجب عنه العلم»**.

ومن وصايا سيدنا «لقمان» لابنه: «يا بنى، زاحم العلماء بركبتيك فإن الله ليحيى القلوب بنور العلم كما يحيى الأرض بوابل الماء، ومن أعطاه الله العلم فقد أعطاه الجنة».

وينبغى للعالم الفاضل ألا يغتر بعلمه مهما كثر، وألا يتعالى به مهما اتسع فإن الغرور باب من أبواب الشيطان، ومدخل من مداخل الضلال إذا

أصيب العالم به ضاعت بهجة علمه، وذهبت روعة دينه، ومجت كلامه الأسماع والقلوب، ولذلك نفَّر النبى علماء أمته من أن يكونوا مغترين أو متعالين. فيقول ﷺ: **«لا يزال الإنسان عالماً ما طلب العلم، فإذا قال: أنا عالم فهو جاهل»**.

وكان الإمام «أبو يوسف» صنيعة من صنائع «أبى حنيفة» فقد نشأه بيده، وأنفق عليه من ماله، ورباه فى مدرسته، وصنعه على عينه، وأخلص له فى العلم، ونصح له فى التوجيه، وكان «أبو يوسف» يبادله هذا الحب، ويجله كما يجل الولد أباه البار، والتلميذ أستاذه العظيم، وكان يحرص على مجلسه، ويجتهد وسعه على ألا يفوته شىء مهما كانت الظروف حرجة، ومهما كانت المشاغل حاكمة إلى حد أن قيل عنه: إنه قد مات له ولد كان يحبه ويعزه فكلف به من يقوم على غسله وتكفينه، وحمله والصلاة عليه، والذهاب معه حتى يودعه مثواه الأخير، ولم يترك مجلس «أبى حنيفة» خوفا أن يفوته شىء من كلامه، أو يغيب عنه شىء من فقهه وتوجيهه إلى أن وقعت الحادثة التالية التى أصابت نفس «أبى يوسف» بالغرور والخيلاء، فما الذى حدث يا ترى بين التلميذ وأستاذه؟. حدث أن مرض «أبو يوسف» مرضًا شديداً أقعده عن الدرس، وألزمه الفراش فافتقده «أبوحنيفه» فى مجلسه ودرسه فلم يجده، فسأل عنه فقالوا: إنه مريض. فبادر الشيخ إلى عيادته، وعز عليه أن يغيب تلميذ نجيب عن دروسه أو يموت. فلما خرج من عيادته قال لإخوانه: إن مات هذا الفتى ضاع علم كثير، وأسرع إخوان «أبى يوسف» إليه فأبلغوه هذه الكلمة الغالية التى قالها إمام من أئمة المسلمين لا يلقى الكلام عفواً، ولا يكيل الألفاظ جزافًا. إنه أعرف بالرجال من الصائغ العالم بالمعادن. يا له من فخر، ويا له من شرف لأبى يوسف ولو لم يملأ نفسه غروراً وعجبًا، وذلك ما حدث فعلاً. فقد هيمنت الكلمة على قلبه وسيطرت على شعوره وحسه، وأبعدته عن مجلس الأستاذ الإمام، وجعلته ينتحى بنفسه ناحية بعيدة، ويقيم مجلسًا مستقلاً عن درس «أبى حنيفة» يعلم فيه العلم، ويدرس فيه الفقه وكأنما هو الإمام نفسه أو يزيد، وقد اجتمع حوله حشد

من الطلبة، والتف حوله لفيف من التلاميذ واعتقدوا أنه لا يقل عن «أبى حنيفة» علمًا وفقهًا. ولا ينقص عنه تجربة وحنكة وربما كان التلميذ خيراً من إمامه لأنه أخذ علم شيخه وزاد عليه من علمه واجتهاده. خطا «أبو يوسف» تلك الخطوة الجريئة، وأصبح مستقلاً عن شيخه تمامًا ورأى «أبو حنيفة» ما حدث منه فعزت عليه تلك الجرأة التى قام بها تلميذه فى شجاعة فرأى أن يوقفه عند حده، وأن ينتزع الغرور من نفسه، ويفهمه أن العليل مازال فى حاجة إلى الطبيب وإن أحس بقرب السلامة، وأن الركبان لا يستغنون عن الملاح وإن لاح لهم شاطئ السلامة والنجاة، فكتب إليه الإمام سؤالاً يقول فيه: يا «أبا يوسف» أنك قد اتخذت لنفسك مجلس علم بعيداً عنا، غروراً بنفسك، وثقة منك بشخصك- وإنى سائلك هذا السؤال، وأريد منك الجواب عنه: ما تقول فى رجل دفع ثوبه إلى القصار ليقصره له بدرهم مثلاً فلما جاءه صاحب الثوب ليطلبه منه جحده القصار، وبعد أيام من جحوده له اعترف به فهل له أن يأخذ الدرهم المتفق عليه بينهما ثمنًا لتقصيره؟ فإن قلت: نعم، له أن يأخذه فاذكر علة ذلك الحكم، وإن قلت: ليس من حقه أن يأخذه فاذكر علة ذلك المنع.

فلما قرأ «أبو يوسف» السؤال أمام تلامذته أصابته الحيرة وتملكته الدهشة، ووقع هو وتلامذته فى «حيص بيص». فلما عجز عن الجواب توجه إلى شيخه وأستاذه ينشد فى رحابه الجواب والصواب، فقال له الشيخ الإمام: إن كان القصار قد قام بتقصيره قبل أن يجحده كان له أجرة تقصيره، وإن كان قد جحده بعد تقصيره فليس له شىء فاستيقظ «أبو يوسف» من غفلته وغرته، وشهد «لأبى حنيفة» بالفقه، وبادر إلى مجلسه تليمذاً كما كان. ولم يتخذ لنفسه مجلسًا طالما كان «أبو حنيفة» موجوداً على قيد الحياة، وظل يعرف للشيخ الإمام فضله عليه، ويعترف بجميل إحسانه إليه حتى بعد موته.

ومن ذلك ما حدث به «أبو يوسف» نفسه عن شيخه وأستاذه قال -رحمه الله- لقد نشأت يتيمًا لا عائل لى ولا كاسب، وقد تركنى أبى فقيراً لا مال لى، وعجزت أمى عن الانفاق على فأسلمتنى إلى نجار لأتعلم حرفة أقتات

منها، وأمون نفسي وأمونهـا. وكنت أثناء ذهابي وعودتي أمر على المسجد الذي يدرس فيه «أبو حنـيفة» الفقه لطلابه ومـريديه فكان يستهويني كـلامه، ويؤثرني حديثه، ويـجذبني إلى حلقة علمه وأدبه، فكان يسـتبطئني النجار فـيسأل أمي، فكانت تبـحث عني حتى تجـدني في مجلس الإمـام فإذا رأتني نهـرتني كثـيراً، وبالغت في تقريعي وتوبيخي أمامـه وأمام الناس ثم تذهب بي إلى النجار فأتحين منه غفلة وأعود إلى مجلس «أبي حنيفـة» فإذا علم بي جاء فأخذني إلى حانوته وهكذا كان شأني حتى يئس النجار من صلاح حالي وصمم على طردي وإبعادي من عنده. فلما علمت أمي بـذلك، وأدركت حبي لأبي حنيفة، وشـدة حرصي على مجلسه، وهربي دائماً إليه جاءت إلى الشيخ وجعلت تسبه وتعيبه وقالت له -في جرأة وصراحة- والله ما أفسده إلا أنت، ألا تعلم أيها الشيخ إن هذا الفتى يتيم لا مال له وإني أطعمه من كـسب يدي وإني أحب أن يمون نفسه، ويكتسب قوته. فدفعـته إلى هذا النجار. وكان الإمام- رحمه الله- يـحبني لشدة حرصي على العلم والتفـقه في الدين. فلما سمع من أمي ما سـمع لم يزد على أن قال لهـا: مري يا رعناء فـإن ولدك هذا سيـأكل الفالوج بدهن الفـستق على مـوائد الخلائف، فلم تفـهم قوله، ولم تدرك إشارته. فقـالت له: إنك شيخ كبـير قد خرفـت. فلم يلتفت لهـا، ولم يعبـأ بقولهـا. وقال لي «أبو حنـيفة» لا تـترك مجلسي هذا، وكل ما تحتاجه من نفقـة أو قوت فإلي علي. وقد صدقني الشيخ وعده، ووفى لي بعهده وميثاقه حتى اشتد عودي، وبلغت رشدي، وأقبلت على دنياي، وأخـذت أتقلب في مناصب الدولة حـتى أصبحت قـاضي القضـاة بعد موت «أبي حنيفة» وحدث أن دخلت على «الرشيد» فمدت المائدة فنظرت إلى ما فوقها من الأطـعمة فأبصرت طبقًا عـجيبًا فجعلت آكل منـه وأنا لا أعرف اسمه فأدرك «الرشيد» جهلي بهذا الطعام فقال يا «أبا يوسف» هذا هو الفالوذج ممزوجًا بدهن الفسـتق. فكل منه ملء بطنك فليس كل يوم يعـمل لنا مثله. فـضحكت ملء شدقي، فقال «الرشيد»: مم تضحك يا «أبا يوسف» وما كانت تلك عادتك في مجلسي؟ فقلت له، خيرًا يا أمير المؤمنين، أبقاك الله لنا فألح طويلاً، وألحف علي كثيرا لأذكر له سبب ضحكي، فـأخبرته بقصة أمي مع «أبي حنيفة» يوم أن

بشـرها وأنا صبى بأنى سـأتناول على موائد الخـلائف «الفالوذج» ممزوجًـا بدهن الفستق.

فلما سمع «الرشيد» منه ذلك تعجب من أخـبار «أبى حنيفة» ومواقفه. ثم قـال «لأبى يوسف» والله إن العـالم لينفع ويـرفع دينا ودنيـا، ثم ترحم عليـه، وقال: إنه كان يرى بعين قلبه ما لا يراه غيره بعينى رأسه.

فرحم الله الإمام «أبا حنيفة» وأثابه خيرًا بما قدم من الباقيات الصالحات.

ورحم الله ذلك الحكيم الذى كان يقول:

تعلـم فـإن العلم أزيـن للفتـى ... من الحلة الحسناء عند التكـلم

وقد دخل «عـبد الله بن أسلم» فى القـراء على المهدى فكـان أولهم وأخذ عشرة آلاف جائـزة على تفوقه، ثم دخل مع الفقهاء فكان أولهم وأخـذ عشرين ألفا على تفـوقه عليهم، ثـم دخل مع المحدثين فأخـذ عشرين ألفـا جائزة على تفوقه عليهم، ثم دخل مـع الشعراء فأخذ جائزة عشـرة آلاف على تفوقه عليهم ثم دخل مع الخطباء فـأخذ الجائزة الأولى لتـفوقه عليـهم. ثم دخل مع الوعاظ والقصاص فأخذ الجائزة الأولى لتفوقه عليهم. فلما رأى ذلك «المهدى» من شدة إعجابه به. وكان ينتهبه بعينيه انتهابا وهو يقول بأعلى صوته، لم أر كاليوم قط، وما أعلم أحدًا أجمع منك لألوان العلم والمعـرفة، وما أظن أن الله قد جمع فى رجل من الحكمـة والمعرفـة مثلمـا جمع فـيك. والله لا تخرج من عندى حـتى أوليك أمر قومك قال «عبد الله» قد دخلت وأنا رجل عادى، وخرجت من عنده وأنا أمير قومى.

وهكذا يرفع العلم أصحابه إلى منازل العظماء، ومراتب الأمراء. فما أزين العلم إذا ضم إليـه العمل، وما أكـمل العمل إذا صـحبه الإخـلاص. وما أروع الإخلاص إذا لزمته خشية الله، والخوف من بطشه وبأسه يوم- يجمع الناس ليوم لا ريب فيه، ورحم الله الشافعى فقد كان يقول:

إذا لـم يزد علـم الفتى قلبه هدى ... وسيـرته عدلا وأخلاقـه حسنـا

فبشــــره أن الله أولاه فتنــة ... تغشيـه حـرمانا وتوسعـه حزنا

ومن كلام سيدنا أبى بكر -رضى الله عنه-: «العالم طبيب هذه الأمة، والدنيا داؤها فإذا كان الطبيب هو الداء فمتى يبرئ غيره؟!»

وكان «ابن تيمية» كثيراً ما يردد هذا البيت ويعجب أشد الإعجاب بقائله ويقول: إن الله الذى أنطق كل شيء أجرى هذه الحكمة على لسانه:

بالملح تصلح ما نخشى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغير؟

أما سيدنا «على» -رضوان الله عليه- فقد كان يقول: «قصم ظهرى رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك».

أما حجة الإسلام «الغزالى» فكان لا يمل ترديد هذا البيت مخاطبًا به علماء السوء الذين يقولون ولا يفعلون، ويأمرون ولا يأتمرون، وينهون الناس عن الفساد والذنوب ولا ينتهون كان يقول:

يا علماء الدين يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وأجمل من كل ما تقدم قول الله ورسوله، فأما القرآن، فينذر كل من خالف قوله عمله غضب الله ومقته وهو إنذار يخشاه كل مؤمن صحيح الإيمان ويتقيه كل من يعلم ماذا يحدث له لو أنه تعرض لغضب الله، وفى ذلك يقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(1).

أما الرسول ﷺ فإنه ينذر أمته بخطر داهم، وهلاك محقق، وتراجع إلى الوراء فى كل مصالحها ومرافقها، وانحلال فى أخلاقها وأدبها، وخمول وركود خير منهما الموت والفناء إن أصابها هذا الوباء، وانقلبت فيها الأوضاع، ومنيت بالانحراف والشذوذ، وشاء لها القدر أن تحيد أركانها وزعماؤها عن المنهج الأقوم. والصراط المستقيم فيقول ﷺ فيما روته كتب السنة: «**إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم كرماؤكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وعلماؤكم سفهاءكم، وأغنياؤكم بخلاءكم فبطن الأرض**

---

(1) الصف: ٢-٣ .

خير لكم من ظهرها». وأخيرا فإن نصيحة الدين إلى أبنائه بصفة عامة وإلى شبابه وفتيانه بصفة خاصة أن يقبلوا على العلم ويعبوا من بحره، ويشربوا من معينه، ويحرزوا في ميدانه قصب السبق، ويؤمنوا كل الإيمان بأنهم ينتمون إلى دين يكرم العلم ويكرم أهله، فليأخذوا منه حظهم، ولينيروا به عقولهم، وليجعلوه إمامًا لهم يرفعون به أقدار أمتهم، ويشيدون به دعائم عزتهم، ويدافعون به عن وطنهم المغصوب، وشرفهم المسلوب فإن الأمة الإسلامية تنشد الخلافة فى الأرض، وتبتغى الزعامة فى الناس، وترمى إلى السيادة والقيادة، وتطمع فى أن تتبوأ منازل الجوزاء، ولا يمكن أن يتم لها كل ما تريد إلا بشبابها الناهض الذى يتخذ له من العلم حلية فاخرة، ويصنع لنفسه بفضله مجدًا مؤثلاً، ولتكن أسلافه من المسلمين الأولين هم قدوته الحسنة لا ما يطنطن به الجهلاء الأغبياء من أن الغرب والغربيين هم قبلة العلوم والمعارف، ومنبع الحكمة والفن، وإذا لم يصدقوا ذلك فليراجعوا تراثهم وسيجدون فيه -إن شاء الله- كل كفاية وغناء لا لعقولهم فقط وإنما لعقولهم وقلوبهم وأرواحهم وليعلموا أن الدين لا يناقض العلم ولا يتحداه فتلك أكذوبة جعجع بها المغرضون، وتشدق بها الملحدون المتنطعون ليبغضوا إلى شبابنا دينه، ويفتنوه عن أمجاده، ويحقروا فى نظره تراث الآباء والجدود ألا فلينشط الكسالى من شبابنا، وليجد ركبهم، ولتنشط هممهم حتى نراها، وقد تحقق لهم من العزة والكرامة والمجد والسؤدد. والتقدم والنهوض أضعاف ما تحقق للغربيين. وهيهات أن يتم لهم ذلك بالكسل والخمول، قال «الشعبى» -وهو من جلة العلماء-: دخلت يومًا على «الحجاج» وأنا ضعيف الجسم، ضئيل البنية، فقال يداعبنى: ما هذه الضآلة، يا شعبى، وقد بلغنى أنك من العلماء؟! فقلت له: زحمت فى الرحم أيها الأمير فقد ولدتنى أمى توأما فضحك وقال لى: كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عنى يؤخذ. قال: وكيف علمك بالفرائض. قلت: إلى فيها المنتهى- فقال: وكيف علمك بالإنسان؟ قلت: إنى الفيصل فيها. فقال كيف علمك بالشعر؟ قلت: إنى ديوانه فقال لى: لله أبوك! ثم فرض لى مالاً وولانى على قومى.

جعلنا الله جميعًا من العلماء العاملين ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(١).

---

(١) آل عمران: ١٠١.

فى فضل الإخلاص

ورد فى فضل الإخلاص آيات كثيرة وآثار عديدة، وكلها تشير إلى أنه سر من أسراره تعالى أودعه الله قلوب أوليائه، ومنحه من شاء من خلقه كما أنها تنص على منزلته فى الإسلام ومكانته فى الدين.

ومن الآيات التى وردت فى بيان فضله قوله تعالى: ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾[1]. وقوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي**﴾[2].

وقوله عز وجل ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات والنصوص التى تدعو إليه وتحض عليه، وترغب المؤمنين فيه وتشير إلى أن شأنه عظيم وفضله كبير وأجره جزيل.

وكيف لا يكون الإخلاص كذلك وهو أصل العبادة وجوهرها، وأساس الطاعة ولبابها. لا تصلح العبادة إلا عليه ولا تتم مقاصد الدين الحنيف إلا به، فلا قيمة لعمل مهما كان كثيرًا، ولا وزن لخير مهما كان كبيرًا، ما لم يصحبه الإخلاص وتتقدمه النية، فإذا لم ينعقد عليه قلب الإنسان وترسخ على دعائمه عقيدته، وإذا لم تنطو عليه أعماله وتقوم على أسسه عبادته، وإذا لم تشتمل عليه الفرائض والنوافل وتسبق القيام بها والدخول فيها نيته فإن ذلك كله ولا شك هباء لا ينظر الله إليه، ولا يقيم له وزنًا قليلاً كان أو كثيرًا.

ولذلك أوصى به الرسول أصحابه وأمرهم أن يعقدوا عليه أصابعهم ويعضوا عليه بنواجذهم فقال ﷺ «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى**

---

(١) الزمر: ٣ . (٢) الزمر: ١١-١٤ . (٣) البينة: ٥ .

فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

ولما أراد أن يبعث سيدنا معاذ بن جبل -رضى الله عنه- إلى اليمن قال له يوصيه: يا معاذ. «**أخلص دينك يكفك القليل من العمل**».

فالله عز وجل لا ينظر إلى قلة الأعمال وكثرتها ولكن ينظر إلى قيمتها والإخلاص فيها وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾(١).

ومعنى الإخلاص: أن تقصد بأعمالك وجه الله وحده فلا ترائى به بشراً ولا تنافق به مخلوقًا، لأن الذى يجازيك على عبادتك ويكافئك على طاعتك ويحاسبك على كل ما تقدمه من خير أو شر إنما هو الله، فهو وحده النافع الضار. وهو وحده الجدير بالعبادة والإجلال الخليق بالتقدير والاحترام، فلا تخش أحداً غيره ولا تعظم موجوداً سواه، واعلم يا أخى أن الله مطلع على قلبك محيط بسرك وعلانيتك خبير بظاهرك وباطنك فلا تقصد بعملك غيره، لأنه ولى نعمتك ونبع كرامتك وملء سمعك وبصرك، واعلم أن الرياء هو الشرك الخفى الذى يمقت الله عليه ويحبط العمل بسببه ويفضح صاحبه يوم القيامة على رءوس الأشهاد، ثم يؤمر به إلى النار، وأن ذلك يندم الإنسان حيث لا ينفعه الندم، ويتحسر حيث لا تفيده الحسرة ويطلب الرجعة إلى الدنيا فلا يجد إليها سبيلاً.

وقد علق الله على الإخلاص فى الأعمال كل نجاح وفلاح فقال ﷺ: «**قد أفلح من أخلص قلبه لله وجعل لسانه صادقا ويده طاهرة ونفسه مطمئنة**».

وصدق الله العظيم: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك**

---

(١) الكهف: ١١٠.　　(٢) الشعراء: ٨٨-٨٩.

له وأقـام الـصـلاة وآتى الزكـاة فـارقـهـا والله عـنه راض». وقـال ﷺ: «طوبى للمخلصين أولئك مـصابيح الهدى يخرجون من كـل فتنة ظلماء». وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث أقـسم عليهن وأحـدثكم حـديثًا فـاحـفظوه، ما نقص مـال من صدقة ولا ظلم عـبد مظلمة فصبـر عليها إلا زاده الله بها عزًا. ولا فـتح عبد على نفسـه باب مسألـة إلا فتح عليه باب ذل. إنما الدنيـا لأربعة نفـر رجل آتاه الله مالاً وعلمًا فهـو يعلم لله حقه فى ماله ويتقى فـيه ربه ويصل فيه رحمـه فذلك بأفضل المنازل. ورجل رزقه الله علمًا ولم يرزقـه مالاً فهو يقول. لو كـان لى مال لعملت بعمل فلان فهو صادق النية وأجرهما سواء، ورجل رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا فهو يتخبط فى ماله بغير حق فلا يتقى فيه ربه، ولا يصل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقه، فذلك بأخبث المنازل. ورجل لم يؤته الله مـالاً ولا علمًا فهو يقول لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو صادق النية، ووزرهما سواء».

فـانظر يا أخى -رعاك الله- كـيف تؤثر النيـة وهى عـمل قلبى فى سيـرة الإنسان وسلوكه واتصاله بالله عز وجل، فمن الناس من سـما بعلمه وماله ونيته إلى أعلى المراتب وأسـمى الدرجات، ومن سمـا بإخلاصه فـقط إلى نفس هذه المنزلة، ومنهم من اكتسـب بماله ونيته أحط الدرجات، ومن صار بنيـته فقط إلى أخبث المنازل دون أن يعمل شرًا أو يكتسب وزرًا..

وقالوا إن رجلاً خرج للجهاد فى سـبيل الله وقبل أن يخرج فكر فى ربحه ومنفعـته من وراء هذا الجهـاد قبل أن يفكر فى الأجر والثـواب. فاشتـرى تجارة ليربح من ورائها فلما نام تلك الليلة رأى ملكين يتحدثان عنه ويشيران إليه ويقول أحدهما لصاحـبه، اكتب فلانًا من الناس مجاهدًا مخلصًـا فى سبيل الله، وفلانًا ما خرج إلا للتنزه والمتعة ومشـاهدة الميدان، واكتب فلانًا من الناس مرائيًا يحب الظهور ويطلب السمـعة والشهرة، ثم نظر إلى صاحب التجـارة وأشار إليه وقال لصـاحبـه، واكـتب هذا الرجل تاجـرًا يطلب المال ويستـكثر من الأرباح. قـال صـاحب الرؤيا فلمـا سمـعت ذلك منهـما فـزعت وقلت. الله. الله. والله مـا خرجت إلا للجهاد فى سبيل الله. فقالا لى والتـجارة التى اشتريتها، فقال والله

ما خرجت إلا للجهاد وبكيت فقال الملك لصاحبه اكتبه مجاهداً إلا أنه اشترى تجارة ليربح فيها والله يحكم فى أمره بما يشاء.

وقال حاتم الأصم رضوان الله تعالى عليه: مكثت ثلاثين سنة أصلى كل أوقاتى فى الجماعة وكنت من أحرص الناس على أن أكون فى الصف الأول، وذات يوم طرأ على عذر أخرنى عن الحضور إلى الجماعة مبكرا، فلم أدرك الصلاة إلا فى الصف الأخير، فكان إذا مر بى أحد من الناس خجلت منه فأدركت أن نظر الناس إلى وأنا أصلى فى الصف الأول كان يعجبنى وأننى لم أكن مخلصًا فى ذلك كل الإخلاص، فخشيت على عبادتى ألا يرحمنى الله.

ومن هنا كان يقول النبى ﷺ: **«طوبى لمن صحت له ركعة واحدة يريد بها وجه الله»**.

وجاء فى كتب السيرة أن سيدنا عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- ضاعت له ناقة فلما أبلغه خادمه عن فقدها قال هى فى سبيل الله إن فقدت وفى سبيل الله إن عثرنا عليها، وترك شأنها وبعد أيام جاءه من يخبره عن مكانها، فبعث خادمه ليحضرها، فلما رآها عنده قال أستغفر الله العظيم، ثم صرف نظره عن الوفاء ينذره، فلما نام تلك الليلة رأى أنه أدخل الجنة ورأى قصوراً عظيمة مشرفة على أنهارها تحيط بها الحدائق والبساتين وتطل من نوافذها الحور والولدان، فهممت أن أدخلها، فصاح بى صائح اصرفوه عنها فليس من أهلها. فقلت يا سبحان الله ولمن تكون إذن هاتيك القصور فقالوا لى إنها لمن امضى السبيل، أما أنت فإنك كنت تقول، هذا الشىء فى سبيل الله ثم ترجع فى قولك ولا تفى بوعدك ولو أمضيت السبيل وبررت بوعدك لأمضيناها لك.

وقالوا إن رجلاً من الصالحين لم يكن فى بيته شىء. فقال فى نفسه إن فتح الله على بشىء من المال هذا اليوم تصدقت به على الفقراء والمساكين، ولم يأت الليل حتى بعث إليه أحد الأغنياء بصرة عظيمة فيها كثير من الدراهم والدنانير، فلما رأى كثرتها طمع فيها وتعلقت بها نفسه وشح بها طبعه، واختلق الحاجات وتصنع الأعذار وفتح لها الشيطان فى رأسه ألف باب وباب، فأمسك

عن إنفاقها فى سبيل الله ناسيا أن هذا قد يعود عليه بالأضرار والأخطار، وكان يقول فى نفسه لعلى أحتاج يومًا إلى هذا المال، ومضت أيام وهذا المال عنده، وفى ليلة من الليالى هاج به ضرسه وأحس بألم أفقده راحته وأقض مضجعه وحال بينه وبين طيب الرقاد ولذيذ المنام، وقضى ليلة ليلاء ساهدة النجم بعيدة ما بين الطرفين، ولم يكد يطلع الصبح حتى عرض نفسه على من يعالجه فأشار عليه باقتلاع ضرسه فقلعه، فهاج به ضرس آخر فاقتلعه أيضًا، فهاج به ضرس ثالث فاقتلعه أيضًا. وهكذا حتى اقتلع خمسة ضروس، ولم يسكن ألمه فاستيقظ ضميره وانتبه شعوره وعاد إلى نفسه فحاسبها. فهتف به هاتف يا هذا إن لم تدفع الدراهم والدنانير للفقراء والمساكين لا نترك لك سنًا ولا ضرسًا، فسارع الرجل إلى المال فأخرجه إلى أصحابه ودفعه مخلصًا لأربابه، فأبرأ الله علته وأذهب عنه سقمه، وكان بعد اليوم لا يعد إلا أنجز ولا ينذر لله نذرًا إلا سارع إلى الوفاء به.

وتروى كتب السنة عن رسول الله ﷺ أن رجلاً من صالحى بنى إسرائيل ونساكهم كان يمشى فى طريق يتأمل عظمة الله فى ملكه ويطيل النظر فى آيات كونه، وبينما هو كذلك إذ مر على كثيب عظيم من الرمال فاستعظم ضخامته وتمنى فى نفسه أن لو كان هذا دقيقًا فيطعمه الجائعين والبؤساء، أو ذهبًا وفضة فينفقه على المحتاجين والفقراء. قالوا فأوصى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن ائت هذا الناسك وقل له إن الله قد اطلع على قلبك وما فيه من نية مخلصة وحب خالص للخير فكتب لك من الأجر والثواب كما لو كان هذا الكثيب دقيقًا فأطعمته للفقراء، أو ذهبًا فأنفقته على المساكين.

ويشبه هذا ما حدث به رسول الله ﷺ أصحابه فقال: «**إن رجلاً من السابقين الأولين قال: لأتصدقن الليلة بصدقة ابتغاء وجه الله. فلما كان فى منتصف الليل أخذ شيئًا من ماله وخرج يبحث عن فقير يتصدق عليه. فوجد رجلاً فى طريقه فدفع إليه صدقته وهو يظنه محتاجًا إليها. ويعتقد أنه من أهلها، فإذا هو لص يتجول فى الظلام ليسرق الناس، فلما كان الصباح تحدث الناس أن**

قد تصدق الليلة على سارق، فأدركت أنى صاحب الصدقة وأدركت أن صدقتى لم تقع موقعها من الله. وظننت أنى غير موفق فى صدقتى، ولكنى قلت اللهم لك الحمد على لص تصدقت عليه، ولم أيأس من فعل الخير وأزمعت التصدق بصدقة أخرى فى الليلة المقبلة فعسى أن أوفق فيها وتنزل من الله منزلة حسنة، فارتقبت الليل حتى إذا أظلم الكون خرجت بصدقتى فقابلتنى امرأة فوضعتها فى يدها وظنى أنها من أهلها فإذا هى زانية فاجرة وعاهرة مومس. فلما أصبح الصباح قال الناس: تصدق الليلة على زانية آثمة، فظننت أنى غير موفق فى صدقتى، وقلت اللهم لك الحمد على زانية تصدقت عليها. ولم أقنط من رحمة الله واعتزمت التصدق مرة ثالثة، فلما كانت الليلة المقبلة خرجت بصدقتى فوضعتها فى يد رجل ظننته من أهلها فإذا هو غنى ثرى لا تحل له الصدقة، فلما جاء النهار تحدث الناس فيما بينهم أن قد تصدق الليلة على غنى، فظننت أنى غير موفق فقلت اللهم لك الحمد على غنى تصدقت عليه، وبينما أنا أعجب من شأنى وكيف أن كل صدقة أخرجها لا تقع موقعها، فجاءنى نبى من أنبياء بنى إسرائيل وقال إن الله سبحانه وتعالى يخبرك أنه قبل منك كل صدقاتك، وضاعف لك أجرها لإخلاصك فيها وهو يقرئك السلام ويقول لك. لا تندم على صدقتك إذا أخذها غير أهلها، أما صدقتك على اللص فلعله أن يتوب إلى الله من ذنبه ويقلع عن شره، وأما صدقتك على الزانية فلعلها أن تعف نفسها وتصون فرجها وتخاف ربها، وأما صدقتك على الغنى فلعله أن يعتبر ويتصدق بشىء من ماله ويخرج زكاة الله عنده للفقراء والمساكين» .

ومن الأدلة التى تؤكد فضل الإخلاص وتشهد له بالمكانة السنية والمنزلة العلية عند الله ما روته الصحابة عن رجل من المهاجرين خرج مجاهداً فى سبيل الله فأصابه سهم فخر صريعًا ومات شهيداً، وخلاصة قصته ما رواه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه قال. هاجر رجل مع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعدما بايعه على الإسلام والجهاد، فلما شرع القتال وأذن لنا فى الجهاد كان هذا الرجل لا يتخلف عن مشهد من مشاهد الحرب، ولا يقعد عن غزوة دعا إليها رسول الله،

وحدث أن دعا رسول الله ﷺ يومًا إلى الجهاد فخـرج مع المجاهدين وقاتل قتال الأبطال. وساهم فى اكـتساب النصر وإحـراز الفوز والظفر. فلما سكن الـقتال وانقضت المعـركة جلس رسول الله ﷺ ليقسم الغنيـمة بين المقاتلين ويعطى كل إنسان سهمه منها، وكان هذا الرجل يجلس بعيدًا عن رسول الله ﷺ فبعث إليه الرسول بسهمـه فلم يأخذه وأعاده إلى النبى فزاده النبى شيئًـا ظنًا منه أنه يستقل سهمه، فـأعاده إلى النبى مرة ثانية فزاد النبى فى سهـمه، فلما ذهب الرسول به إليه بكى طويلاً وقال يا رسول الله. أظننت أنى أسـتقل حظى من الغنيمة، والله الذى لا إله إلا هو ما على هـذا بايعتك ولكنى بايعتك عـلى أن أرمى بسهم فى سبيل الله فأقتل شهيدًا فأدخل الجنة، فرق الرسول ﷺ لقوله واحتضنه وقبله بين عينيه، وقال يا أخى إن تصدق الله يصدقك الله. فلما كانت الغزوة المقبلة ونادى مؤذن الجهـاد أن يا خيل الله اركبى خرج الرجل مع المجـاهدين، وما زال يقاتل ويستـبسل فى قتـاله حتى خر صـريعًا بين الصفـوف ففاضت روحـه إلى بارئها فحمل إلى رسول الله ﷺ. فلما وقعت عليه عين النـبى قال لهم أهو هو فقالوا نعم يا رسول الله قـال: لقد صدق الله فـصدقه الله وأقبل عليـه النبى فكفنه فى جبته التى كـانت عليه ثم قام ليصلى عليه ويتشفع له فكان مما حـفظته الصحابة من دعاء النبى لهذا الشهيد قوله: «**اللهم إن هذا عبد من عبادك الصالحين ورجل من جنودك المخلصين وقد آمن لك وخرج مجاهدًا فى سبيلك فمات شهيدًا وأنا شهيد على ذلك**».

ومن أروع صـور الإخـلاص التى رويت عن سلفنا الصـالح رضـوان الله تعالى عليـهم أجمـعين ما رواه أبو نعيم فى كـتاب الحلية أن امـرأة من المسلمين كانت تعـيش فى خلافة سيـدنا أبى بكر رضى الله عنه، وكانت معـروفة بالزهد والورع، وكان الخليـفة الراشـد يجل قدرها ويعـرف لها فضلهـا وربما زارها فى صحبة سيدنا عمر من حين إلى حين، وفى يوم من الأيام أرسل إليها عطاءها من بيت مـال المسلمين فرفـضت أخذه وردته إلـى أبى بكر، فأرسل إليـها الصـديق ليسألها عن رفضها لنصيبها من الصدقة، فأجابته قائلة يا خليفة رسول الله- إننى أسلمت خالصة لوجه الله ولا أريد من وراء إسلامى شـيئًا إلا أن يقبل الله عملى

ويثيبنى على طاعتى. وإنى أسألكم لماذا أرسلتم إلى بهذا المال؟ فأجابها الخليفة أن هذا هو سهمك الذى فرضه الله فقالت له أو ترشوننى على دينى؟ فقال لها لا. فقالت أو تخافون أن أدع ما أنا عليه إلى غيره من الأديان؟ فقال لها لا. فقالت المرأة ففيم إذن هذا العطاء. إنى غنية عنه فاذهبوا به إلى غيرى، فتعجب سيدنا أبو بكر من شدة إخلاصها وقوة إيمانها وكمال يقينها بالله.

وجاء فى مسند الإمام أحمد بن حنبل رضوان الله تعالى عليه أن الحسن البصرى رضى الله عنه كان جالسًا فى المسجد يومًا يعظ أصحابه ويذكرهم بالله حتى وجلت منهم القلوب وذرفت العيون وخشعت النفوس إجلالاً لعظمة الله، وبينما كان مجلسه يهيم فى نشوة حالمة من روحانية وعظة وقوة زهده وورعه إذ وقفت عليهم امرأة صالحة من القانتات الورعات، ثم سألتهم هذا السؤال: يا ورثة رسول الله ﷺ. هل فيكم من يجيبنى عن سؤالى؟ فقالوا لها كيف نعجز عن سؤال وفينا تقى المؤمنين وإمام الزاهدين يعنون الحسن البصرى. فقالت المرأة تسألهم ما الكرم يرحمكم الله؟ فقالوا لها، هو بذل المعروف والإيثار على النفس عند الحاجة، فقالت لهم ذلك فى الدنيا فما هو الكرم فى الدين؟ فقالوا لها طاعة الله وامتثال أمره والوقوف عند حدوده، فقالت المرأة: أو تبتغون على ذلك الأجر والثواب؟ قالوا لها نعم نطلب ما وعدنا الله به من الأجر على الطاعة وقد وعدنا الله على الحسنة عشر أمثالها، فقالت إذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فأين الكرم؟ فخجل القوم من قولها وأمسكوا عن جوابها وشعروا بالعجز والقصور، ثم قالوا لها ذلك ما نعلمه فما الكرم عندك يرحمك الله؟ فقالت لهم هو بذل المعروف خالصًا من قلوبكم ابتغاء مرضاة الله دون أن تنتظروا عليه جزاء من أحد يصنع بكم مولاكم ما يشاء ويفعل بكم ربكم ما يريد، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئًا بشىء؟

فأعجبوا بقولها وأثنوا على فقهها وقال لهم الحسن إن لله عبادًا أخلصوا قلوبهم لله فأضاءها بنور الحكمة وأنارها بنور الإيمان.

وإلى هذا المعنى الشريف يشير سيدنا عيسى عليه السلام وهو يعظ أصحابه

ويقول لهم: «يا قوم من عمل طلبًا للثواب فهو من التجار. ومن عمل خوفًا من النار أو طمعاً في الجنة فهو من العبيد، ومن عمل يبتغي مرضاة الله ويريد وجهه فهو من الأبرار المقربين».

وقد جاء في كتب المناقب أن عابدا من نساك بني إسرائيل ألزم نفسه بطاعة الله واختار غـارًا يتعبد فيـه وقد يسر الله له من يحمل إليـه كل يوم ثلاثة أرغفة ليقيت بها بطنه، ومكث الحال على ذلك طويلاً. وفي يوم من الأيام أراد الله أن يختبر قوة إيمانه وصدق يقينـه. فقطع عنه رزقه وانتظر الرجل ما يأتيه من الطعام فلم يأت إليه شيء حتى عضه الجوع وأضناه السـغب، فتخلى عن عبادته وخرج من غاره ومشى إلى قـرية قريبة منه حتى وقف على باب رجـل نصراني وجعل يسأله طعامـه فأعطاه النصراني ثلاثة أرغفـة فأخذها وانصرف راجـعًا. إلى غاره فتبـعه كلب النصراني وجعل ينبح عليـه حتى كاد يفتك به ولم يجد سـبيلاً إلى الخلاص منه إلا أن يدفع إليه رغيفًا مما معـه فأكله الكلب وتبعه وما زال به حتى رمى برغيف آخر فأكله، ولم يترك العـابد حتى رمى إليه بالرغيف الثالث، وظن أنه سيتركـه لشأنه ولكن الكلب ما زال يتبعه ويحـاول إيذاءه، فقال له العابد: يا قليل الحياء. قد أخذت من بيت صاحبك ثـلاثة أرغفة وقد رميت بها كلها إليك فما الذي تريده مني بعد ذلك. قالوا فأنطق الله الكلب فأجابه قائلاً يا هذا. منذ ثلاث سنين وأنا عند هذا الرجل ألازم غنمه وأحرس داره يشبـعني يومًا ويجيعني أيامًا. فـما فكرت ساعة أن أترك بابه إلى باب غـيره، أما أنت فقـد أجاعك الله يومًا واحدًا ليختبر إخلاصك ويقينك فانصرفت عن بابه إلى باب عدوه فأنت أقل حيـاءً، فصعق الرجل من قوله وأدرك أنهـا محنة من الله لم يثبت قلبـه لها ولم يصحبه الإخلاص فـيها، فلما أفاق من غشيته ندم على مـا كان منه وجدد عهده مع الله ألا يترك بابه وإن هجمت عليه الكوارث أو انتابته الخطوب والملمات.

ومن أعجب مـا جاء في الإخـلاص لله ما روته كـتب السيـرة عن رجال الإسلام وجنوده، قالوا إن جنـديًا كان في فتح القادسيـة، وبينما هو يمشي إذ به يجد حقًـا به ذهب ودر، فأخذه من ساعتـه وتوجه به إلى قائده، ففتـحه القائد أمامه، فلما أبصر الدر والذهب قال للجندي أو ما رأيت مـا فيه؟ فقال يا سيدي لقد علمت كل ما فيه وما جئـتك إلا بعد أن علمت ما بداخله، فقال له القائد:

إذن نحصى مـا فيه من الذهب ونعطيـك منه نصيبك الذى أحله الله لك، فـقال ياسيـدى. لو تاقت نفسى إلى شىء من هذا مـا جئت به إليك، فأعـجب القائد بإخلاصه وقـال له: ما اسمك أيها الرجل حتى أتحف بذلك أميـر المؤمنين عمر؟ فقـال أيدك الله بنصره لو أردت وجـهك أو وجه عمـر ما رأيتنى أنت ولا عـمر ولكنى أردت وجه ربى وربك ورب عمر فدعـا له القائد بخير، وانصرف الرجل إلى شـأنه وأخذ القـائد الحق بما فيـه فختـمـه بالمسك وأرسله إلى أميـر المؤمنين بالمدينة، ومعــه خطاب يصف فيـه هذا الرجل الذى أبى عليه إخـلاصه ودينه أن يذكر اسمه أو يقبل عطاءه مع أنه كان فقيرا معدما فلما وقف عمر على إخلاص الجندى لله بكى وقال لأصحـابه وهو يشير إلى الحق وما فيه- إن قـوما أدوا مثل هذا لأمناء مخلصـون وزهاد ورعون، وكان سيـدنا على رضى الله عنه وكرم الله وجهه من بين الحاضـرين فى مجلسه فقال له يا أمير المؤمنين. عفـفت فعفوا ولو رتعت لرتعوا، فقال عمر. الحمد لله الذى جعل فى جيش عمر أمثال هؤلاء.

فـانظر يا أخى هـداك الله إلى روح الإسـلام ولب الإيمان وأصل قـواعـد الدين، انظر إلى هؤلاء الأمـاثل كيف أخلصـوا دينهم لله، وكيف توجـهوا بكل أعمالهم إليه ولم يبـتغوا بعبادتهم وطاعتهم إلا وجـهه الكريم. فاجعلهم يا أخى قدوتك الحـسنة وأسوتك الصـالحة وانهج نهجـهم، وانسج على منوالهم وترسم خطاهم فى الإخـلاص والصلاح فـإنك إن فعلت ذلك حـشرت مـعهم وفـزت بسعـادة الدنيا والآخرة، وتأمل قـول الحق جل وعلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقد سئل النبى عن النجاة قال: **«هى ألا تخادع الله فتعـمل عملاً أمرك الله به وتريد به غير وجهه»**.

---

(١) النساء: ١٤٦ .   (٢) الأنعام: ٧٩ .

وجاء فى مناقب أبى حنيفة رضى الله عنه أنه وردت له بضاعة من الشام فأقبل عليه التجار ليشتروها منه وليربحوه فيها، فقال لهم: انتظروا حتى يطلع النهار فجاءه رجل بعدهم وزاده فى الثمن أضعاف ما ساومه السابقون فأبى أبو حنيفة أن يبيعه وقال قد أعطينا كلمة أشهدنا الله عليها فلا تنقضها بشىء من زهرة الدنيا، فلما طلع النهار أقبلوا عليه جميعًا فباعهم بالثمن الذى أشهد الله عليه.

وقالوا إن كسرى أنوشروان خرج إلى النزهة يوما فأدركه العطش فوجد بستانًا فمال إليه وسأل صاحبه أن يسقيه ماءً، فقال له البستانى ليس عندى ماء فهل أحضر لك شيئًا من الرمان. فقال له: أرنى رمانك، فوجده أحلى مما كان يعهده فى بساتينه. فعزم فى نفسه على أن يأخذه ظلمًا من صاحبه وطلب من البستانى رمانة أخرى ليتأكد من حلاوة هذا الصنف، فلم تكن من الحلاوة كالرمان السابق، فقال له كسرى أليست هذه الرمانة من الشجرة التى أحضرت منها الرمان السابق؟ قال له نعم هو من الشجرة بعينها، قال له فلماذا لم أجدها حلوة كأخواتها فقال البستانى وكان من الصالحين: لعل نيتك تغيرت وعزمت على شىء من الظلم فتغير طعمها تبعًا لتغيير نيتك، فقال فى نفسه صدق الرجل ثم عزم على التوبة وطلب رمانة ثالثة فوجدها أحلى من الأولى. فقال للبستانى أهى من الشجرة ذاتها؟ قال نعم. قال إنها أحلى من الأولى. قال لأنك أصلحت نيتك فأصلحها الله.

وقالوا إن سيدنا آدم لما هبط إلى الأرض جاءته دوابها تزوره وترحب به وتهنئه بتوبة الله عليه فكان يدعو لكل جنس منها بما يناسبه، وقد دعا للظباء ومسح على ظهورها فكان منها نوافج المسك فلما عادت سألتها طائفة من الغزلان عن سبب تلك الهبة فأخبرتها ذوات المسك أن هذه دعوة آدم أبو البشر لنا لما زرناه، فقالت هذه الطائفة هيا بنا نزوره ليدعو لنا فزارته ولم تحصل على هذه النعمة فسألت صواحبها عن سر ذلك. فقالت الظباء الأولى نحن زرناه فى الله فاستجاب الله دعاءه لنا أما أنتم فقد زرتموه من أجل المسك وشتان ما بين هذا وذاك، جعلنا الله جميعًا من المخلصين.

فــى ذم الريـــاء

الرياء هو الشرك بعينه وهو فرع من النفاق الممقوت ولعل معنى الإخلاص لا يتـضح فى قلوب المؤمنين ولا يظهـر واضحًـا جليًـا لهم إلا إذا عرفـوا الرياء ووقفوا على ما جاء فى ذمه ومقته، وعرفوا كيف حذرنا الله منه ونهانا عن إتيانه فى أى باب من أبواب العبادة والطـاعة لأنه يفسد العمل ويحـبط الأجر ويجعل العبادة تافهــة حقيرة لا وزن لها عند الله ولا فضل لهـا يوم العرض عليه. ولقد شبه الله الرياء فى الأعمال وضرب لنا مثـلا للمرائين فى عبادتهم وأنهم يشبهون حجرًا ناعمًا أملس عليه قليل من الغبار فبينما هو كذلك إذ هطل فوقه مطر غزير فأزال عنه هذا الغبار، وبدأ الحجر صلدًا لا تراب عليه.

وأصبح غـير قابل لأن يزرع فـوقه زرع أو يستنبت منه نبـات وكذلك من يعبد ربه رياءً أو يطيعه نفاقًا فهو يجهد نفسه ويرهق شخصه ويظن أنه قدم لله ما يستحق عليه الأجر والثواب. وما يستـأهل به السلامة والنجاة، فإذا ما جاء يوم القيامة لم يجد شيئًا فى ميزانه إلا الحسرة والندامة، لأن الرياء أحبط عمله وضيع أجره وثوابـه، ولعل القرآن قد أشـار إلى هذا المعنى إشـارة قوية جريئـة زلزلت قلوب المؤمنين وأطارت النوم من عيـون الزاهدين الورعين، الذين ملأ خوف الله قلوبهم وأسهر عيونهم وقطع أكبادهم وأحشاءهم، فكان لا يهجع لهم جنب ولا يقر لهم قرار إذا سمعوا هذه الآية من كتاب الله.

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[1].

وكان ابن سيرين إذا أثنى عليه أحـد من أصحابه بالصلاح والإخلاص قال ويحكم. أو ما سمعتم قوله تعالى.

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾.

---

(١) الزمر: ٤٧ .

وقوله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾(١) .

وهو تشبيه واضح جلي يدركه كل مؤمن يخاف على عمله أن يرد عليه ولا يقبله الله منه.

ولعل مما يزيده وضوحًا وجلاءً ما ضربه الله مثلاً للمؤمنين المخلصين بعد هذا المثل مباشرة (فإن الضد يظهر حسنه الضد) أو كما يقول المتنبى (وبضدها تتميز الأشياء) فقد أخبر الله سبحانه أن الذين يريدون بأعمالهم وجهه وينفقون أموالهم كمثل جنة فيحاء فوق ربوة شماء. تتمتع أشجارها بأشعة الشمس ودفئها طول النهار، ويداعبها النسيم العليل طوال اليوم وتمدها السماء بما تحتاج إليه من الماء، فإن أبطأ عنها المطر أسعفها الطل، وهى بعد ذلك كله ريانة خصبة، ومعنى ذلك أن تلك الحديقة فى غاية من السمو والعلو ونهاية من الجمال والكمال، ولا يغيب لها ثمرة ولا تذوى فى أفنانها زهرة، وكذلك المؤمن المخلص فى أعماله لربه تضاعف له الحسنات وترفع له الدجات، ولذلك قال الله عز وجل عقب ذمه للرياء والمرائين: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

واستمع إلى الآية الكريمة التى وضح الله فيها عباده المخلصين بعد ذمه الرياء والمرائين قال:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٣) .

وكفى بالرياء ذما ومقتا وخسة ودناءة أن يجعله الله من الشرك ويلحقه بالكفر يرد على صاحبه عمله بغضا له وتحقيرًا لشأنه.

---

(١) البقرة: ٢٦٤ .　　(٢) النساء: ٤٠ .　　(٣) البقرة: ٢٦٥ .

ولئن دل الرياء على شيء فى نفس صاحبه فإنما يدل على ضعف الإيمان وخور العزيمة وقصر النظر، لأن المرائى الذى يقصد بعمله غير خالقه إنسان جاهل لا يعرف لله حقه، ولا يجل قدره، جهل الله وهو خالقه وأهانه وهو رازقه، وعبد غيره بريائه وهو عبد ضعيف مثله، لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضررًا، ولا يمكنه أن يدفع عن نفسه خيرًا ولا شرًا، ومن هنا اعتبره الله وسوسة من عمل الشيطان وغواية وإضلالاً للضعفاء من المؤمنين، وخير منه الإيمان بالله والإخلاص له حتى يكافئه عليه ويبارك له فيه.

فلا تتصف به يا أخى المسلم ولا تتعطاه فإنه وصمة عار ومصدر شناعة وشنار، يترفع عن سبته المؤمنون الأقوياء ويتسامى عن دناءته الرجال الأشداء، الذين يفقهون دينهم ويعرفون ربهم ويخافون يوم الحساب، وصدق الله العظيم:

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾[1].

وإليك يا سيدى بعض ما ورد فى ذم الرياء والنهى عن إتيانه لتكون على بينة وبصيرة فلا تقترفه ولا تتعاطاه، فقد جاء عن الرسول ﷺ أنه قال فى ذمه: **«من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه وأثبت اسمه فى النار»**.

وقال ﷺ: **«اليسير من الرياء شرك ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب من عباده الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا أولئك مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة ظلماء»**.

وجاء أن سيدنا عليًا رضى الله عنه كان جالسًا ذات يوم فى مسجد الكوفة فدخل رجل من أهل العراق المسجد ليصلى فأسرع فى صلاته، فلم تعجب صلاته سيدنا على فلما فرغ استدعاه ووبخه على تقصيره فى صلاته وإسراعه فى حركاتها ثم قال له قم فصلّ مرة أخرى فقام الرجل فصلى وجعل يتصنع الخشوع

---

(١) النساء: ٣٨ - ٣٩.

والخضوع وأطال فى الركـوع والسجود، واطمأن فى الأقوال والأفعـال حتى فرغ منها فـاستـدعاه الإمام على وقـال له أيهمـا أفضل أصلاتك هذه الـتى أكملت فرائضها وسننها، وأتممت فضـائلها وآدابها أم صلاتك الأولى التى قد خلت من الخشـوع والخضوع والـطمأنينة والسكينة؟ فـقال الرجل لو أذن لى أمـير المؤمنين أجيبه بصدق، قال أجب ولا حـرج عليك، فقال الرجل إن صلاتى الأولى خير من هذه بكثيـر، فقال له ولماذا؟ قال لأنهـا كانت لله أما هذه كانت خـوفا منك ومراءاة لك، فـقال أمير المؤمنين: والله إنك لمـؤمن صدوق فما أقـبح العمل إذا كان رياءً.

وسئل الإمام الجنيد رضوان الله تعـالى عليه عن معنى الإخلاص والرياء. فـقال: من عـلامـات الإخلاص اسـتـواء المدح والذم فى قلب الإنسـان، ومن علامات المرائى أن يحسن إذا رآه الناس ويسىء إذا خلا بعمله.

وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ:

«من أحسن عمله حيث يراه الناس وأساءه حيث يخلو فتلك إهانة استهان بها ربه».

وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للمرائين من أطال النظر فيه علم أن الرياء لا يغنى عنه فتيلاً ولا يفيده قليلاً ولا كثيرًا فقال ﷺ:

«مثـل الذى يعمل للرياء كـمثل رجل يملأ كـيسـه حقًى ثم يدخل الـسوق ليشترى لنفسـه بضاعة فإذا فتح كيسه أمام البائع وجـده حصى فضرب به وجهه حيث لا منفعة له فيه سوى قول الناس ما أكـثر ما فى كيسه ولا يعطى به شيئًا». كذلـك الذى يرائى الناس بعمله لا أجـر له ولا ثواب ولا ينال منه شـيئًـا سوى كلام الناس ولاحظ له فى الآخرة.

وقال رسول الله ﷺ: **«إن المرائى ينادى عليه يوم القيامـة بأربعة أسماء. يا مراء. يا غادر. يا فاجـر. يا خاسر. ضل عملك وبطل أجرك فـاذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له»**.

وأقبح أنواع الرياء ما كان مخادعة للناس ليبتز المرائى بعمله أموالهم ويستجلب محبتهم واحترامهم وليحظى عندهم بالمنزلة العالية والمقام المحمود، وقد جعله الرسول ﷺ علامة على فساد الزمن، وأمارة على قرب الساعة، فاستمع إلى الرسول ﷺ وهو يقول: «**إذا كان آخر الزمان ظهر أناس يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين. قلوبهم قلوب الذئاب وألسنتهم أحلى من العسل ينظر الله إليهم نظرة المقت والغضب ويقول أبى يغترون أم على يجترئون، فبى حلفت لأبعثن على أولئك فتنة منهم تدع الحليم فيهم حيرانًا**».

ذلك مصيرهم فى الدنيا أما مصيرهم فى الآخرة فإن الله جلت قدرته سيسخر منهم كما سخروا منه ويستهزئ بهم كما استهزءوا به، ويريهم مصير المخلصين من مصيرهم، فقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال: «**إذا فسد الزمان افترقت أمتى على ثلاث فرق. فرقة تعبد الله رياء وفرقة تعبده لتستأكل الناس، وفرقة تعبد الله مخلصة له العبادة، فإذا جمعهم الله للحساب يوم القيامة قال للمرائين وعزتى وجلالى ماذا أردتم بعبادتى؟ فيقولون وعزتك وجلالك أردنا بذلك مراءاة الناس فيقول الله لهم لم يصعد إلى من عملكم شيء انطلقوا إلى النار ثم يقول للذين كانوا يستأكلون الناس بعبادتهم وعزتى وجلالى ماذا أردتم بعبادتى؟ فيقولون وعزتك وجلالك أردنا أن نستأكل الناس فيقول الله لهم لم ينفعكم ما جمعتموه انطلقوا إلى النار. ثم يقول للمخلصين وعزتى وجلالى ماذا أردتم بعبادتكم فيقولون وعزتك وجلالك أنت أعلم من أردنا. أردنا وجهك وابتغينا رضاك، فيقول الله لهم صدقتم فيما قلتم فادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**».

ولا يقتصر عذاب الله للمرائين أنه أدخلهم النار وحشرهم فى جهنم خالدين ليحرق أجسامهم ويبيد قلوبهم ولكنه تعالى يذيق أرواحهم مرارة الحرمان من نعيم الجنة فيطلعهم على قصورها ودورها ويريهم أشجارها وثمارها وبحارها

وأنهارها ولؤلؤها وجوهرها ومسكها وعنبرها وحورها وولدانها حتى إذا أبصروا هذا النعيم وظنوا أنهم من أهله أبعدهم عنها وحال بينهم وبين ما يشتهون.

فى ذلك يقول رسول الله ﷺ:

«يجاء يوم القيامة بأناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وما أعد الله لأوليائه فيها نودوا أن اصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها ويقولون: ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا الجنة لكان ذلك أهون علينا. فيقول الله لهم ذاك أردت بكم. كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراءون الناس بخلاف ما تعطوننى من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى، وتركتم للناس ولم تتركوا لى. اليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب».

وبما أن الرياء يحبط الأعمال ويفسد الطاعة ويباعد الإنسان عن ربه ويعرضه للعذاب وسوء المصير.

حذر الرسول منه صحابته وخوَّف من خطره أمته وقال لأصحابه **«اتقوا الرياء فإنه أخفى من دبيب النمل فتخوف الصحابة هوله وقالوا يا رسول الله كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال لهم النبى قولوا - اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه ونستغفرك مما لا نعلمه»**.

وجاء فى كتب السيرة أن رجلاً من ضعفاء الإيمان خرج مع المجاهدين فى سبيل الله فأظهر حميته وشجاعة، وأبدى بطولة وشهامة. وجعل يصول ويجول فى صفوف المشركين يطعن هذا برمحه ويضرب هذا بسيفه حتى لفت أنظار المقاتلين، واستحوذ على إعجابهم إلى أن كانوا يتبادلون الثناء عليه، فلقد بلغ من إعجابهم به وتقديرهم لشجاعته وبطولته أن أبلغوا رسول الله ﷺ بموقفه، وحدثوه عن بطولته وشهامته، وقالوا إنه أبلى بلاء حسنًا، فقال لهم الرسول ﷺ إنه من أهل النار، ودهشت الصحابة من قول رسول الله، وقال بعضهم لبعض إذا كان هذا من أهل النار فمن الذى سيدخل الجنة إذن، ولم تمضِ إلا ساعة من

نهار حتى جرح الرجل جرحًا غائرًا، فاستبد به الألم وتملكه اليأس وداخله القنوط فأجهز على نفسه فلما أبصرته الصحابة ينتحر هتفوا جميعًا من قلوبهم صدق رسول الله فيما قال، ثم أبلغوا الرسول بقصته فقال إن الرجل كان مرائيًا فى قتاله ولم يكن يقصد بعمله وجه الله، فلما أصابه ما أصابه جزع من قضاء الله وأزهق نفسه فصيره الله إلى النار.

وهذا يصدق ما أخبر الرسول به أحد أصحابه حينما سأله عن أنواع القتال فى سبيل الله وقال له يا رسول الله إن الرجل منا يقاتل شجاعة وآخر يقاتل حمية وثالث يقاتل ليرى مكانه فأى هؤلاء فى سبيل الله؟ فأجابه الرسول ﷺ بما يشفى صدره ويصحح فهمه ويوقفه على الفرق الواضح بين الإخلاص والرياء، فماذا قال سيد البشر وقدوة المؤمنين لقد قال له ﷺ :

«يا هذا من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».

ولم يفرغ الرسول من قوله حتى هبط جبريل على الرسول بتلك الآية الكريمة ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾[(١)].

وقد كان الرسول ﷺ يكثر من تحذير أصحابه من أن يقعوا فى الرياء أو يقصدوا بعملهم غير الله، ومن قوله فى ذلك **«الاتقاء على العمل أشد من العمل نفسه وإن العبد ليعمل العمل فى سره يبتغى به وجه الله فلا يزال الشيطان به حتى يذكره للناس فيمحى من ديوان السر ويكتب فى ديوان العلانية ثم لا يزال الشيطان به حتى يفتخر بعمله ويحب أن يعرف به فيمحى من ديوان العلانية ويكتب فى ديوان الرياء، فاتق الله أمرأ صان دينه وإن الرياء شرك»**.

وجاء فى كتب التاريخ أن رجلاً كان يدعى الصلاح ويعرف به ويكثر من الصلاة حتى كانت له مثل ركبة البعير فى جبهته من طول السجود، وحدث أن دخل يومًا على أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى فلما جلس فى مجلسه طلب منه أن يوليه إمارة فجعل المنصور يصعد النظر فيه ويصوبه ثم قال يا هذا إن كنت

(١) الكهف: ١١٠ .

أردتنا بما فى وجهك فلا ينبغى أن ننخدع لك، وإن كنت أردت الله فلا ينبغى أن نشغلك عنه، ولم يوله شيئًا، وقد يأخذ الإنسان الغرور بعمله حتى يسلب فضله ويحرم أجره ويمنع من شرفه فى الدنيا.

قالـوا بينما كـان عابد يمشى فى بنى إسـرائيل والسحـابة تظلله كرامـة له وعنوانًا على قربه من الله إذ جاء رجل آخـر من عامتهم ليس مشـهوراً بالصلاح والتقى شهـرة هذا الرجل، فلما نظر العابد إليه اشمأزت نفـسه منه وكره أن يراه جواره تظلـله الغمامـة، فقـال له يا هذا تنح عنى فلو بقيت إلى جـانبى تظلك الغمامة لا يعلم الناس أن الغمامـة لى، فقال الرجل للعابد. لقد علمت كل بنى إسـرائيل أننى لست ممن تظللهم الـغمـامـة. فلما تواضع الـرجل فى حبـه لله وأخلص النية له حول الله الغمامة إليه وصرفهـا عن صاحبه لشدة غروره وعجبه بعمله.

وهكذا يضر الغرور صاحبه فى الدنيا ويحرمه من ثواب عمله فى الآخرة، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول:

«الغرور يفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

وكان رجل من أهل البصرة يسمى «عامر السلمى» وكان لا يعمل عملاً إلا أحب الرياء فيه وحرص على أن يعلمه الناس ومن طريف ما يروى عنه فى ذلك قوله: إن الناس يزعمون أنى مراءٍ وأنى أحب السمعة والشهرة وقد كنت بالأمس صائمًا ولم أخبر بذلك أحدًا.

ومن الذين عرفوا بالرياء فى أعمالهم وطلبوا الشهرة وأنشدوا حب الظهور «بلال بن أبى بردة» حفـيد سيدنا أبـى موسى الأشعرى. قـالوا إنه دخل العراق يومًا وجاء إلى مسـجد الكوفة فصلى فيه، فلمـا فرغ من صلاته سأله رجل من أهل الكوفة: من أنت يا هذا؟ فأجاب: بلال بن أبى بردة حفيد الصحابى الجليل أبى موسى الأشعـرى، فقال له الرجل مرحبًا بك فنـعم النسب نسبك فمنذ كم جئت العراق؟ فقال بلال منذ شهرين وأنا مع ذلك صائم منذ عشرين سنة، فقال له الكوفى يا أخى سألتك عن شـىء واحد فأجبـتنى عن شيئين فأى عـلاقة بين

مجيئك وصـيامك؟ فخجل بلال من قوله وقـال له قاتل الله الشيطان يا أخى إنه لا يترك الإنســان منا حتى فى كلامـه، ولـم يتعظ بلال بن أبى بردة بعـثرته تلك حتى عثر قبل أن يخرج من العراق عثرة أخرى دفع فيها الثمن غاليًا، وكان ذلك بسبب مـراءاته فى عبادته وعدم إخـلاصة لله، قالوا إنه لما جاء إلى العـراق كان يبتغى إمارة يقوم على إدارتهـا ويعمل أميرًا عليها، معتـمدًا فى ذلك على حسبه ونسبه وأنه من شيعة العباسيين، ولكى ينال ثقة الخليفة ويستحوذ على حبه وقلبه ويظفر بتقديره واحـترامه تظاهر بالصلاح والتقى وأكثر من الطاعـة والعبادة حتى شاع ذلك عنه وأحبه الخليفة فعلاً وعزم على أن يوليه إمارة من الإمارات، وقبل أن يصدر الخليفة أمرًا بذلك استشار جلساءه وخاصة فى شأن توليته ليعرف رأيهم فيه، فقـال أحدهم: يا أمير المؤمنين لا تغتر به فإنه مـراء وإنه يفعل ما يفعله من العبادة خداعًا لك وإن شئت أقمت لك الدليل على مـا أقول فقال له الخليفة وما ذاك؟ فقال سوف آتيك بالنبأ اليقين فأمهلنى أيامًا، ثم انصرف عن مجلسه وبحث عن بلال فصاحـبه وأظهر له الود والحب حتى أنست نفسه به واطمـأن قلبه إليه وأصبح بلال لا يطيق بعده عنه ولا يصبر على فراقه إياه.

ومكث الرجل على ذلـك حينًـا من الزمن إلى أن دخل عليـه يومًـا وهو يصلى وكان من عادة بلال أن يطيل فى صلاته، فلما دخل عـليه صاحبه قال له أقصر من صلاتك فإن لى إليك حاجـة تهمك وتطيب بها نفسك، فخفف بلال صلاته وأقبل على صاحبه يستبينه الأمر، فقال له صاحبه كم تعطينى من المال إن بشرتك بشـىء يسر به قلبك وينشـرح له صدرك، فقـال بلال يا أخى إن عطائى لك مرهون بقيمة البشرى، فقال له صـاحبه إنها الإمارة ولقد جرى اسمك الليلة فى مجلس أمير المؤمنين وهو يريد أن يوليك ولاية كبـيرة، فتهلل وجه بلال من شدة الفرح وقال يا أخى إن كان ذلك حقًا فلك عندى ألف دينار عاجلة ونصف خراج هذه الولاية آجلاً، فقال إن الشيطان لا يترك أديمًا صحيحًا وإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن لا تثبت على حال فاكتب لى بهذا صكًا يكون حجة لى عليك إذا تقلدت إمارتك فكتب له بلال بخطه كـتابًا وأثبت فيه قيـمة الجائزة التى وعد بها ووقع على هذا الكتاب بخطه ثم دفـعه إليه، فأخذه الرجل ودخل

به على الخليفة فتعجب من ذكـائه ودهائه وغير نظرته إلى بلال وأيقن أنه ما كان يكثر الصيـام ويطيل القيام إلا خداعًا ورياء، فـولى هذا الرجل الإمارة التى كان سيولى عليها بلالاً وجعل يردد هذا البيت الذى قاله أبو على التهامى:

ثوب الرياء يشـف عما تحته ... فإذا التحفت به فإنك عارى

وقالوا إن سيـدنا عليًا رضى الله عنه دخل المسجد يومًـا فرأى رجلاً يصلى ويبكى فنظر إليه وقال له ناصحًـا مؤدبًا، يا أخى ليس هذا مكان البكاء والعويل ما أجمل هذا منك لو كان فى بيتك.

وكان الأشعث بن قيس من عـامة الناس قام إلى صلاته يومًا فخـففها إلى حد أنها لم تعجب أحد جلسائه، فعاتبه على تخـفيفه فيها فقال له يا أخى: هى وإن كانت خفيفة إلا أنها خالصة لوجه الله ولم يخالطها رياء.

وإتمامًا للفائدة نقـول أن هنالك نوعًا من الأعمال يقوم به صاحـبه مخلصًا لله ويظنه الناس رياء ومـا هو برياء، كأن يتـصدق الإنسـان أمام غـيره بصـدقة ليشجعه على الإنـفاق ويحبب إليه فعل الخير، فإذا كانت هذه نيـته وكان مطمئنًا لفعله فإنه لا بأس به ولا حرج فيه وقد قال الله تعالى: ﴿**إِن تُبْـدُوا الصَّـــدَقَـاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُـمْ وَيُكَفِّـــرُ عَنكُـم مِّن سَيِّئَاتِكُـــمْ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ خَبِيرٌ**﴾(1) فالعبرة بالنية يا أخى.

وقد قـال الفقهـاء يستـحب لمن أحدث فى الصلاة أن يضع يـده على أنفه ليظهـر للناس أنه رعف، ثم يخـرج من صلاته. وعـدُّوا هذا من الرياء المحمـود واستأنسـوا له بقول النبى ﷺ «**إذا أحدث أحـدكم فى صلاته فليأخـذ بأنفه ثم ينصرف إلـى وضوئه**» فكن يا أخى مـخلصًا فى كل مـا تأتى وما تذر واجـعل نهجك فى عبادة الله قوله تعالى ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(2).

---

(1) البقرة: ٢٧١ . (2) الأنعام: ١٦٢-١٦٣ .

فى فضل التقوى

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2] ويقول عز من قائل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات التى جاءت فى فضل التقوى وإعلاء شأنها، وتقديس آثارها حتى ليمكننا أن نقول بصراحة ووضوح إن القرآن ما أطال فى ذكر شيء ولا ألح فى طلب شيء وحض عليه ورغب فيه مثلما فعل بفضيلة التقوى فهى مقدمة لكل حكم يشرعه الدين، وهى نهاية لكل تكليف يقرره ويدعو إليه: فإذا ذكر القرآن مثلاً آداب الحج ومناسكه وشعائر البلد الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد عقب على ذلك بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[4].

وإذا امتن الله على عباده بتحليل الطيبات لهم وإباحة طعام أهل الكتاب تخفيفًا على المسلمين وتأليفًا لقلوب الكتابيين، وإذا أباح لهم نكاح المحصنات من المؤمنات والمحصنات من نساء أهل الكتاب، وإباحة أكل ما اصطادته الكلاب المعلمة. والطيور المدربة بعد ذكر اسم الله عليه قبل أكله. قال بعد ذلك كله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[5].

وإذا امتن الله على عباده بنعمتى الطهارة. والوضوء والتيمم. وجعل التراب بدلاً من الماء عند فقده، تيسيراً على عباده ورفعًا للحرج عنهم وإتمامًا لنعمته عليهم قال بعد ذلك كله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[6].

---

(١) آل عمران: ١٠٢ . (٢) الأحزاب: ٧٠-٧١ . (٣) التغابن: ١٦ .
(٤) الحشر: ٧ . (٥) المائدة: ٤ . (٦) المائدة: ٧ .

وإذا رغَّب الله عباده فى فضيلة العدل طلبًا لمرضاته وحرصًا على إجلاله وتكريمه. وشدد عليهم فى التمسك بها وتثبيت دعائمها ونشرها بين الناس، حتى وإن كانوا من بين الخصوم والأعداء، قال بعد ذلك كله ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[1].

وإذا ذكَّر الله عباده بعظيم نعمه إليهم وكثرة أفضاله عليهم وأنه كثيراً ما نصرهم فى مواطن الحرب وميادين الجهاد، وأنه خذل أعداءهم وهزم خصومهم على كثرة عددهم، وعلى كثرة مالهم من ذخائر وعتاد، وسعة ما يملكون من جموع وحشود. قال بعد ذلك كله ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[2].

وإذا ذكر الله عباده بنعمة خلقه لهم وإيجادهم من نفس واحدة مع كثرة عددهم وانتشار أجناسهم، واختلاف ألوانهم وألسنتهم، وتباين أشكالهم وأنواعهم. قدم ذلك كله بطلب التقوى فقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾[3].

وإذا شرع الله لعباده عبادة الصوم وفرضه عليهم كما فرضه على السابقين من قبلهم، علل وجود هذه العبادة الكريمة بأنها تثمر التقوى فى القلوب وتنبت الخشية فى النفوس وتنتهى بالعبد إلى مراقبة الله ما ظهرت بواطنه من غلمة الشهوات وظلمة الأهواء ودخان المعاصى والموبقات. فيقول سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[4] وبالجملة فإن التقوى مبثوثة فى نصوص القرآن الكريم على طولها، متخللة لكل أحكامه ونصوصه، شائعة بين سننه وآدابه حتى لا نكاد نجد سورة تخلو من ذكرها أو عبادة تقوم بدونها، ولولا خشية الإطالة لأوردنا فيها الكثير من آيات القرآن الكريم، وقد يدهش المكلف لذلك أو يعجب، والحقيقة أن لا دهش ولا

---

(١) المائدة: ٨ .   (٢) المائدة: ١١ .

(٣) النساء: ١ .   (٤) البقرة: ١٨٣ .

عجب لأن التقوى هى ثمرة العبادة ونور الطاعة ومقدمة الخشية والخوف من الله، وقد أكثر الله من ذكرها وبالغ فى تقديرها وإطرائها، وأثنى كثيرًا على أهلها ووعد المتقين من عباده الأجر العظيم والثواب الجزيل، وأخبر عنهم بأن لهم الفلاح والنجاح فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

ووعدهم سبحانه أن يجعل لهم فرقانًا بين الحق والباطل وأنه سيكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم ويصلح أعمالهم، وييسر أمورهم ويؤتيهم كفلين من رحمته ويجعل لهم نورًا يمشون به، وأنه تعالى سيبارك لهم فى أولادهم إن عاشوا، ويخلفهم فيهم بخير إن ماتوا، وأنه بعد ذلك كله سيقيهم ويحميهم من كيد الخصوم ويحفظهم ويرعاهم من أذى الأعداء، وفى ذلك يقول سبحانه:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾(٢)، ويقول أيضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ④ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾(٣).

فهى خير ذخيرة يدخرها المؤمن لنفسه ولأولاده من بعده، وخير ما يتزود به المسلم الصحيح إذا أراد الزاد الموصل إلى رضوان الله، وفى ذلك يقول القرآن الكريم مرغبًا للمؤمنين فى أفضل زاد: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾(٤).

ويقول الإمام الشافعى رضوان الله عليه:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد

وتقوى الله للأخيار ذخر ... وعند الله للأتقى مزيد

وما سيجيؤنا حقا قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وقد ذكر الله صفات الأتقياء فى أول سورة البقرة وفى مقدمة هذه الصفات

---

(١) آل عمران: ٢٠٠. (٢) آل عمران: ١٢٠.

(٣) الطلاق: ٤-٥. (٤) البقرة: ١٩٧.

أنهم يؤمنون بالغيب، وأنهم لا يبخلون على الله بأموالهم وينفقون على فقرائه مما رزقهم معتقدين أن هذا هو حق الله عندهم، ومن صفاتهم أيضًا أنهم يؤمنون بالقرآن المنزل على رسول الله ﷺ، كما يؤمنون بكل ما سبقه من كتب سماوية أنزلها الله على من سبقنا من الأنبياء والمرسلين، ثم هم إلى جانب ذلك على يقين جازم من أمر آخرتهم، ومن هنا جعل الله جزاءهم الفرح التام وشهد لهم بأنهم على طريق الهداية والرشاد، فاستمع إلى كتاب الله يتحدث عنهم ويصف أخلاقهم ويبالغ في وصفهم والثناء عليهم.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(1).

وهذا هو السر في أن رسول الله ﷺ أوصى بها أصحابه ورغبهم في التمسك بها، فقد جاء في كتب الحديث أن سيدنا أبا ذر رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ يا رسول الله أوصني.

فقال له النبي عليه السلام: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله وعليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء**». فقال أبو ذر زدني يا رسول الله. فقال: «**إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب**». فقال زدني يا رسول الله. فقال له: «**قل الحق ولو كان مرًا**» فقال زدني يا رسول الله. فقال: «**لا تخف في الله لومة لائم**» «**عليك بالصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر الدين**». قال زدني. قال: «**عليك بحب المساكين والدنو منهم**». قال زدني. قال: «**لا تنظر إلى من هو فوقك وانظر إلى من هو دونك فإنه أجدر ألا تزدري نعمة الله عليك**».

وقال رسول الله ﷺ:

«**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**».

---

(1) البقرة: ٢-٥ .

وقال سـيدنا على رضى الله عنه: **«الإيمان عـريان ولباسـه التقوى وريـشه الحياء ورأس ماله العفة»**.

قال أبو زرعه رضى الله عنه: رأيت امـرأة فى الطريق فقالت لى. هل لك فى ثواب الله وأجـره رغبـة؟ فقلت لهـا لا أحب إلى من ذلك. فقـالت هلم يا سيـدى لتعود مـريضًا أشرف على الموت وليس عنده أحـد من الناس يكتب عنه وصيته، فتـبعتها إلى منزلها. فلما دخلت مـعها الدار أغلقت أبوابها وتلفت فى أنحاء الدار فلم أجد أحدًا وليس هنالك مريض ولا مـحتضر. فأدركت ما تريده المرأة منى وعلمت أنها مـا ساقتنى إلى هنا إلا لأفـجر بها، فرفـعت وجهى إلى السمـاء وقلت: اللهم إن كنت تعلم أنى أخـافك وأتقيك فـأنقذنى مـن شرها، وسود وجهها. فلم أفرغ من دعائى حـتى أسود وجهها ووقع الرعب فى قلبها، فشغلت بنفسها عنى فتركتنى وشأنى فلما كنت خارج الدار قلت: اللهم رد عليها وجهها كما كانت فعاد وجهـها إلى حالته الأولى، فمضيت إلى شأنى وأنا أقول صدق الله العظيم **﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾**(1).

وقد وقع مثل هذا للإمـام الأعظم أبى حنيفة النعمـان رضى الله عنه. فقد جاء فى مناقبه أنه قال: يحدث عن نفســه: خرجت يومًا إلى صلاة الفجر وكان حساده وخصومه ينكرون عليه كثيـرًا من مواقفه ويتربصون به الدوائر. وينصبون له الفخاخ والشبـاك حتى ينالوا من مكانته ويحطوا من كرامتـه ويزعزعوا منزلته فى نفوس الناس وخاصة أتباعه ومحبيه.

قال الشـيخ الإمام. فبـينما أنا آخذ طريقى إلى المسـجد إذ بخصـومى قد أوقفـو امرأة فى طريقى، وقـد جعلوا لهـا جعلاً من المال على أن تـخدعنى عن نفسى وتدخلنى بيتها، وقد تقـدمت إلى هذه المرأة فى ضراعة ومسكنة وقالت يا سيـدى: أراك رجلاً صـالحًا تحب الخيـر وتميل إليه وإن زوجى مـريض ويريد أن يكتب وصيـته وليس عنده من يعـينه على أمره. فـهل لك فى خيـر ساقك الله إليه؟

---

(1) النحل: ١٢٨ .

فأجبتها طمعًا فى فضل الله ورغبة فى ثوابه فغلقت الأبواب ثم صاحت بأعلى صوتها وجعلت تستغيث بالأهل والجيران، فأقبل الناس من كل صوب وحدب. فدخلوا البيت ومعهم رجال الشرطة، فلم يجدوا إلا أنا وهذه المرأة فقبضوا على وساقونى إلى مقر الأمير، فأمر القائم بالأمر بحبسى حتى تطلع الشمس، وكنت لا أزال على وضوئى فحمدت الله إذ نجوت من شرها دون أن أعصى الله، فقمت إلى صلاتى وكانت المرأة معى، فلما سمعتنى أقرأ القرآن فى الصلاة وأردد قول الله عز وجل ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾[1] ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾[2].

لما سمعت المرأة منى كتاب الله خضع قلبها وطهرت نفسها وندمت على ما كان منها وأخبرتنى بما قيل لها وما أخذته من الخصوم والحاسدين أجرًا على تنفيذ هذه المكيدة، وأخبرتنى أنها تائبة إلى الله من هذا الذنب، وألحت فى طلب العفو والصفح وسألتنى المخرج مما هى فيه بعدما ذهب شيطانها، واستيقظ ضميرها.

ففكر الإمام فى مخرج يخلصها من هذه الورطة ويرد سهم الأعداء إلى صدورهم. فقال لها يا سيدتى عفا الله عنك وسوف تخرجين من هذا الأمر دون أن يمسك سوء أو يصيبك مكروه، فإن كنت صادقة فى توبتك فقولى للسجان إن لى حاجة فى البيت وسأعود إليك سريعا قبل أن يجىء الأمير، ثم اذهبى إلى أم حماد يعنى زوجته وقولى لها القصة كما وقعت وأمريها أن تكون عندى سريعًا وأن تتزيَّا بزيك هذا ليسمح السجان لها بالدخول، ففعلت المرأة ما قاله الإمام. وما هى إلا لحظات حتى كانت زوجته عنده داخل السجن فلما أبصرته أخذها البكاء وتوجست شرًا، وخافت أن يلحقه ضرر أو يصيبه أذى مادام هذا الأمر من تدبير أعدائه وخصومه، وأراد الإمام أن يهدئ روعها ويطمئن نفسها فلم يزد على أن قال لها. يا أم حماد إن الله وعد عباده الأتقياء بالسلامة والنجاة من كل ضيق ومحظور أليس هو القائل: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا

---

(١) الطلاق: ٢-٣ .   (٢) الطلاق: ٤-٥ .

بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. وقد فعلنا ما أمرنا به من التقوى وسينجز لنا ما وعدنا من الخلاص والنجاة، فلما حضر الأمير حملنا إليه. فقال الأمير: أيحل لك أيها الشيخ أن تخلو بأجنبية دون أن يكون معكما ثالث إلا الشيطان؟ فقلت أصلح الله الأمير. قبل أن أجيبك عن سؤالك هذا أريد منك أن تحضر إلى ههنا فلانًا، فقال الأمير وما شأنك به؟ فقلت إنى فى حاجة إليه. وكان هذا الرجل هو والد أم حماد فأحضره الأمير، فلما مثل بين يدى الأمير وأبو حنيفة وزوجه حاضران أمر المرأة أن تكشف عن وجهها ففعلت، فلما نظر إليها صهر أبى حنيفة نظر إلى الأمير وقال له إن هذه ابنتى وقد زوجتها لأبى حنيفة منذ سنين ولها منه أولاد، وليسأل الأمير عن قولى هذا من شاء من أهل الكوفة، فخجل الأمير وبهتت رجال الشرطة واغتاظ الخصوم والأعداء، وخرج أبو حنيفة من مأزقه سالماً بفضل صلاحه وتقواه، والتفت إلى زوجه وصهره وهو يردد قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2] وحق له ذلك فقد أظهر الله حجته وأعلى كلمته ونصره على حساده ومنافسيه، وكان رضى الله عنه كثيراً ما يردد هذين البيتين:

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم
قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهمو
ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقال الشبلى رضى الله عنه: رأيت حداداً يأخذ الحديد بيده من النار دون أن تحرق النار يده، فتعجبت من شأنه وسألته عن أمره، فقص على قصته وقال يا سيدى: «إن من اتقى الله فى سره أكرمه مولاه فى علانيته، وذلل له كل صعب وسهل عليه كل وعر، وقد اتقيت الله فى يوم فوقانى عذاب النار فى الدنيا وأنا أرجو أن يقينى عذابها فى الآخره، وسأخبرك خبرى».

---

(١) الزمر: ٦١ . (٢) النور: ٥٢ .

كانت تسكن بجوارى امرأة جميلة بالغة الحسن، معتدلة القد ساحرة الدلال، فأغرمت بها وهام قلبى بحبها، إلا أنها كانت تقية صالحة تؤمن بالله وتخاف عذابه فلم أتمكن من تحقيق رغبتى معها، فمكثت هائمًا بها حتى نزلت بها فاقة واحتاجت إلى الطعام والقوت، ولم تجد من يعطيها شيئًا دون أن تمكنه من نفسها وتمنحه من حسنها وجمالها، فالتجأت إلى وسألتنى أن أعطيها شيئا ابتغاء مرضاة الله. فداخلنى الشيطان وقلت لها لا أعطيك شيئًا حتى أنال منك ما أريد، فولت وجهها عنى وقالت: لا سبيل أبدًا إلى معصية الله ولو كان فى ذلك هلاك نفسى وذهاب حياتى ولا أبيع رضاء الله بأى شىء مهما كان غاليًا أو نفيسًا، فتركتها وشأنها وأيقنت أن الضرورة سوف ترغمها على تسليم نفسها، فلما كان اليوم الثانى جاءتنى وقد نال الجوع منها وطلبت منى مثلما طلبت بالأمس، فأبيت أن أجيبها إلى شىء حتى أظفر منها بحظ نفسى، ولكنها كانت أشد من الأمس إباءً وإصرارًا، فولت دون أن أظفر منها بشىء، وكدت أموت من شدة الشوق إليها والهيام بها، ولم تلبث حتى عادت إلى مرة ثالثة وكانت متداعية هزيلة قد أضر بها الجوع وهد كيانها وأضعف قوتها، فتظاهرت بالعطف عليها وأدخلتها منزلى وقدمت لها طعامًا شهيًا وشرابًا باردًا. وفاكهة وحلوى فنظرت إليه مستغربة دهشة وقالت: ما هذا الطعام يا سيدى؟ أهو لله أم لغير الله؟ فقلت لها لابد من أن أنال حظى من هذا الجمال ففزعت وقامت لتخرج من حيث جاءت وآن ذلك أدركنى خشية وداخلتنى نخوة وأدركنى لطف من الله فاستيقظ ضميرى وقلت فى نفسى: هذه امرأة ضعيفة تمتنع عن المعصية خوفًا من الله، وتأبى أن تبيع شرفها ودينها فى أحرج الظروف وأضيق الأوقات، أفلا يكون لى فى ذلك عبرة وموعظة، فأخاف الله وأتقيه، وآن ذلك توجهت إلى الله وقلت اللهم إنى أتوب إليك وأشهدك إنى قد بادرت إلى طاعتك واتقاء سخطك، وأسرعت إلى المرأة فدعوتها إلى هذا الطعام وقلت لها: لا بأس عليك. فخذى من الطعام حاجتك وخذى من مالى ما تشائين ابتغاء وجه الله، فطابت نفسها وذهب عنها روعها، فرفعت وجهها إلى الله وقالت «اللهم إن كان صادقا فحرم عليه النار فى الدنيا والآخرة» فأجاب الله دعاءها، فمنذ ذلك اليوم

وأنا ألامس النار بيـدى وآخذ الجمـر بأصابعى فـلا يحرقنى جمـرها ولا يؤذينى لهبها، وأنا أنتظر بركة دعائها فى الآخرة يوم أن ألقى الله.

فلما سمع الشبلى منه قصته قـال له: إن بركة التقوى لا تخطئ صاحبها، ومن تمسك بهـا وحرص عليهـا فقـد تمسك من الله بأقوى سـبب وآوى من عزه وسلطانه إلى ركن ركين وحرز أمين.

أو ما بلغك قوله ﷺ:

«من سره أن يكون أعـز الناس فليتق الله، ومن سـره أن يكون أقوى الناس فليتـوكل على الله، ومن سره أن يكون أغنـى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده».

وبينمان كان الرسول ﷺ جالسًا مع أصحابه، إذ أقبل عليه أعرابى وقال يا رسـول الله إنى رجل مسلم وإنى لا أزيد عـلى الصلوات الخمس ولا أصـوم إلا شهر رمضان وليس لى مال أحج به وأنفق فى سبيل الله منه فأين أنا إذا مت؟

فقـال له النبى ﷺ: **«أنت فى الجنة إن شاء الله»** فقـال الأعرابى فى الجنة معك يا رسول الله؟ فتبسم النبى لقوله وسكت قليلاً ثم قال **«نعم تكون معى إن اتقيت الله وحفظت قلبك من الحقد والحسد ولسانك من الكذب والغيبة والنميمة وبصـرك من النظر إلى محـارم الله وبطنك وفـرجك من الفواحش والحـرام، وألا تحتقر مسلمًا. إذا فعلت هذا دخلت الجنة معى».**

فقال الأعرابى: والله لأفـعلن ذلك كله يا رسول الله. فقال له النبى ﷺ: **«إذن فلك عند الله سؤلك** «ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَـإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾(١).

فانظر يا أخى كيف جـعل الرسول تقوى الله فى مقدمة وصـاياه، والتقوى هى اتقـاء كل ما يـضر فى الدين والدنـيا وذلك فى أربعـة أشـياء. الخـوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستـعداد ليوم الرحيل، وقد سئل

---

(١) آل عمران: ١٨٦ .

الحسن عن التقوى فقال هى: ألا يفتقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك، وتلك هى مرتبة الإحسان المشار إليها فى حديث جبريل مع الرسول ﷺ حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فقال له النبى ﷺ:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والتقوى تطلق فى القرآن بمعان ثلاثة، فتارة تطلق بمعنى الخشية والهيبة كما فى قوله تعالى: ﴿**وإياى فاتقون**﴾. وتارة تطلق بمعنى الطاعة والعبادة كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه**﴾[1] أى أطيعوه حق طاعته، وتارة ثالثة بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب والآثام وهذه هى حقيقتها الشائعة فى القرآن الكريم، وهى غنيمة المؤمنين الأتقياء فى الدنيا والآخرة، ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[2].

فالتقوى يا أخى كنز عظيم وجوهر شريف وخلق نفيس، ورزق كريم وفوز كبير، جمعت خير الدنيا والآخرة، فكم علق بها من خير وكم وعد الله عليها من أجر وثواب، وكم أضيف إليها من سعادة ويكفى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[3] وفى آية أخرى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[4].

وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه يقبل دعاء المتقين وأعمالهم، وأنه تعالى يعزهم ويكرمهم دون غيرهم من الناس وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾[5]. ويقول سبحانه: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[6].

وفى الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال:

«إذا كان يوم القيامة جمع الله الخلائق من عباده ثم ثم قال لها. لطالما تكلمتم وأنا ساكت فاسكتوا اليوم لأتكلم إنى وضعت نسبًا ووضعتم نسبا، فقلت إن أكرمكم عند الله أتقاكم وقلتم الأموال والأحساب، فوضعتم نسبى ورفعتم أنسابكم واليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم، أين المتقون».

---

(١) آل عمران: ١٠٢ . (٢) النور: ٥٢ . (٣) الجاثية: ١٩ .
(٤) الحجرات: ١٣ . (٥) التوبة: ٤ . (٦) المائدة: ٢٧ .

فالمتقون هو أولياء الله وهـم الذين يبشرهم ربهم بفوزهم عند الموت، وهم الذين ينجيهم الله مـن النار فى ساحة الجزاء وفى ذلك يقول سـبحانه: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾.

ويقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾(٢) وأخيرًا فهم أهل الخلود فى الجنة فى جوار رب الكريم ﴿إن للمتقين مفازا﴾(٣) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾(٤). إلى غير ذلك من الآيات والأحـاديث التى تفيض بذكر التقوى ومـدح الأتقياء، فاحرص عليها يا أخى وأكثر من التزود منها، وما أحسن قول القائل فى فضلها:

تزود من التقـوى فإنـك لا تدرى	إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجـر؟
فكم من صحيح مات من غير علـة	وكم من عليل عاش حينًا من الدهـر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم	وقد دخلت أجسادهم ظلمـة القـبر
وكم من فتى يمسـى ويصـبح ساهيًا	وقد نسجـت أكفانـه وهو لا يـدرى
وكم من عـروس زينـوها لزوجهـا	وقد قبضـت أرواحهم ليلـة القـدر

وسئل رسول الله ﷺ عن الأتقياء فقال يـصفهم لأصحابه: «هم المؤمنون الأصفياء الأخفـياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يـعرفوا، تعرفهم بقاع الأرض، وتحف بهم مـلائكة السماء. نعم الـناس بالدنيا ونعمـوا هم بطاعة الله، افترش الناس الفراش الوثير وافترشوا هم الجباه والركب، وضيع الناس فعل الأنبياء والمرسلين وحافظ عليه الأتقياء، تبكى عليهم الأرض إن فقدتهم ويسخط الجبـار على كل بلد ليس فـيهـا واحد منهم، لا يتكالبـون على الدنيـا كما تفـعل الكلاب على الجـيف، وإنما أكلوا العلق ولبـسوا الخلق شـعث غبـر يراهم الناس فـيظنون أن بهم داءً ومـا بهم داء، ويقولون ذهـبت عقـولهم ومـا ذهبت ولكنهم نظروا بقلوبهم إلى أمـر الله فأذهب ذلك عنـهم الدنيا ولذتهـا فهم فى نظر أهلـها

(١) مريم: ٧٢ .
(٢) الليل: ١٧ .
(٣) النبأ: ٣١ .
(٤) الطور: ١٧ .

يمشون بلا عقول، ولكنهم عقلوا إذا جهل الناس، أولئك هم أصحاب الشرف فى الآخرة، فإذا رأيتهم فى بلدة فاعلم أنهم أمان لها من عذاب الله، الأرض بهم فرحة والديان عنهم راض، فاتخذوهم لأنفسكم إخوانًا فعسى أن تنجوا بفضلهم، وإن استطعتم أن يأتيكم الموت وبطونكم جائعة وأكبادكم ظمأى فافعلوا فإنكم تدركون بذلك شرف المنازل فى الجنة وتحلون مع النبيين والصديقين وتفرح بقدومكم الملائكة ويصلى عليكم ذو الجلال والإكرام» .

هذه أيها المسلم هى منزلة الأتقياء وتلك هى درجاتهم عند الله، وهى منزلة يطمع فيها كل عاقل ويحرص عليها كل لبيب ولا يفرط فيها إلا الجاهلون والأغبياء .

فإياك أن تكون واحدًا منهم فتندم وتهلك، وآن ذلك لاينفع الندم ولا يجدى البكاء، وتأمل قول الرسول ﷺ لأصحابه: **«أنا أتقاكم لله وأعرفكم به وأشدكم له خشية»** وقوله سبحانه وتعالى:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾(١) .

جعلنا الله من الأبرار الأطهار وكتبنا عنده من الصالحين الأتقياء والصادقين الأوفياء .

---

(١) آل عمران: ١٩٨ .

فى فضل الخوف من الله والرجاء فيه

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[2].

وقال أيضًا مخاطبًا لهم ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[3]. وقال سبحانه ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[4]. إلى غير ذلك من الآيات التى وردت فى بيان الخوف من الله، والخوف من الله أفضل مزايا المؤمنين وأكرم صفات الصالحين الذين ملأت عظمة الله قلوبهم وهيمن جلاله على حواسهم ومشاعرهم، فخافوا حسابه وتجنبوا عقابه واجتهدوا فى طاعته جهدهم، وبالغوا فى عبادته وسعهم وجعلوه نصب أعينهم، فلا يتحركون إلا لمرضاته ولا يسكنون إلا من مخافته، دينه منهجهم، وكتابه دستورهم ورسوله قدوتهم وسيرة الصالحين الأبرار أقدم سبيل يسلكونه ويمشون فيه، ومثل الخوف من الله فى فضله ومنزلته الرجاء فى رحمته، فهو أنس قلوب التائبين وراحة نفوس المنيبين، الذين يحسنون الظن بالله ويطمعون فى فضله وجوده، فكان الله لهم كما كانوا له. وكان عند حسن ظنهم به ويقينهم فيه، فحقق لهم كل أمل فى رحمته وأعطاهم كل رجاء يبتغونه أو يطمعون فيه، والخوف والرجاء خير أحوال الصديقين فإذا اجتمعا فى قلب عبد فقد تم إيمانه وكمل يقينه، وفاز فى الدنيا بالكرامة والعزة وفى الآخرة بالنجاة من النار.

ولقد جمع الله بين الخوف والرجاء فى أكثر نصوص الدين، فما من آية خوف الله فيها عباده إلا رغبهم تعالى فى الرجاء فى رحمته، وزرع فى قلوبهم الأمل فى عفوه وذلك حتى لا يطمئن الصالحون دون الجنة، ولا يقنط العاصون من الرجوع إلى الله.

---

(١) يونس: ١٥ .
(٢) البقرة: ٤٠ .
(٣) البقرة: ٤١ .
(٤) البقرة: ١٩٧ .

فاستمع إلى قول الله عز وجل فى محكم كتابه الكريم:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾(١).

وفى الحديث القدسى عن الله عز وجل أنه قال:

«لا أجمع على عبدى أمنين ولا خوفين. إن أمننى فى الدنيا أخفته فى الآخرة. وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة».

وقال رسول الله ﷺ: **«من خاف الله خاف منه كل شىء ومن لم يخفه خوفه الله من كل شىء»**.

وقالوا إن الرسول ﷺ كان يذكر أصحابه بالله واليوم الآخر فبكى رجل خوفًا من الله فنظر إليه الرسول ﷺ وقال لأصحابه: **«إن الله قد غفر لكم جميعًا ببكاء هذا الرجل»**.

فقالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال النبى: **«إن ملائكة الرحمة الذين يحضرون مجالس الذكر والقرآن إذا سمعوا من بكى من خشية الله تشفعوا إلى الله فيه وقالوا اللهم شفع من بكى فيمن لم يبك فيقبل الله دعاءهم ويشفع الباكين فيمن لم يبك»**.

وكان سيدنا أبو يزيد البسطامى رضوان الله عليه يحرص كثيرًا على تربية أصحابه ومريديه ويبتكر لهم العظات ويقص عليهم العبر ويضرب لهم الأمثال، وقد جاء فى مناقبه أنه كان جالسًا فى مسجده يومًا فدخل عليه أربعة من أهل الحقيقة، فأراد أن يختبر مبلغ معرفتهم بالله، وإلى أى حد وصلوا فى علم الكون وفهم بواطن الأمور، فسكت عنهم قليلاً من الزمن ثم قدم لهم عسلاً فى قدح وجعل على القدح شعرة، وقال لهم أيكم يستطيع وصف هذا؟ فقال أحدهم إن العقل أصفى من القدح، والعلم أحلى من العسل، والصدق أدق من الشعرة، وقال الثانى: إن الشيخ يرى أن الجنة أصفى من القدح ونعيمها أحلى من

---

(١) الإسراء: ٥٧ .

العسل. والصراط إليهما أدق من الشعرة، وقال الثالث: إن الشيخ يرى أن قلب المؤمن أصفى من القدح وكتاب الله أحلى من العسل. والحق أدق من الشعرة، وقال رابع: إن الشيخ يرى أن الإسلام أصفى من القدح. وطاعة الله أحلى من العسل. والورع عن محارمه أدق من الشعرة، قال كل واحد منهم قوله وأبو يزيد صامت لا يتكلم حتى فرغوا من كلامهم، وأخذوا يسمعون قوله وينصتون لرأيه، فقال رضى الله عنه: معرفة الله أصفى من القدح ومحبته تعالى أحلى من العسل. والخوف منه أدق من الشعرة، فقال الجميع صدقت يا أبا يزيد. إنك لشيخنا وأستاذنا، فقال لهم: أو ما تقرءون فى قول الله تعالى ما يؤيد ذلك ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(1) فإذا كان هذا شأن ملائكته فأين أنتم منهم.

وقالوا إن سيدنا شعيبًا عليه السلام بكى كثيرًا من خشية الله حتى سقم بدنه وتقرحت أجفانه وذهب بصره فأوحى الله إليه «يا شعيب: إن كان بكاؤك خوفًا من النار فقد أمنتك عذابها. وإن كان طمعًا فى الجنة فقد أوجبت لك نعيمها». فقال عليه السلام وعزتك وجلالك ما بكيت خوفًا من النار وعذابها ولا طمعًا فى الجنة ونعيمها، وإنما بكيت شوقًا إلى لقائك وإجلالاً لسلطانك وطمعًا فى رضوانك، فأوحى الله إليه «إن كنت تبكى لهذا فابك طويلاً فما لهذا الداء دواء إلا البكاء».

وجاء فى مسند الإمام أحمد بن حنبل رضوان الله عليه أن رجلاً من فضلاء الصحابة سمع قارئًا يتلو سورة التكاثر ويردد ما قاله الله فيها:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾(2). فاهتز قلبه ووجلت نفسه واقشعر بدنه من خشية الله، وأخذ يردد هذه الآيات ويقول: تهديد بعد تهديد. ووعيد بعده وعيد. وإنذار يعقبه إنذار، وجعل يبكى خوفًا من الله وفزعًا

---

(1) النحل: ٥٠. (2) التكاثر: ١-٨.

من لقائه حتى فاضت روحه، فقال الحاضرون حوله: لقد عجل الله به إلى منازل السعداء لأنه لقى الله خائفًا من سلطانه، معظمًا لشأنه ظافرًا بمغفرته ورضوانه، فقيل لهم من أين لكم ذلك؟ فقالوا من كتاب الله الكريم. ألا تسمعون قول الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(1) وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(2) وكان سيدنا على رضوان الله عليه يقول: إن الحزن يمنع الطعام والشراب، وخوف الله يمنع الذنوب والآثام، والرجاء فى رحمته وعفوه يقوى على الطاعة والعبادة.

ومما جاء عن رسول الله ﷺ قوله يخطب أصحابه ويحذرهم عذاب الله:

«المؤمن بين مخافتين. بين عمر قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليأخذ االعبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته فإنى قد خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

ولما حضرت سيدنا أبا هريرة الوفاة جعل يبكى وينتحب فقال له أصحابه مما تبكى وقد صحبت رسول الله بالحسنى وأخذت عنه كتاب الله وسنة رسوله، وانتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى وهو عنك راض، فقال: دعوا عنى غروركم. أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وأنى أصبحت على مهبط جنة أو نار ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى.

ولما حضرت الوفاة عطاء بن أبى رباح التف حوله أهله وقالوا له: هل تشتهى شيئًا نحضره لك؟ قال يا قوم إن خوف الله لم يدع فى قلبى موضعًا لشهوة.

وقابل رجل الحسن البصرى رضوان الله تعالى عليه وكان من أشد الناس خوفًا لربه، فقال له الرجل: كيف أصبحت يا تقى المؤمنين؟ فأجابه الحسن: بخير والحمد لله فقال له: وكيف حالك؟ فقال الحسن: أو تسألنى عن حالى. ما ظنك بقوم ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر وأصبحوا بين أمواجه ولججه

---

(1) الرحمن: ٤٦ .   (2) الملك: ١٢ .

فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل واحد منهم بلوح. على أى حال يكون ذلك الرجل؟ قال له صاحبه: يكون على حال عظيم وهول جسيم، فقال له الحسن: يا أخى إن حالى أشد من هؤلاء.

وقد قال أحد أصحابه فى وصفه: إن الحسن كان إذا جلس لذكر الله وعبادته كأنه أسير قوم لتضرب عنقه.

وجاء أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام كان يبكى كثيراً من خشية الله وخوفه، فأوصى الله سبحانه وتعالى إليه: يا إبراهيم فيم هذا البكاء وقد اتخذتك خليلا. فقال يا رب: إذا ذكرت ذنوبى ضاقت على الأرض بما رحبت ونسيت خلتى، وإن ذكرت رحمتك وسعتها ارتدت إلى روحى، سبحانك إنى أتيت أطباء عبادك ليداوونى فكلهم دلونى عليك، فبئس للقانطين من رحمتك، إلهى أمد عينى بالدموع وجسمى بالقوة حتى أبلغ رضاك عنى.

وقالوا إن سيدنا داود لما طال بكاؤه على خطيئته وضاق صدره بزلته، أطال السجود بين يدى الله وقال يا رب أوما ترحم بكائى «فأوصى» الله إليه يا داود. نسيت ذنبك وذكرت بكاءك، فقال يا رب كيف أنسى وكنت إذا تلوت الزبور سكن كل شىء وأنس بى كل شىء. إلهى إلى متى هذه الوحشة بينى وبينك؟ فأوحى الله إليه - يا داود ذلك أنس الطاعة وتلك وحشة المعصية، يا داود: إن آدم خلق من خلقى صورته بيدى ونفخت فيه من روحى وأسجدت له ملائكتى وألبسته ثوب كرامتى، وتوجته بتاج وقارى وزوجته أمتى وأسكنته جنتى، فلما عصانى أخرجته من جوارى عريانًا ذليلاً، يا داود الحق أقول - أطعتنا فأطعناك وعصيتنا فأمهلناك وتبت إلينا فقبلناك.

وقيل للجنيد رضى الله عنه: نراك تبكى كثيراً فما سبب بكائك؟ قال روعة يجدها المؤمنون بالله فى قلوبهم قالوا وما تلك الروعة يا إمام العارفين وشيخ الزاهدين؟ قال: روعة النداء للعرض على الله يوم الحساب، فقيل له أوصنا. قال إذا استطاع أحدكم أن يتصور نفسه بين السباع الكاسرة والوحوش الضارية فليفعل، فإنه إن غفل قليلاً لافترسته السباع أو مضغته الوحوش فهو وجل القلب

دائمًا وإن أمن المغترون، وحزين على نفسه وإن فرح المذنبون، فقالوا له: زدنا يرحمك الله فقال: الظمآن يكفيه من الماء أقله وأنشد:

قصوا على حديث من قتل الهوى   إن التأسى روح كل حزين

فقيل له أيهما أفضل. الخوف من الله أم الرجاء فى رحمته؟ فقال أيهما تفضلون فى حياتكم الخبز أم الماء؟ يعنى بهذا رحمة الله أن المؤمن كامل الإيمان لا يستغنى عن الخوف من الله ولا عن الرجاء فيه.

وجاء أن النبى ﷺ لما نزل قوله تعالى ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[1] فرح النبى بها فرحًا شديدًا وقال: «**ما أحب أن لى بتلك الآية الدنيا بما فيها**». وكان سيدنا على يقول فى حقها إنها أرجى آية فى كتاب الله، وقالوا له يومًا صف لنا رحمة الله فقال يا قوم ومن ذا الذى يستطيع أن يصف رحمته وقد وسعت كل شىء، وأشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «**إن لله مائة رحمة أنزل منها واحدة بين جميع المخلوقات فبها يتراحمون، وأخر منها تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة**»، ولقد رأى النبى ﷺ جارية فى السبى ترضع ابنها فأشار إليها وقال لأصحابه: «**أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟** قالوا لا يا رسول الله. فقال: **والذى نفسى بيده الله أرحم بعباده من هذه بولدها**».

وأعجب من هذا أنى رأيت رجلاً يبكى بين يدى رسول الله ﷺ، فسأله الرسول عن سبب بكائه. فقال له يا رسول الله أصبت ذنبًا وأخاف ربى. فسكت عنه النبى حتى جاء بلال فأذن لصلاة العشاء، ثم أقام الصلاة فصلينا خلف رسول الله وصلى الرجل معنا. فلما فرغنا من الصلاة أقبل الرجل على البكاء مرة أخرى، فاستدعاه النبى ﷺ وقال يا أخى أحسن الظن بالله - هل توضأت فى بيتك فأحسنت الوضوء؟ فقال الرجل نعم، وهل سعيت من بيتك إلى مسجدى تحث الخطى حرصًا على الجماعة قال: نعم. وهل صليت معنا صلاة العشاء وأقبلت فيها بقلبك على الله؟ قال نعم. فقال النبى ﷺ «**أشهد أن الله قد**

---

(١) الزمر: ٥٣ .

غفر لك ذنبك وقبل توبك وأقبل عليك بوجهه فلا تعد إلى عصيانه، فإن غلبتك نفسك فاقرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] فولى الرجل وهو يقول: أشهد أن الله يغفر الذنوب جميعًا».

وجاء فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ جلس إلى أصحابه يومًا وجعل يشرح لهم الخوف من الله والرجاء فى رحمته فقال «**إذا كان يوم القيامة يخرج الله سبحانه من النار رجلين ويقول الله لهما كيف وجدتما منقلبكما وسوء مصيركما؟ فيقولان: شر منقلب وأسوأ مصير، فيقول الله لهما ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2]. ثم يؤمر بهما أن يعودا إلى النار فيسارع إليها أحدهما ويبطئ الثاني، فيقول الله عز وجل للذى بادر إلى النار ما حملك على ما صنعت، فيقول يا رب عصيتك فى الدنيا وأنا استحيى إن أعصيك فى الآخرة، ثم يقول للذى أبطأ ما الذى حملك على ما صنعت؟ فيقول يا رب. حملنى على هذا حسن ظنى بك وأنك أخرجتنى من النار ولا تعيدنى إليها، فيرحمهما الله معًا ويأمر بهما إلى الجنة**».

وقال سيدنا إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه: كنت أطوف بالكعبة فى منتصف الليل وقد خلا بى المطاف، فجعلت أكثر من ذكر الله وتسبيحه وطاب لى الدعاء فى هذا الوقت فضرعت إلى الله مبتهلاً وقلت اللهم اعصمنى من الذنوب والآثام فاعترضنى رجل جميل الوجه نظيف الثوب طيب الريح لا عهد لى به من قبل وصاح بى قائلاً: يا إبراهيم كلكم تسألون الله العصمة من الذنوب، فإذا عصمكم منها فعلى من يتكرم بالمغفرة، والذى بعث محمدًا بالحق ليغفر الله يوم القيامة لعباده ذنوبهم وليرحمهم رحمة يتطاول لها إبليس رجاء أن تناله.

---

(١) المجادلة: ٧ . (٢) الأنفال: ٥١ .

ولو أفضنا فى هذا المجال لطال بنا الحديث، فاللهم املأ قلبنا بالخوف منك والرجاء فيك.

وقال رجل لسيدنا عبد الله بن عباس أوصنى وأوجز فقال يا أخى، ابتغ رحمة الله عند محبته واحذر نقمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه فيما بين ذلك.

ولما حج الفضيل بن عياض وقف على عرفات فرأى الباكى على نفسه ورأى الضارع إلى ربه والمستغفر إلى الله من ذنبه، فقال لأحد أصحابه: يا أخى أرأيت لو أن هؤلاء وقفوا على باب غنى يطلبون درهما أكان يردهم خائبين؟ فقال له صاحبه لا والله، فقال الفضيل إن مغفرة ذنوب هؤلاء عند الله أهون من درهم يجود به كريم من الأغنياء.

ومما ورد فى صحف سيدنا إبراهيم عليه السلام عن الله عز وجل أنه قال: **«عبدى لا تقنط من رحمتى، فإن كنت بالغدر موصوفا فأنا بالجود معروف، وإن كنت ذا خطايا فإنى ذو عطايا، وإن كنت ذا جفاء فإنى ذو وفاء، وإن كنت ذا إساءة فإنى ذو إحسان، وإن كنت ذا غفلة فإنى ذو عفو ورحمة، وإن كنت ذا خشية وإنابة فإنى ذو إجابة وقبول»**.

ومن كلام ابن سيرين: لا تقنط من رحمة من جاد بالمغفرة على سحرة فرعون، وجعلهم كرامًا بررة بعد أن كانوا سحرة فجرة.

ومما أثر عن الإمام الشافعى رضوان الله تعالى عليه يناجى ربه على عرفات.

برزوا لجودك ياكريم بدعوة ... ألفاظها شتى بمعنى مفرد

فاسمح بمغفرة تكون لسفرنا ... زادا إليك غداة يوم المشهد

وقال منصور بن عمار وقفت عند قبر الرسول ﷺ. فرأيت رجلاً يبكى وسمعته يقول:

إلهى ما أردت مخالفتك ولكن عصيتك بجهلى فمن ينقذنى من عذابك، وبحبل من أعتصم إن قطعتنى عن جنابك، واغوثاه واغوثاه ثم خر مغشيًا عليه فرحمته وأقبلت عليه وقرأت عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[1] فلما سمع ذلك صاح وأكثر من صياحه حتى انقطع صوته، فأقبل عليه الناس فإذا هو قد فارق الحياة فسألت عنه فقيل لى. كان صوامًا قواما، يكسب الحلال فيأكل منه ويتصدق إلا أنه كان يردد هذه الآية ويقول إنى أخاف أن أكون من أهلها ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[2] فاللهم أكرمنا عند لقائك وأمنا من عذابك وسوء المصير.

(١) طه: ٨٢. (٢) الزمر: ٤٧.

فى فضل العمل الصالح وما جاء فيه

لم يعتنِ الدين الحنيف بشيء مثلما اعتنى بالعمل الصالح والدعوة إليه، وترغيب المؤمنين فى العناية به والحرص عليه، فقد أطال فى ذكره ومدحه وعلق عليه كل فوز وظفر، ورتب عليه كل نجاح وفلاح، فهو مفتاح الحياة الطيبة فى الدنيا وسلم العيشة الهنيئة وهو مصدر السعادة التامة، والعزة الكاملة، والنعيم الأبدى والسرور السرمدى فى الآخرة، فليس هنالك سبيل إلى كل مجد ولا طريق إلى كل خير ولا سفينة يبحر عليها المكلف إلى شاطئ السلامة والنجاة إلا الأعمال الصالحة والإكثار منها، ورحم الله ذلك الحكيم الذى كان يقول:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

ويكفى العمل الصالح فضلاً وفخراً، وشرفا ومنزلة أن الله جعله قرين الإيمان، وكرر طلبه فى سور القرآن، فما من آية يغرس الله بفضلها الإيمان فى قلوب المؤمنين إلا قرن الإيمان بالعمل، لأن كلا منهما يكمل صاحبه، فالإيمان بدون العمل الصالح شجرة بلا ثمر أو زهرة بلا عطر، أو سراج لا نور له ولا ضياء فيه، فهو عقيم لا يلد، وحول[1] لا يثمر ولا ينتج، والعمل الصالح بدون الإيمان زندقة وإلحاد أشبه ما يكون بالولد الدعى الذى لا يُعرف له نسب ولا له والد، ولذلك لا تخلو آية دعت إلى الإيمان بالله من الدعوة إلى العمل الصالح.

قال سبحانه وتعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾[2].

وكما جمع الله بينهما فى ذكره وربط بينهما فى قرآنه ربط بينهما فى الأجر وجمع بينهما فى الثواب، قال سبحانه: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا**

---

(١) حول: يعنى هو الشجر الذى لا ثمر له.

(٢) الكهف: ٣١ .

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢) وما أجمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤).

ويقول المفسرون فى شرح هذه الآية إنها مثل ضربه الله للمؤمنين الصادقين الذين جمعوا ما بين عقيدة راسخة فى قلوبهم وعمل صالح فى واقع حياتهم، فكما أن الشجرة الطيبة تقوم على أساس ثابت وتعتمد على جذع متين وتؤتى ثمارها شهية جنية فى حينها، فكذلك المؤمن الكامل يقول- لا إله إلا الله فينعقد على توحيد الله قلبه ويظهر أثر هذه العقيدة أعمالاً صالحة فى جوارحه وأعضائه، فلا يقدر على صالحة إلا أتاها، ولا يستطيع حسنة إلا قام بها جاعلاً نصب عينيه وواضعًا بين يديه قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٥).

ومن تأمل فى الأعمال الصالحة التى نادى بها كتاب الله وأكثر من الترغيب فيها والحض عليها وجدها لا تخرج من قوانين الحياة المنظمة، فهى فى جملتها وتفصيلها السلوك السليم والخلق القويم لو لم يأمر بها الدين ويدعو إليها لكان على الإنسان العاقل أن يحرص على القيام بها ولذلك تحرص الشعوب المتحضرة والأمم العلمانية التى لا تؤمن بدين ولا تخضع لشريعة عل التحلى بالفضائل والمحامد، فنجدها تحرم الخمر وتعاقب على القتل وتحارب الزنا والانحراف، كما

---

(١) النور: ٥٥ . (٢) النحل: ٩٧ . (٣) إبراهيم: ٢٣ .
(٤) إبراهيم: ٢٤-٢٥ . (٥) ص: ٢٨ .

نراها تحظر على أفرادها الإسراف فى الشهوات والإغراق فى الملذات، حتى تظل أجسامهم سليمة وأخلاقهم قويمة وحياتهم رغدة، وعيشتهم راضية.

فما يراه الدين عملاً صالحًا يراه العلم فضيلة حميدة وخلقًا نبيلاً، فالوفاء بالوعد والصدق فى القول والإخلاص فى المعاملة التى عرفت بها أوروبا، والأخلاق العالية والشمائل السليمة التى شاعت بين المتحضرين والمتمدينين، كلها لا تزيد عن أنها أعمال صالحة، فما يسمونه أخلاقًا وسلوكًا عندهم تسميه الأديان وخاصة الإسلام عملاً صالحًا، واستقامة وإخلاصًا، وما نراه من حضارات متقدمة فى بعض الدول الراقية مثل سويسرا مثلاً سبقها الإسلام إلى ماهو أرقى وأسمى من تلكم الحضارات، فمثلاً ما ينقلونه عن سويسرا من أنه لا توجد بها شرطة ولا أقسام للبوليس لأن كل واحد منهم يعرف واجبه ويؤدى ما عليه ويأخذ ما له فى دقة ونظام، فقلّت تبعًا لذلك الجرائم وغاب المجرمون، هذا النظام العجيب نعتبره نحن فى عصرنا من آيات الحضارة ومن ثمار المدنية، كان موجودًا فى صدر الإسلام فلم يعرف أيام الرسول ولا فى أيام الخلفاء الراشدين محضر للشرطة ولا رجال لها ولم يكن هناك سجون ولا معتقلات وإنما كان هنالك المسجد يدعو إلى الصلاح والإصلاح ويخوف الناس غضب الله وسخطه يرغبهم فى الباقيات الصالحات، فساد تبعًا لذلك الأمن وتمت السكينة وسيطر السلام والوئام، سأل عمر بن عبد العزيز أحد عماله. كيف تركت الناس؟ قال تركت غنيهم موفورًا وفقيرهم مجبورًا، وظالمهم مقهورا ومظلومهم منصورًا، فقال عمر: الحمد لله والله لو لم تتم لأمة محمد هذه الخصال إلا بقطع عضو منى لقطعته طيبة به نفسى.

وهذا هو السر فى أن الله حببها إلى عباده ووعدهم عليها عظيم الأجر وجزيل الثواب، واثنى على عباده الصالحين فى كتابه الكريم فقال سبحانه وتعالى: ﴿**قل الحمد الله وسلام على عباده الذين اصطفى**﴾.

وقال سبحانه متحدثا عن سيدنا سليمان: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ**

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

وقال متحدثًا عن سيدنا يوسف: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

وقال فى حق سيدنا إسحاق ويعقوب ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[3].

وقال فى حق سيدنا لوط: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4].

وقال على لسان سيد الرسل وخاتم الأنبياء، صفوة البشرية وخلاصة الإنسانية، وقدوة البشر سيدنا محمد ﷺ: ﴿إن وليى الله الذى أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾.

ولو أننا ذهبنا لنستوعب الآيات التى أثنت على العمل الصالح ومجدت عباد الله الصالحين لطال بنا الحديث ولكن فيما ذكرناه من كتاب الله الكفاية والغناء إن أراد أن ينهج نهجهم وينسج على منوالهم حتى يصل إلى ما وصلوا إليه من إعظام وإكرام.

قال رجل لسيدنا أبو يزيد البسطامى، دلنى على عمل أتقرب به إلى الله، فقال له أبو يزيد. أحبب أولياء الله الصالحين ليحبوك فالله ينظر إلى قلوبهم من حين إلى حين فلعله أن ينظر إلى قلوبهم يومًا فيجد اسمك فى قلب ولى منهم فيغفر لك ويدخلك فى رحمته، وكثيرًا ما كان يطلب النبى عليه السلام من أصحابه أن يكونوا صالحين، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**بادروا بالأعمال الصالحة فهل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا أو الدجال وهو شر غائب أو الساعة والساعة أدهى وأمر**».

(١) النمل: ١٩ . (٢) يوسف: ١٠١ .
(٣) الأنبياء: ٧٢ . (٤) الأنبياء: ٧٥ .

وكان المجتمع الذى رباه النبى ﷺ ونشأه على عين الله ورعايته تحت ظلال الدين كان كله من الصالحين الأتقيـاء، وكان الصلاح من أبرز سماته، ولذلك لا نعجب كثيراً إذا رأيناهم فتحوا الأقطار وملكوا الأمصار فى مدة وجيزة وفى زمن يسير

لما قدم سيـدنا عمر الشام زائراً أرسل البطريرك رسولاً لينظر له عـمر فرآه يلبس مرقعة بسيطة ويركب ناقة مـتواضعة ليس عليه شىء من مظاهر الأبهة ولا أثر من زينة الحياة الدنيا ورأى رأسـه مكشوفًا للشمس لا يظلله شىء، وبين يديه خبز جاف وإدامه الخل والزيت، فلما عاد إليه رسوله وأخبره بما رآه من شأنه قال له الرجل- وكيف رأيت وجهـه قال: رأيت النور يفيض من قسـماته ويتدفق من ملامـحه عليه سيـما المؤمنين وطابع المتقين، وإمـارات الصالحين الزاهدين، عند ذلك قال الرجل لقومه: لا طاقة لكم به أعطوه ما شاء، فإن الله أخذ عهدا على نفسه أن من أذل الدنيا أعزه الله.

وكانت السيـدة عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليـها جالسة مع أهل بيـتها يومًا فسألها عروة بين الزبير من كـان أحب الناس إلى رسول الله؟ فقالت فاطمة الزهراء، فـقال لهـا عروة أريد من كـان أحب الناس إليه من الرجـال؟ فقـالت زوجها. تعنى سيـدنا على بن أبى طالب فوالله لقد كان صوامًـا قوامًا يخاف الله ويخـشاه ويذكـره ولا ينسـاه، وأشهـد إنى سـألت رسول الله عن سـؤالك هذا فأجابنى بمثل مـا أجبتك، فقال لها عـروة يا أم المؤمنين إذا كانت هذه منزلة على من رسول الله وتلك مكانته من الصالحين فما الذى حملك على بغضه ومحاربته فبكت طويلاً حتى شرقت بدموعها وقالت ذلك أمر قضاه الله على ولا حيلة لى فيه، وما زلت أصوم وأقوم طمعا فى رحمة الله أن يكفر عنى ما كان.

كانت هذه شهادة أم المؤمنين، أما ضـرار بن الأزور فقد وصفه بما هو أهله وقال فيه كلمة الحق عند من يرجو نواله ويخاف سلطانه، دخل يوما على معاوية ابن أبى سفيان وهو فى إبان عظمته وعنفـوان دولته وقد استقرت له الأمور ودان المسلمون له وليس له فى دولته منازع ولا خصوم، فلمـا استقر بضرار المقام قال

له معاوية: يا ضرار. صف لى على بن أبـى طالب، فقال له أعفنى من ذلك يا أمير المؤمنين فقال عزمت عليك إلا وصفته لى فقال ضرار يصف عليًا:

كان والله يا أمير المؤمنين بعيد المدى شديد الـقوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحـيه، كان يستـوحش من الدنيا وزهرتها ويسـتأنس بالليل وظلمته، كان والله طويل الفكرة غـزير العبرة يقلب كفه ويحاسب نفسـه يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ماخـشن، كان يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن مع تقـريبه لنا وقـربه منا لا نكاد نكلمه هيـبة له، كـان يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع قوى فى باطله ولا ييأس ضعيف من عدله وأشهد الله أنى قد رأيته وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجـومه واقفا فى محرابه يبكى بكاء الخائفين ويتململ تملـمل المحزونين فكأنى أسمعه وهو يخـاطب الدنيا ويقول: يا دنيا إلى تعرضت أم إلى تشـوقت هيهات هيهات غرى غـيرى قد أبنتك ثلاثًا لا رجعة فيـها فعمرك قصيـر وعيشك حقير، وخطرك كبـير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

فلما سمع قوله معاوية فاضت دموعه وعلا أنينه وقال: رحم الله أبا الحسن لقد كـان كذلك وأكـثر من ذلك يا ضـرار ولكن قاتل الله الدنيا، كـم تفرق بين الأخ وأخيه وكم تباعد بين الولد وأبيه، ثم قال يا ضرار كيف حزنك على على؟ قال: حزن من ذبح وحـيدها فى حجرها لا ترقـأ لها دمعة ولا تسكن لـها لوعة ولا تنتهى لها حيرة.

ومما يدل على أن عليًـا رضى الله عنه كـان له قـدم راسخـة فى الصـلاح والتقى أن معاوية كان يخشاه حـتى بعد موته، وكان يرهب ذكره وهو داخل قبره وكثيرا ما استبد به الحقد عليه وتملكه الغيظ بعد قتله لكثرة حب الناس له وثنائهم عليه وإجلالهم إياه.

قالوا إن معاوية كان جالسًا مع قومـه وخاصته يوما فدخل عليهم رجل من ضعفاء الإيمان عـشاق المنفعة طلاب الدنيا بالدين، فلما أخـذ مجلسه جعل يلعن سـيدنا علـيا وينال من عـرضـه وشرفـه، وكـان الأحنف بن قيـس جالسًـا بين

الحاضرين فلم يعجبه من الرجل قوله وجـرأته على على فوجد فى نفسه من قوة الإيمان مـا يحمله على قـول الحق فى حـينه، فنظر إلى مـعاوية وقـال يا أميـر المؤمنين- إن هذا الرجل وأمـثـاله لو علم أن رضاك فى لـعن المرسلين والأنبيـاء للعنهم فاتقِ الله ودع منك عليًـا فقد لقى ربه وأفرد فى قبـره وخلى بعمله وكان والله مبرزًا فى سبقه طاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة، فاشتد غيظ معاوية وظهر غضبه على الأحنف وقال يزجره ويتـوعده لقد أغضبت العين على القذى وأطبقت الضلوع على جـمر الغضى، وأبديت من حبك لعلى وتعظـيمك له ما كان خفيًا علينا، أما والله لتصعدن المنبر وتلعنه طوعًا أو كرهًا، فقال الأحنف: يا أميـر المؤمنين. إن القلوب التى أبغضناك بها لا زالت بين جنوبنا، وإن السـيوف التى حاربناك بها ما زالت فوق أكـتافنا ولأن تحنث فى يمينك وتكفر عنه خير لى ولك من أن ترغمنى على هذا فـاعفنى من لعن على فقال لابد من لعـنة الساعة على رءوس الأشهـاد، فقـال الأحنف: والله لو أرغمتنى علـى هذا لا تجدنى به شقيًـا أبدًا، فخاف معـاوية واهتز من قوله، وقال له فمـا أنت قائل يا أحنف إذا صعدت المنبر، قال أحمـد الله وأثنى على رسوله وآل بيته الطاهرين الأكرمين ثم أقول أيها المسلمون: إن مـعاوية وعليًا اقتتلا واختلفا وادعى كل منهـما أنه مبغى عليـه اللهم فالعن أنت وأنبـياؤك ومـلائكتك وسائر خلقك البـاغى منهمـا على صاحبه، ثم أقول أمنوا يرحمكم الله، ووالله لا أزيد على هذا أو أنقص ولو كان فى ذلك ذهاب نفـسى وسفك دمى، فخنـس معاوية وخـاف العاقـبة وثاب إلى رشده ورجع إلى حلمه وقال للأحنف إذن نعفيك يا أبا بحر.

وأخبـار الصالحين كثيـرة وقصصهم شـهيرة ولكنهـا تشهد بفضـيلة العمل الصـالح وأثر الطاعـة والعـبادة فى قلب الإنسـان، وسلوكـه، قـال إبراهيم بن مخزمـة، قصدت رجلاً من أهل البيت المعـروفين بالكرم والجود لأنال من فضله شيـئا وأظفـر من سخائه بنصـيب، فوجـدت على بابه حاجبًـا يدفع الناس عنه ويحول بينهم وبين لقائه، فمنعنى من الدخـول عليه وقال: والله ما أوقفنى على بابه هذا الموقف إلا لأمنعك أنـت وأمثـالك لا بخلاً مـنه ولا شحًـا بماله ولكن لقصور يده ورقة حاله، قال الرجل فلم يقنعنى قول الحاجب وقلت أحتال لنفسى

حتى أبلغه حاجتى، فدسست إليه هذا البيت مع أحد خدمه وكتبته فى رقعة بعثت إليه بها وكان هذا البيت:

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم

فأرسل إلى مع خادمه رقعة مكتوب فيها هذا البيت جوابا على بيتى:

إذا كان الكريم قليل مال تحرز بالحجاب عن الغريم

ثم عاد الخادم ومعه كيس فيه ألف دينار، قال الرجل فأخذتها فرحًا مسرورًا وحمدت الله على نجح سعيى وبلوغ أملى وقلت والله لأتحفن أمير المؤمنين المأمون بهذه القصة، فلما رآنى قال من أين يا إبراهيم؟

فقلت من عند رجل هو من أكرم الناس يدًا وأسخاهم كفًا حاشا أمير المؤمنين، فقال الخليفة ومن هو يا ترى؟ فأخرجت له الرقعة التى بها الشعر والصرة التى بها المال وقصصت عليه القصة كما وقعت، فلما تأمل المأمون الصرة والخاتم الذى عليها قال: إن هذه الدنانير من بيت المال ولابد من إحضار الرجل إلى مجلسى الساعة قال إبراهيم فتوسلت إليه ألا نزعجه بسلطانك ولاترهبه بأعوانك، فبعث إليه أحد خاصته، فلما حضر إلى مجلسه قال له المأمون يا هذا- ألست الذى شكوت لنا حالك بالأمس وذكرت لنا فقرك فدفعنا إليك هذا المال، فقصدك هذا الرجل ببيت من الشعر فدفعت الكيس- مختومًا إليه، فقال الرجل نعم يا أمير المؤمنين ووالله ما كذبتك فيما شكوت لك ولكننى استحييت من الله أن أعيد قاصدى إلا كما أعادنى أمير المؤمنين ولقد قصدت بذلك وجه الله وقلت فى نفسى لعله أشد احتياجًا منى، ولعل وراءه أولادًا يتضورون جوعًا أو نساءً يتوارين عريًا، فاعتدل المأمون فى جلسته وقال: للعلوى: لله أنت وما ولدت العرب أكرم منك، ثم أمر له بألفين من الدنانير وجعله من خاصته المقربين.

ومن أعجب ما جاء فى أخبار الصالحين وما رواه الحافظ أبو نعيم فى كتاب الحلية فى سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال رحمه الله، كتب

عمـر بن الخطاب إلى أهل حمص بالشام كـتابًا يأمرهم فـيه أن يكتبوا له أسـماء الفقراء عندهم ليـعطيهم من بيت مال المسلمين، فكتـبوا إليه قائمة طويلة وفـيها أسماء كثير من الفقراء وكان من بين هذه الأسماء اسم حاكمهم (سعيد بن عامر) فلما وقعت عليه عين سـيدنا عمر تعجب أن يكون عاملهم فقيـرا، فلما ناقشهم فى ذلك قالوا له إنه ينفق كل راتبه علـى الفقراء ويقول ماذا افعل وقـد أصبحوا فى حسابى وإنى مسـئول عنهم أمام الله وقد أضاعنى عمر، فقـال عمر والله ما أضعناه ولكنه أجهدنا معه، ثم سألهم عمـر عن سيرته فيهم ومعاملته لهم قائلا: هل تعيـبون عليـه شيئًـا يا أهل حمص؟ فقـالوا جميـعًا نعم، نعـيب عليه أربع خصال، فقال لهم مـا هي؟ قالوا إنه لا يخرج إلينا إلا ضحى ولا نراه ليلاً أبدًا، ويحتجب عنا يومًا كاملاً فى الشهر ويغمى عليه من حين إلى حين.

فسأله عـمر عن هذه العيوب وهل عنده جـواب فيها أو دفاع عنهـا، فقال سعـيد رحـمه الله: كل هذا حق يا أمـير المؤمنين- أمـا أنى لا أخرج إليـهم إلا ضحى فإنى لا أخرج إليـهم حتى أفرغ من حاجة أهلى وخدمـتهم فإنى لا خادم لى، وأما احتجـابى عنهم بالليل. فإنى جعلت النهار لقضـاء حوائجهم وجعلت الليل لعبادة ربى أؤدى حقه فيه، وأما اليـوم الذى احتجب عنهم فإنى أغسل فيه ثوبى لا أملك إلا ثوبًا واحدًا، وأما الإغماء الذى يعترينى بين الحين والحين فإنى كلما تذكـرت الشهيد (خـبيب بن عدى) وما حـدث له فى مكة على يد الكفار والمشركين وأنا يومـئذ كافر أخذنى الخـزى وأوجعنى الندم أنى لم أدافع عنه ولم أستطع تخليصه مما هو فيه وأتمنى لو كنت آن ذاك مسلما فأخلصه أو أموت معه، فأثار قـوله أشجان عمـر فجعل يبكى من قـوله ليس لى خادم وزوجتى مـريضة وليس لى إلا ثوب واحد وقـد أعطاه سيدنا عمـر مالاً فلم ينصرف من مـجلسه حتى وزعه على الفقراء والمساكين. .

هؤلاء يا أخى هم رجـال الإسلام الذين بنوا صـرحه عـاليًا وأقامـوا ركنه شامخًا، بصلاح أعمالهم وسلامـة قلوبهم وطهارة نفوسهم، كيف لا وقد شربوا من هذا المعين التقى، وارتـووا من أصفى منهل وتربوا فى مدرسـة الإسلام على خير أستاذ، وتذوقوا حلاوة الإيمان وأخذوا عن الرسول ﷺ قوله:

«ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله تعالى وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً».

قالوا إن النبيﷺ خطب أصحابه يومًا فى مرضه الذى مات فيه فقال: **«أيها المسلمون. من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى، ومن كنت أخذت منه مالاً فهذا مالى فليأخذه منه، ولا يقل أحد منكم فى نفسه إنى أخشى الشحناء من قبل رسول الله فإن الشحناء ليست من طبيعتى ولا من شأنى، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ حقًا كان له عندى أو حللنى منه فلقيت الله وأنا طيب النفس»** فلما فرغ من خطبته قام إليه رجل من الحاضرين وقال يا رسول الله لى عندك ثلاثة دراهم فأقبل عليه النبى بوجهه وقال: **«أما إنى لا أكذب أحداً ولا أستحلفه ولكنى أسألك: كيف صارت لك عندى هذه الدراهم»**، فقال الرجل فى جرأة وصراحة: يا رسول الله مر بك مسكين فأمرتنى أن أدفعها إليه فصدقه النبى فى دعواه والتفت إلى الفضل ابن عباس وقال له: **«ادفع إليه ماله»** فدفعها إليه سيدنا الفضل.

فانظر يا أخى كيف حرص النبى حتى آخر لحظة من حياته على العمل الصالح والإكثار منه حتى يلقى ربه طاهراً مطهراً وراضيًا مرضيًا، ولا عجب بعد ذلك إذا رأيناه بنى فى فترة قصيرة نفوسًا عاشت فى الجاهلية وتربت فى أحضان الوثنية فصنع منهم رجالاً أشداء وخلق منهم أبطالاً أقوياء، قهروا أنفسهم قبل أن يقهروا عدوهم وانتصروا على شيطانهم قبل أن ينتصروا على خصومهم، وحاربوا أهواءهم وغرائزهم قبل أن يحاربوا الكفار والمشركين.

خرج مسلمة بن قتيبة ليفتح بلدة من بلاد فارس فلما دخلها اعتصم الكفار وراء حصن منيع وجعلوا يرمون المسلمين من ورائه وكانوا يملكون سلاحًا لا يملكه المسلمون، فاستشار مسلمة عقلاء الجيش فى أمرهم، فقال رجل من المسلمين، أنا استطيع أن أفعل شيئًا، فقالوا له وما ذاك قال سوف ترون الليلة، فلما أسبل الليل ستره ولف الظلام كونه أخذ الرجل يعمل فى جدار الحصن وحده والجميع نيام، فلم يطلع الفجر حتى نقب فيه نقبًا استطاع المسلمون أن

يتسللوا منه إلى داخل الحصن ففتحوا بابه للجيش فهجم المسلمون على الأعداء فأصلوهم النار الحامية وأنزلوا بهم شر هزيمة، فلما تم للمسلمين النصر والظفر قال مسلمة لأصحابه، من صاحب النقب فيكم؟

فلم يجبه أحد، فأمر من ينادى فى الجيش إن الأمير يقسم على صاحب النقب أن يحضر إلى خيمته، فلما كان الليل استأذن رجل عليه وقال: أيد الله الأمير إن صاحب النقب يشترط عليكم شروطًا ثلاثة إن شئتم أن تروه فقال مسلمة: وما هذه الشروط يرحمك الله؟ وقد أجرى الله نصرنا على يديه، فقال الرجل إنه يشترط عليكم ألا تسألوه عن اسمه وألا تخصوه بشىء من الغنائم وألا تبلغوا عنه الخليفة فى كتاب. فقال مسلمة حبا فى معرفته وحرصًا على لقائه، وله كل ما أراد فأين هو؟ قال: هأنا ذاك أيها الأمير، ثم كر راجعًا من حيث جاء حتى دخل فى غمار الجيش، فكان مسلمة يتعجب من صلاحه ومن ثقته بنفسه وإخلاصه لدينه وربه، وكان إذا صلى بعد ذلك قال:

اللهم احشرنى مع صاحب النقب فإنه من خيرة الصالحين المخلصين..

وقالوا إن سيدنا عمر رضى الله عنه لما حضرته الوفاة جعل يبكى وينتحب من خشية الله وكان سيدنا عبدالله بن عباس جالسًا عند رأسه فجعل يهون عليه أمره ويقول له -يا أمير المؤمنين- أوتبكى خوفًا من الموت، قال لا والله يا ابن أخى ما أبكى خوفًا من الموت ولكن كما قال أبو ذؤيب الهزلى:

وما بى حذار الموت إنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

فقال ابن عباس. أو مثلك يخشى ذنبه وقد عشت عمرك من خير إلى خير ومن صلاح إلى إصلاح؟ فقال عمر: سامحك الله يا ابن عباس وهل هناك مؤمن صادق الإيمان ويأمن مكر الله، قال يا أمير المؤمنين إنك فتحت الفتوح ومصرت الأمصار وهاجرت علانية فى سبيل الله وشهدت المشاهد كلها ومات رسول الله وهو عنك راض وقد رزقك الله الشهادة تحقيقًا لرجائك وإجابة لدعائك فأى ذنب عملت؟ فقال عمر: ليتنى أنجو منها لا على ولا لى وأنشد:

فإن تنج منها تنج من ذى عظمة — وإلا فـإنى لا إخالك ناجـيًا

فما أجمل العـمل الصالح مع الإيمان بالله والاستقامة الـتامة فى كل أمور الحياة!! وهذا هو ثمن الجنة التى ينشدها الصـالحون من عباد الله والذين وعدهم الله بها فى قوله:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقامـوا تتنـزل عليهـم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾.

ورحم الله الإمام الشافعى فقد كان يقول فى مدح عباد الله الصالحين:

إن لله عبـــادًا فطـــــنا — طلقوا الدنيا وخافوا الفــتـنـا

نظــروا فيـها فلـما علمـوا — أنهــا ليســت لحى وطـــنا

جعلـوها لجـــة واتخـــذوا — صـــالح الأعمـال فيها سفنا

رزقنا الله العمل الصالح ووفقنا جميعًا إلى كل ما يحبه ويرضاه.

فى فضل المعروف وما فيه

المعروف كلمة جامعة، ولفظ شامل ينطوى تحته معان دينية جليلة، ويستكن بين حروفه مقاصد إسلامية شريفة، فهو يشبه ما يستخدمه الإسلام من كلمات عامة كلفظ البر، وكلمة الإحسان، والأمانة، والصلاح وغيرها من الألفاظ الواسعة الدلالة على معانى الخير، وسبل الهداية، وأغراض الإصلاح والصلاح.

وقد استخدمه القرآن الكريم فى أغراض شتى فى مواضع كثيرة من أهدافه العالية، ومراميه النبيلة. فهو إذا أراد التلطف بالفقير عند سؤاله لأصحاب الأموال وخاف أن يمنوا بعطيتهم، أو يؤذوا الفقير بكلامهم أخبرهم أن رد السائل بقول المعروف، ومنعه بالحسنى خير من إعطائه والمن عليه، وإيذائه بالكلام الجارح والقول البذىء فيقول سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾(١).

وإذا أراد أن يصلح من شأن الزوجين المتنازعين على إنهاء العدة وعدم إنهائها. دعاهما أن يتراضيا بالمعروف، وإذا تحدث عن مصير الابن بعد افتراق أبويه وإلى من تكون حضانته؟ وعلى من يكون أجر رضاعه؟ ومن المكلف بطعامه وكسائه؟ اخبر أن ذلك على الأب المولود له بالمعروف فيقول سبحانه: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٢).

وإذا أراد أن يحض المسلمين على نشر دينهم وإحياء تعاليمه، وتطهير أمتهم من الشرور والمفاسد، والذنوب والموبقات، طلب إلى القائمين بالدعوة إلى الله أن يكون ذلك بالمعروف.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٣).

---

(١) البقرة: ٢٦٣ . (٢) البقرة: ٢٣٣ . (٣) آل عمران: ١١٠ .

ويقول العلماء: إن معنى المعروف فى كل هذه المواضع إنه هو الخلق المتعارف عليه بين الناس بأنه جميل مستحسن فكل ما اتفقوا بينهم على أنه مرضى عنه، وأنه شىء محمود العاقبة فهو من المعروف، ونزيد هذا المعنى وضوحا وجلاء: إن المعروف إلى جانب ذلك كله، خلق كريم، وشعور نبيل يحبب صاحبه إلى الناس، ويبنى له فى نفوسهم منزلة طيبة، ومقامًا مرموقًا تحبط به الهيبة والخشية، وتكتنفه المحبة والألفة، وتجعله عندهم شيئًا نافعًا، وشخصًا محبوبًا. ورحم الله ذلك القائل الذى كان يقول:

ولم أر كالمعروف أما مذاقه ... فحلو وأما وجهه فجميل

ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكأ».

يقصد ﷺ بذلك أن صانع المعروف أحباؤه كثيرون، وأولياء نعمة متعددون. فإذا أصابه ضير، أو نزل به فقر، أو مسه سوء أو مكروه أقبل عليه أحباؤه الذين اصطنعهم بمعروفه، وأوسع عليهم بنعمته، وشفع لهم بجاهه فأنقذوه مما هو فيه، وقد كان الرسول ﷺ يحض أصحابه، ويوصى أمته أن يقابلوا المعروف بالترحاب، ويشكروا صاحبه عليه حاضرًا ويترقبوا فرصة سانحة ليكافئوه على معروفه حتى تظل شجرة الحب بينهم مورقة، وثمارها دانية، وظلالها متجددة ممدودة فلا يتقاطعون، ولا يتدابرون،. ولا يتهم بعضهم بعضًا بالنكران والكفران، والجحود والنسيان فاستمع إليه وهو يقول:

«ومن أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له ومن أعطى عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحل بما لم يعط كان كلابس ثوب زور، ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

وفى الحديث القدسى عن الله عز وجل أنه قال:

«عبدى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه». وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن هذا الخير خزائن، وإن لتلك الخزائن مفاتيح فطوبى لمن جعله الله مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر».

وجاء أنه ﷺ التقى بأصحابه يومًا فجعل يسألهم عن فعل الخير فقال لهم من أشبع منكم اليوم جائعًا؟ فقال سيدنا أبو بكر: أنا. فقال النبى: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» فقال الصديق: أنا، فقال: «من شيع جنازة إلى قبرها؟» فقال الصديق: أنا. فقال: ومن عاد منكم اليوم مريضا ابتغاء وجه الله؟ فقال الصديق: أنا. فقال النبى: «من فعل معروفًا فى أخيه المسلم وقضى له حاجة حبًا فى وجه الله؟» فقال الصديق: أنا فقال النبىﷺ: «والذى نفسى بيده ما اجتمعت هذه الخصال فى رجل إلا أدخله الله الجنة، وأمنه من عذاب النار».

وقال ﷺ: «أربع من كان فيه نشر الله عليه كنفه، وأدخله جنته، رفق بالضعيف، وشفقة على اليتيم، وإحسان إلى المملوك، واصطناع معروف حبًا فى الله».

وقد سألت أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ألنا فيما يسأله الجيران من معونة كطلب الملح والماء والنار خير. فقال لها ﷺ: «يا عائشة إن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة، أو ما تعلمين أن من تصدق بملح فكإنما تصدق بجميع ما أصلحه ذلك الملح، ومن تصدق بنار كأنما تصدق بجميع ما أنضجته هذه النار، ومن تصدق بماء فكأنما تصدق بجميع ما صنعه ذلك الماء».

ورحم الله ذلك الشاعر الذى كان يقول:

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها شكور أو كفور

ففى شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما جحد الكفور

وهذا المعنى الأخير مأخوذ من قول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ

اللّه لا نُرِيدُ منكُمْ جَـزَاءً وَلا شُكُـورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَـافُ من رَّبِّـنَا يَـوْمًا عَبُـوسًا قَمْطَـرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾[1].

وجاء فى كتب التاريخ أن وزير المهدى واسمه سوار كان محبًا لفعل الخير، مغرما باصطناع المعـروف، وكان أمير المؤمنين الخليفة العباسى يحـبه كثيرا ويأنس إليه، ويتوسم فيه حب الخير وقضاء الحـوائج للناس. وقد وقعت له قصة عجيبة تدل على مبلغ حبه للخير، وحرصه على اصطناع المعروف، وإسداء الجميل حتى لمن لم يعرفـهم فقـال: انصرفت من عند الخليـفة إلى منزلى لأستـريح من عناء العمل وأعباء الوزارة فلما استقر بى المـقام فى بيتى دعوت بطعام فأحضروه لى، وكان أشهى ما يكون طعامًا وأحدث مـا يكون فاكهة فلم تقبل على المائدة نفسى فرفعوا المائدة، وأمـرت بالغناء فجاءت جارية حسناء كنت أحبـها وكانت تسكن نفسى إلى سمـاعها ورؤية وجهـها ولكن لم تطب نفسى برؤيتهـا فانصرفت إلى مخدعى أنشد الراحـة وابتغى النوم فكأنما كان بكل شبر منه مـدية، أو كما يقول القائل يصف فراشًا قلقًا لايطمئن صاحبه إليه:

رشقت به فى كل جنب مدية[1] وانساب فيه بكل ركن أرقم[2]

فلما جـفانى النوم، وأخـذنى القلق هتفت بسـائس الخيل فأعـد لى جوادًا فارهًا فركبته وانطلقت إلى جهة مبهمة لا أعلمها، واتفق أن قابلنى وكيلى القائم على شئونى. وكـان معه مال كثير لى يزيـد على ألف دينار فلما رأيته قلت له: اتبعنى، فإن نفسى قد أخذها الملل. فانطلقنا معًا إلى غير جهة معلومة، ومازلت أسعى ويسعى معى الوكيل حتى انتهينا إلى قصر عظيم وكان العطش قد نال منى كل منال، فملت إلى هذا القـصر فاستـسقيتـهم فسقونى من قلة نظيـفة وهم لا يعرفوننى وكان قريبًـا من هذا القصر مسجد مأموم فقصـدته لأصلى فيه العصر. وبينما أنا فى طريقى إليه أبصرت رجلاً أعمى يتلمس الطريق إلى المسجد فأخذت بيـده، فلما دخلنا المـسجـد قلت له يا أخى ألك حـاجة؟ قـال: نعم، لى إليك

---

(١) الإنسان: ٩-١١ . (٢) المدية: هى السكين الحامية.

(٣) والأرقم: هو الثعبان وهما كناية عن شدة القلق.

حاجة ماسة وقـد يقضيها الله على يديك. فقلت: وما حـاجتك؟ فقال الرجل- وكان ذكـيًا لبـيبًـا، وفطنا أريبا: يا سـيدى إن ريحك طـيب، ومروءتك حـية، وروحك شفاف فظننتك من أهل النعمة فـأردت أن أحدثك بحاجتى، فشرح الله صدرى لسماع حديثه، وأيقنت أن الله قد اختارنى لشىء أراده لى، وجندنى له.
فقال الـرجل المكفوف وهو يشير إلى جـهة القصر: يا سـيدى ألا ترى باب هذا القصر؟ فقال له: نعم، وما شأنك به؟ فقال: إنه كان مملوكًا لأبى فباعه ثم خرج إلى (خراسان) وكنت معه، ومكثنا بها زمنًا حتى زالت عنا النعمة التى كنا نتمتع بها. وبعـد أيام مات أبى، وذهب بصـرى فعـدت إلى (بغداد) وجـئت صاحب القصر أسـأله شيئا من نعـمته أستعين به على أمـرى، وأتوصل بفضله إلى وزير الخليفة (سوار) لأسأله معروفـه فإنه كان صديقًا لأبى. قال الوزير: فدهشت من قوله، وقلت له: ومن أبوك يا أخى؟ فـقال: أبى فلان. فـعرفته. فـإذا هو كان صديـقًا لى حقًـا وكان من أحب الـناس إلى فأقـبلت على الرجل وقلت له: يا أخى، وإن الله قد أتاك بسوار حتى أجلسه بين يديك، وقد منعه الطعام والغناء، والنوم والراحة حتى جاء به إليك، ثم التـفت إلى وكيلى فأخذت منه المال الذى كان معه فدفعتـه إلى الرجل ثم قلت له: إذا كان الغد فأتنا أعطيك كل ما تريد.
ثم قـمت إلى صلاتى، وعـدت مع وكيلى من حـيث جئنا، وقلت فى نفـسى: والله ما أحـدث الخليـفة بأعـجب ولا أروع من هذا، فلما دخلت عليـه حدثـته بالقصة فطابت نفسه بهـا، وسر قلبه بسماعها، وأجازنى بمال أضعـاف ما دفعته لصاحبى فلما كان الغد جـاء الرجل فاستأذن على فأذنت له. ثم قلت له: يا ابن أخى أعليك دين؟ قال: نعـم خمسة آلاف درهم فـدفعتـها إليه. وعلم الخليـفة بمقدمه فأعطاه عشرة آلاف. وأمر لى بمثل عطائه مكافئة على معروفى فقلت له يا ابن أخى إن الله قد كـافأنى على معروفى إليـك. وإنى أهبك كل ما وصلنى من أمير المؤمنين. فخرج الرجل من عندى، ولسـانه يلهج بالثناء والدعاء، فترحمت على أبيه وجعلت أنشد هذا البيت:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخـرًا يكون كصـالح الأعمـال

وقالوا: إن «الحجاج» لما قبض على «يزيد بن المهلب» عذبه عذابًا شديدًا حتى أضر به وكاد يهلك داخل السجن فلما رأى نفسه مشرفا على الموت أوعز إلى السجان أن يفر معه إلى «سليمان بن عبد الملك» فى «الشام» وكان «سليمان» آنذاك لم يل الخلافة إلا أنه كان الخليفة المنتظر أى إنه ولى العهد. وكان الخليفة يومئذ «الوليد بن عبد الملك» فلما دخل «يزيد» على «سليمان» أكرمه وأحسن إليه، وأخذ يواسيه ويلاطفه إلا أن «الحجاج» لما علم بفراره مع السجان وبلغه أنه قد استجار بسليمان كتب إلى الخليفة «الوليد» بما حدث، ورجاه أن يأمر «سليمان» بإعادة «يزيد» إلى السجن. وقال له تأدبًا معه فى رجائه لكى يبقيه أميرًا على العراق: وأنت يا أمير المؤمنين بعد ذلك كله أعلى منى رأيًا. وأبعد منى نظرًا، وأعرف بعواقب الأمور، فأعجب «الوليد» بأدبه وكتب إلى أخيه «سليمان» أن يرد «يزيد» إلى السجن حفاظًا على سلامة السياسة. وإبقاء على هيبة الدولة وإلا فسدت الأمور وكان «سليمان» من أهل المعروف، ومن عشاق الخير، فرد على الخليفة يقول: يا أمير المؤمنين، إنى لم أجره لأفسد عليكم سياستكم ولكن لأنه هو وأهله من صنائعنا، وقد عذبه «الحجاج» حتى أضر به، وقد استجار بى فأجرته، لا تهاونًا بك، ولا جرأة عليك فإن رأيت ألا تخزينى فى ضيفى فافعل، فأنت أهل الفضل والمعروف.

فكتب إليه «الوليد» لابد من إرساله مكبلاً. وهنا تتجلى شهامة «سليمان» ومروءته، وحرصه على اصطناع المعروف وإسداء الجميل فى أحرج الأوقات وأضيق الظروف والأحوال.

أترون ماذا فعل بيزيد وقد ألح الخليفة فى إحضاره مكبلاً، لقد أحضر «سليمان» ولده «أيوب» ولم يكن له ابن سواه. فقيده ثم قيد «يزيد» وشد وثاق كل منهما إلى صاحبه ثم بعث بهما معا إلى «الوليد» وكتب مع الرسول الذى أوفدهما فى حراسته كتابًا إلى الخليفة قال فيه. بعد الديباجة أما بعد: فقد وجهت إليك «يزيد» ومعه فى وثاق واحد ابن أخيك ووحيده «أيوب» وقد هممت -أعزك الله- أن أكون الثالث موثقًا. فإن رأيت أن تقتل «يزيد» فابدأ بابنى. والسلام على أمير المؤمنين.

فما دخل الرجـلان مكبلين على الخليفة أطرق برأسه حيـاء، وعلت وجهه حمـرة الخجل وقـال لمن حوله من الأعـوان والجلساء: والله لقد أسـأنا إلى أبى أيوب وشـققنا عليـه وكلفناه ما لا يطيـق، إذ بلغنا به إلى هذا الحد. فلمـا أنس «يزيد» بقولـه: اطمأنت نفســه إلى طلب العفـو والصفح. وهم بالكلام. فـقال الوليـد: لا تتكلم يا يزيد. الموقف لا يـحتـاج إلى كـلام ولسـان حالك أصـدق وأنطق. قـد علمنا ذنبك، وقبلـنا عذرك، وعـفونا عنك، ثم أمـر بإزالة القيـد عنهمـا، وطيب خاطرهما بـجائزة أموية، ثم أمـر كاتبه أن يكتب إلى الحـجاج يحذره ألا يـتعرض «لآل المهلب» ولا سـيمـا «يزيد»- فكتب إليه يقـول له على لسان الخليفة: لا سبـيل لك على يزيد وآل يزيد ورجع «يزيد» إلى «سليمان» مع ابنه «أيوب» فكان عنده يتقلب فى نعمـته ويعيش فى صحبتـه حتى مات، فكان الناس يتحدثون بصنيـعة سليمان إلى يزيد وأنه أسدى إليه معـروفًا لا يقدر عليه غيره ولا ينهض به سواه.

وأعجب من ذلك ما روته كتب الأدب مـن أن رجلاً من أولاد سيدنا على ومن شيـعتـه وأحبـائه كان أيام أبى جـعفر المنصـور. وبلغ المنصور عنـه وشاية أغضبت قلبـه عليه. فجعل لمن يأت به أو يدل عليـه جائزة ثمينة قدرها خـمسة آلاف دينار فلما بلغ العلوى ذلك بالغ فى التخفى والهرب. وبينما هو فى طريقه إلى مخبئه إذ فطن إليه جندى ذكى فعرفـه وقبض عليه وقال: طلبة أمير المؤمنين وحاجته وقد ظفرت بالجائزة ورب الكعبة. فأخذه ومضى إلى قصر الخلافة، فمرا فى طريقهـما على «معن بن زائدة» الجواد المشـهور والذى قال فيه الـشاعر يرثى كرمه، ويبكى فضله وجوده.

ولما مضى معن مضى الجود وانقضى   وأصـبح عرنين المكـارم أجـدعـا
فيـا قبـر مـعن كيف واريت جـوده   وقـد كان منه البر والبـحر متـرعـا

إلى آخر ما قال فى تعـداد مناقبه، فلما وقعت عليه عـين العلوى استجار بجاهه واستغاث بمعروفه فأسرع إلى الجندى وقال له: دع عنك هذا فهو فى ذمتى وجوارى. فـغضب الجندى على «مـعن». وقال له: يا سيـدى، هذه طلبة أمـير المؤمنين، فلا تحل بينى وبينه وإلا أخبرت الخليفة بهـذا. فقال «معن»: أنا معكما

إلى أميـر المؤمنين فلما دخلوا على الخـليفة حـدثه الجندى بفعل «مـعن» وأنه قد تعرض له، فقال الخليفة مغضبا، أو تجير علينا يا «معن»؟! وتؤوى أعداءنا. فقال «معن»: نعم يا أمـير المؤمنين أجـير عليك فاشـتد غضب الخـليفة عليـه. وقال: ويحك يا «معن» ما الذى تقول؟! فقال: «مـعن» مهلاً يا أمير المؤمنين، والله لقد قتلت فى يوم واحد فى سبيل طاعتك ثلاثة آلاف فضلاً عن غيره من الأيام. أفلا ترونى أهلا لأنى أجير رجلاً واحـدًا استجار بى والتجأ إلى فـسرى عن الخليفة، وسكنت ثورته، واستحيا من «مـعن» وقال: لقد أجرنا من أجرت وتخلينا عنه. فقال «معن»: يا أمير المؤمنين: إن رأيت أن تصل رجـلاً استجار بى، وتحسن إليه فافـعل فتكون قـد أجرته وأحـبك. فأمـر له بعشرة آلاف درهم فـلما رأى ذلك «معن» أمر للعلوى بتسعـة آلاف وقال: والله لا تكون صلتى إليك أكثر من صلة الخليفـة. فإن جوائز الخلفـاء على قدر جنايات الرعـية، فلما أخـذ المال قال له «معـن»: يا هذا لا تتعـرض لمساخط الخلفـاء، فولى العـلوى وهو يلهج بالثناء عليه، والـدعاء له، ويقول: جـزاك الله عن معـروفك وإحسانك إلـى آل نبيك أحسن ما جازى به عباده الصالحين.

وجاء فى كـتب الأدب أن الإسكندر المقدونى لما غزا بلاد الشـرق، وانتهى فى غزوه إلى بلاد الصين وأراد دخـولها دخل عليه حـاجبه وقـال له: إن رسول ملك الصين بالباب. وهو يستأذن عليك، وكان الإسكندر حكيمًا لبيبًا. فأذن له. وكان جالسًا فى جمع من وجهـاء دولته. وعظماء قادته فقال له رجل الصين: يا هذا، إن رأيت أن تخلى مـجلسك لأكـلمك فى أمـر مهـم فافـعل. فـصـرف الإسكندر كل رجاله وجلسائه إلا حاجبه خوفًا من أن تكون هنالك خيانة أو غدوٌ ولكن الرجل الصـينى لم يرض ببقاء أحـد معهـما وقال للإسكـندر: أيها الملك العظيم، إن مـا جـئت به من الأسـرار لا يجوز أن يطلع عـليه غـيـرك. فأمـر الإسكندر بتـفتـيشـه قـبل أن يصرف الحـاجب. فلم يجـدوا معـه شيـئًا فـأمن «الإسكندر» شره فصرف الحاجب. ثم وضع أمامـه سيفًا فوق منضدته. وجلس متـيقظا أمامـه. فلما تمت الخلوة بينهـما قال له: أيهـا الرجل العظيم. إنى ملك الصين نفسه ولست برسوله كما زعمت لك، وقد جئت إليك أسألك وأناقشك،

وابتغى عندك المعروف لى ولك، وأنشد عندك الحكمة. وبعد النظر وأسألك عما تريده من غزوك هذا لبلاد الصين فإن كان من الممكن تحقيقه أجبناك إليه وحققنا لك كل أمل ورجاء ولو على أصعب الوجوه، وأغنيناك عن الحرب وسفك الدماء وأمنا بلادنا وشعبنا من الخراب والدمار. فتعجب «الإسكندر» من حكمته وفطنته، بقدر ما تعجب من شجاعته وجرأته وقال له: كيف أمنتنى على نفسك، وخاطرت بشخصك بين رجال جيشى، وعظماء ملكى؟! فقال له ملك الصين: حملنى على هذا ثقتى بعقلك، ويقينى بأنك لبيب أريب ولم يكن بيننا عداوة سابقة ولو أنك قتلتنى أقام شعب الصين غيرى ملكا عليهم ليفعل ما كنت سأفعله لو لم أقتل ولا يسلموا إليك الصين ثم تنسب أنت إلى غير الجميل والمعروف. فسكت «الإسكندر» قليلاً، وفكر طويلاً، وتأمل فى قوله فأدرك أنه عاقل حكيم، ثم قال له: أما سؤالك عن سبب غزوى لبلادكم فإنى إن لم أغزكم أخذت منكم خراجًا عظيمًا. فقال له ملك الصين: وكم تريد من الخراج يا سيدى حتى تقى البلاد شر الغزو وسفك الدماء؟ فقال «الإسكندر»: أريد كذا وكذا. فوافق ملك الصين على قوله، ثم ودعه وانصرف إلى مستقره فلما أصبح الصباح أقبل ملك الصين ومعه جيش عظيم يحمل كل أنواع الذخيرة والسلاح فلما أبصر «الإسكندر» عدده وعدته خرج إلى ملك الصين وقال له: أغدرت بودعك، وخرجت على عهدك؟ فقال لا والله يا سيدى لم يكن هنالك غدر ولا خيانة فقال «الإسكندر» فما هذا الجيش؟ وما هذا السلاح إذن؟ فقال ملك الصين: أردت أعلمك أنى ما أطعتك عن ضعف ولا عجز. وما غاب عنك من جيش الصين وسلاحه أكثر مما حضر إليك ولكننى أردت حقن الدماء، وصيانة النفوس والأرواح. فدهش «الإسكندر» من حكمته وفطنته. وقال له: إنى قد تركت الخراج الذى اتفقنا عليه بالأمس إعظامًا لفضلك، وإكبارًا لنبلك. وإننى منذ اليوم منصرف عن أرضكم، فشكره ملك الصين ودفع إليه هدية من أعز وأغلى ما يملكه شعب الصين قالوا: إنها فاقت فى قدرها وقيمتها ما كان سيأخذه «الإسكندر» من الخراج. وهكذا يفعل المعروف بالعقول حتى وإن كان مع القادة والملوك.

وحدث الأصمعى قال: أصابت قبيلة نبهان سنة جدباء ذهبت بأموالهم ومواشيهم ولم تترك فيهم زرعًا ولا ضرعًا فتفرقوا فى البلاد يطلبون الرزق، وينشدون القوت وذهب منهم رجل بعياله حتى انتهى إلى جبل تهامة فترك أولاده به وقال لهم: كونوا قريبًا من هذا البلد فعسى أن يصيبكم من فضله وخيره وإنى سأضرب فى الأرض حتى آتيكم بأرزاقكم. قال الأصمعى: فانصرف الرجل عن أهله، ومازال يسعى ويجد فى السعى حتى انتهى إلى مكان إبل وغنم وماشية فاطمأنت نفسه إلى أن هذه الماشية مملوكة لأربابها. قال الرجل: فنظرت حولى فإذا شيخ كبير مستظل بخبائه، فآويت إليه، فرحب بى وعجلوا بطعامى وإكرامى. وبينما أنا أتناول طعامهم إذ أقبل علينا فارس شجاع يسوق مائة من الإبل ومعها فحلها فلما رآه أهل الحى. قاموا إليه معظمين. فعلمت أنه سيد من ساداتهم وقد حلب له الشيخ من لبنها فلما نظر إلى قام إلى شاة فذبحها وجدد ضيافتى، وضاعف فى إكرامى على غير معرفة، ولكن على الرغم من هذا الكرم الكثير، وهذا الجود الوفير لم تطب نفسى، ولا سكن خاطرى فقد كنت مشغولاً بأهلى، قلقا على عيالى فأضمرت فى نفسى شرًا، وبيت للقوم مكرًا. فلما دخل الليل، نام الجميع وتظاهرت بالنوم معهم حتى أخدعهم فلما هدأ الحى، وأطبق الظلام حللت فحل الإبل وفككت عقال النوق ثم اعتليت ظهر الفحل ولوحت إلى بقية الإبل فتبعت فحلها. وقد أسرعت فى السير، وأحثثت الخطى حتى أشرق النهار، وطلعت الشمس وأيقنت إنى فى مكان آمن وقد أصبحت قريبًا من أهلى وأولادى ومعى ما يغنيهم إلى نهاية العمر. وبينما أنا أنعم بلذة الظفر، وحلاوة الغنيمة- إذ بفارس الأمس قد أقبل على، وأيقنت أنه قاتلى لا محالة فقمت إلى سيفى فاخترطه من غمده فلما أبصرنى الفارس قال - وهو بعيد عنى-: أخيانة وغدرًا؟ فقلت له: لا والله يا سيدى، ليس الغدر من شيمتى، ولا الخيانة طبيعتى ولكننى تركت خلفى عيالاً جياعًا، وخلفت ورائى أناسًا محاويج. فقال الرجل: إنك ميت لا محالة. وأخرج قوسه من جرابه،

ووضع فيــه سهــمًا رائشًا وشــده بقوة وقــال: يا هذا فى أى مكان تريد أن أضع سهمى؟. فـأشرت إلى عقدة فى حبل كان فى جـانبى وقلت له: ضعه فى هذه العقدة. فرمى به إليها فأصابها وكأنما وضـعه بيده فيها. فتخوفت منه على نفسى وأدركت أن السيف لا يغنى عنى شيئًا فأعـدته إلى غمده فأقبل على وشد وثاقى وأعادنى إلى خـيمته، فلمـا سار بى أيقنت أنى هالك ولابد ولا سيـما أنه قطع الطريق إلى خبائه صامتًا دون أن يحدثنى بشىء مما جعلنى أسىء الظن به، وأكثر من الهواجس والظنون. ولم يكـد يستقر بنا المقـام فى خيمـته حتى قطع صمـته الطويل قائلاً لى: ممن الرجل؟ فقلـت من قبيلة «نبهان» فقـال: وما حملك على ما صنعت؟ قلت الفقر وشدة الجوع. فـقال: وكيف ظنك بى؟ فقلت له: أحسن الظن ولو شئت شرًا لأمضيته. فتـبسم وقال: والله لن ينالك شر أبدًا. فتعجبت من كرمـه، ودهشت لمعروفـه. وقلت: والله لا يفعـل هذا المعروف ويعـفو هذا العفو عن عزيمة إلا «زيد الخـيل» فتهلل وجهه بشرًا، وتألق جـبينه سرورا وقال: أو تعرف «زيد الخيل»؟ فقلت: إذا كنت لم أره فإنى لا أجهل مكارمه. فقال: يا أخى هأنذا «زيد الخيل» فقلت له: ألا تفك وثاقى حـتى أشبع النظر منك؟ فأقبل على ففك وثاقى. ثم جدد كـرامتى، وأحسن ضيافتى ثم قـال لى: أو أعجبتك هذه الإبل التى فـررت بهـا؟ فضـحكت من قـوله ثم قلت: يا أخى لولا إنهـا أعجبتنى ما فررت بها. فـقال زيد: والله لو كانت لى لوهبتها لك- ولكنها لابنة «مهلهل». ولكن سـأعطيك ما هو خيـر منها. فمكثت عـنده ثلاثة أيام وبعدها أعطانى إبلاً تفوق المائة، وأغنامًا ومـالاً كثيرًا. فلما همـمت بالانصراف قال لى الشيخ الذى كان جالسًا معنا بالأمس: أيها الرجل، احتفظ بإبلك هذه ولا تفرط فى غنمك ومـالك، فقـد آن خـروج نبى أمى فى هذه البـلاد، وسيـملك هذه الأرض، ويطرد اليهـود من جزيرة العرب. وسـوف يأخذ أموالهم غنيـمة وفيـئًا للمسلمين وسوف يـبيعها لمن شاء بأزهد الأثمـان حتى إن الرجل ليبتاع البـستان النضيـر بثمن جمل أو بعـير. قال النبـهانى: سمـعت نصيحتـه ووعيت مقـالته

وأيقنت أنه ما قال هذا إلا لأن عنده فيه علم. ومازلت أسعى حتى أتيت أهلى وقد أضناهم الجوع وأجهد أجسامهم. فلما رأونى مقبلاً فرحوا بى، وهشوا للقائى فقلت لهم: إن أعظم مما ترون، وأجل مما تشاهدون ما سوف أبشركم به. لقد أظلنا زمن النبى الأمى، وسوف يضاعف الله لنا الغنى والثراء على يديه فسروا بذلك أضعاف سرورى، وتحولنا إلى أرض «نبهان» وأقمنا بها حتى ظهر رسول الله فجئت إليه مع أهلى وبايعته على الإسلام، وحدثته عن معروف «زيد الخيل» وما صنع بى وهو يقدر على. وأخبرته ببشارة «الشيخ» لى فقال: «الشيخ» صادق إن شاء الله. وقد عشت حتى أجلى الرسول اليهود عن المدينة وابتعت بستانا من حدائقهم بثمن بعير. جعلنا الله جميعًا ممن يحبون اصطناع المعروف، وإسداء الجميل.

فى فضل بر الوالدين والإحسان إليهما

جاء بر الوالدين فى القرآن الكريم ونزلت فيه آيات كثيرة، تنبئ عما لهما من منزلة عظيمة ومكانة كريمة عند الله، وتفرض على الإنسان إكرامهما والرحمة بهما والإحسان إليهما، وتعد البار بالأجر العظيم والثواب الجزيل فى الآخرة، ويكفى أن يوجب الله على الإنسان إكرامهما حتى وإن كانا كافرين، وما من موطن يطلب الله فيه من عبده عبادته ويفرض عليه فيه طاعته إلا ويعقب ذلك الدعوة إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما، لأنهما بعد الله أصحاب الفضل فى حياة الإنسان وسبب وجوده فى هذه الدنيا، ولأنهما تحملاً من التعب والمشقة والجهد والعناء، والكد والنصب والتضحية والإيثار، ما لا يمكن أن يتحمله أحد أو يصبر عليه، أما الأب فطالما دأب فى سبيل تربية أبنائه وجلب الرزق لهم وطالما نافح وكافح ليكونوا من السعداء الآمنين والهانئين والأعزاء، طالما واصل ليله بنهاره وسفره بإقامته وجده بسعيه، واجتهاده بعمله حتى يهيئ لهم عيشة رغدة وحياة هنيئة، وغداً مشرقًا ومستقبلاً زاهراً يهيمن عليه الصفاء والرخاء، ويرفرف عليه علم الدعة والهدوء، فطالما أكل اليابس وطالما لبس الخشن، وطالما صال وجال فى الحر والقر، وطالما حنى رقبته وطأطأ رأسه وسمع الكلمة الآمرة، وتلقى الوعيد والتهديد وأولاده فى أثناء ذلك كله إما نيام حالمون أو لاهون لاعبون، لا يشعرون بشيء من هذه المرارة ولا يكابدون شيئًا من هذا القلق، ولا يحملون قليلاً ولا كثيراً من تلكم الأعباء.

أما الأم فقد كان نصيبها فى تربية أبنائها أوفى قسطًا وأوفر نصيبًا، لأنها حملتهم فى بطنها وتحملت تبعًا لذلك ثقل الحمل ومرارة الوحم، وألم الوضع والمخاض، فكان حملها ضعفًا ووهنًا ووضعها ألمًا وصبراً، أما رضاعهم فكان من خالص دمها وصفوة غذائها وحشاشة نفسها، ومهجة قلبها دون أن تحفل بنوم ولا سهر، ودون أن تفكر فى جوع أو شبع، ودون أن تشكو تعبًا ولا نصبًا ودون أن تنتظر من وراء ذلك أجراً أو جزاءً، عاشت طول عمرها خادمة مخلصة

وعاملة مجدة، ومجتهدة دءوبًا فى أوقات الصحة والمرض وأيام الشدة والرخاء، إن مرض أولادها كانت الممرضة الحليمة والطبيبة الحكيمة وكان صدرها وحجرها فرشًا ووطاءً، وذراعاها ومعصمها كساءً وغطاءً وقلبها وكبدها غذاءً ودواءً، لا يتعب كتفها من الحمل ولا يسأم صدرها من الحضن، ولا يكل ذراعها من الثقل ولا يغيض ثديها من كثرة الرضاع، ولا تجف فى قلبها منابع الرحمة والحنان، ولا تشح يدها مهما قدمت من بذل وعطاء ولا يمكن أن تهتز نفسها أو يتقزز طبعها من قذر تغسله أو منظر تبصره أو حادث تشاهده وتراه، أهنأ أوقاتها وأسعد أيامها أن ترى ولدها يحبو بين يديها طفلاً ويخطو أمامها صبيًا، ويمشى ويختال رجلاً يافعًا وشبابًا نضيرًا، وخلاصة القول إن حظ الأم من تربية الأبناء وتقويمهم وتهذيبهم، وتعليمهم وتنشئتهم يفوق نصيب الأب ويربو عليه، وكذلك كان الشرع حكيمًا حينما اختص الأم بمزيد من العناية والتقدير. فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾(١).

وجاء فى كتب الحديث أن رجلاً سأل الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله «أى الأعمال أفضل؟ فقال له النبى: **الصلاة لوقتها**. قال: ثم أى؟ قال: **ثم بر الوالدين**. قال: ثم أى؟ قال: **ثم الجهاد فى سبيل الله**».

وقال رسول الله ﷺ «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر بالوالدين والإحسان إليهما**». وقال أيضًا: «**عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل منه حقًا كان أو مبطلاً فإن لم يفعل ذلك لم يرد على الحوض**».

ولقد بلغ من إكرام الإسلام للوالدين وتقديره لفضلهما أنه أمر ببرهما والإحسان إليهما حتى بعد الموت، وقد جاء فى سنن الترمذى أن رجلاً من

---

(١) الأحقاف: ١٥ .

أصحاب رسول الله الأكرمين كان يحسن إلى والديه وكان باراً بهما، وظل يبرهما ويحسن إليهما حتى لقيا الله، فلما ماتا جاء إلى الرسول ﷺ وأخبره بما كان من بره وإحسانه إلى والديه أيام أن كانوا أحياء، ثم قال له يا رسول الله هل بقى على من بر والدى شيء؟ فقال له النبى ﷺ: **نعم بقى عليك من برهما الكثير**، فقال الرجل وما ذلك يا رسول الله؟ فقال له النبى: **عليك الدعاء لهما، والصلاة عليهما وإنفاذ عهدهما وصلة الرحم التى انقطعت بموتهما وإكرام صديقهما**»، فقال الرجل والله لأقومن بذلك كله يا رسول الله حقًا لوالدى عندى حتى ألقاهما بين يدى الله وهكذا ربى الرسول ﷺ أمته على حب الوالدين حتى وإن كانا كافرين مشركين، أو كانا غائبين أو ميتين، جزاءً وفاقًا لما قدماه لابنهما من جميل ومعروف.

وقد جاء فى مناقب سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه كان يمشى مع مولاه نافع قاصدين مكة فى حر الظهيرة ولهيب الصحراء، وكان ابن عمر يركب حمارًا وخلفه خادمه، وبينما هما فى الطريق إذ أبصر عبد الله أعرابيًا يمشى على رمال الصحراء المتقدة، فلما اقترب منه عبد الله رق له وترجل عن حماره وأركبه عليه وأعطاه عمامته وأطعمه من زاده ومائه، فتعجب خادمه من إكرامه لهذا الرجل، فقال لابن عمر: يا سيدى أراك قد بالغت فى إكرام هذا وإنه أعرابى ويكفيه القليل، فقال له ابن عمر: -اسكت يا هذا فإنك لا تعرفه- إن هذا الرجل ابن صديق كان يحبه عمر ويجله. وقد سمعت النبى ﷺ يقول «**إن أبر البر أن يكرم الرجل أهل ود أبيه**» فأنا أحق الناس بذلك.

وجاء فى كتب الأولين أن سيدنا يعقوب عليه السلام لما دخل مصر وخرج سيدنا يوسف لاستقباله لم يبالغ فى إكرامه ولم يقم إجلالاً وتعظيمًا له، وأخذته عزة الملك وهيبة السلطان عن أن يقدر والده قدره ويعرف له حقه أمام شعبه من المصريين، قالوا فأوحى الله إليه أتتعاظم على أبيك يا يوسف؟ فوعزتى وجلالى لا أخرجت من صلبك نبيًا مرسلاً أبدًا، وقد أخرج الله من صلبه نبيين -منشى وإفرايم ولكنها لم يكونا مرسلين، وقالوا إن سيدنا سعد بن أبى وقاص صاحب

رسول الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة، قالوا إنه لما أسلم غضبت أمه وتوعدته إذا جاءها فلما دخل عليها بعد إسلامه قالت له يا سعد - بلغنى أنك صبئت وأنك قد فارقت دينك ودين أبيك، فقال لها سعد يا أماه والله ما صبئت ولكننى أسلمت وآمنت بما جاء به رسول الله من كتاب، فقالت له أمه واللات والعزى لا أستظل بسقف ولا آكل ولا أشرب ماءً حتى أموت أو تكفر بمحمد، ثم أصرت على قولها ومكثت ثلاثة أيام فى العراء لا تأكل ولا تشرب ولا تستظل حتى أوشكت على الهلاك، وكانت تظن أن سعداً سيرق لها ويرفق بها وتأخذه الشفقة عليها إذا رآها وقد بلغت من الضعف أقصاه، ولكن سيدنا سعد رضى الله عنه توجه إليها وهى تقاسى من الحر أشده ومن الجوع أمضه، وقال لها يا أماه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت كل واحدة منها وراء الأخرى ما تركت هذا الدين ولا فارقت رسول الله، ثم توجه إلى رسول الله فأخبره بما كان من شأنه مع أمه وأنها قد أضر بها حدة الجوع والظمأ، وشدة الحر ولهيبه، فلم يفرغ من قوله ولا انتهى من شكواه حتى نزل قوله تعالى ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(١). فقرأه النبى عليه وأمره بالإحسان إلى أمه دون أن يطيعها فى الكفر أو يعود إلى ما تركه من دين.

وأعجب من موقف سيدنا سعد مع أمه ما وقع لأسماء بنت أبى بكر بعد أن هاجرت مع زوجها إلى المدينة، وقد خلفت وراءها أمًا كافرة مازالت على دين قومها وفى يوم من الأيام طاب لها أن تزور ابنتها أسماء فى المدينة فلما دخلت عليها لم تهش لها ولا رحبت بها وبادرت مسرعة إلى بيت رسول الله، فلما دخلت عليه ابتسم لها النبى وأفسح لها فى مجلسه وقال لها ما شأنك يا أسماء، فقالت له يا نبى الله إن أمى قدمت على من مكة وأنت تعلم أنها

---

(١) لقمان: ١٤-١٥.

مازالت مشركة كافـرة أفأصلها وأبرها؟ فقال لها النبى ﷺ نعم يا أسماء صليها وبريها وأحسنى إليها، وتلا عليها الآية التى نزلت فى شأن أم سعد.

وكـان سيـدنا أبو يزيد البـسطامى رضى الله عنه من أبر الناس بأمـه ومن أكثرهم بها رحمة وحنانا، وقد طال عـمرها وكبر سنها ووهن عظمها وجلدها، ولكن بر ابنهـا بضعفـها وإشفـاقه على كـبرها أنساها مـرارة ذلك وقسـوته قال البسطامى رضى الله عنه -تقدم بأمى العمر وتمكن منها الضعف، وأثقلت كاهلها الشيخوخة فكنت أخدمها بنفسى، وذات ليلة من الليالى دعتنى لأنام معها وكنت أريد قيام الليل وردًا ألزمت به نفسى، ولكننى أجبتهـا إلى رغبتها وآثرت طاعتها ورضاءها إلى وضـممـتها إلى صـدرى وجعلت إحـدى يدى تحت رأسهـا واليد الأخـرى أمررهـا على ظهـرها، وكنت أثناء ذلك أقـرأ سورة الإخـلاص حـتى تخدعت يـدى التى تحت رأسها وأصـابها الخـدل وتوقف الدم فى عروقـها عن الجريان، فلم أتألم لذلك وقلت فى نفسى إن اليـد لى وحق الوالدة لله، فصبرت على ما أصـابنى ولم أزل كذلك حتى طلع الفـجر وقد قرأت سـورة الإخلاص عشرة آلاف مرة، فلما طلع النهار جعلت أحرك يدى فلم أستطع وقد ظلت يدى مريضة زمنًا طويلاً، وقد خفف على مرضها وجمودها دعاء أمى لى، فقد رفعت يديها إلى السمـاء عند طلوع الفجر وقالت «اللهم إنى قـد رضيت عن أبى يزيد فارض عنه» وأكبر ظـنى أن الله قد استجاب دعاءها وحقق رجـاءها. فقد رأيت الجنة فى نومى زهاء سبعين مرة، وأنا أنتظر من الله المزيد». . .

ومن أعجب مـا جاء فى الوالدين وإكرامـهما والتطلف مـعهمـا حتى فى أحرج أوقات الشدة مـا رواه ابن عبدالبر فى تاريخه، قال رحـمه الله، لما حبس الرشيـد البرامكة وكان على رأسـهم كبيرهم وأمـيرهم يحيى بن خـالد البرمكى وكان شيخًا كـبيرًا، وكان لا يتوضأ لضعفه وكبـر سنه إلا بماء ساخن، وكان معه فى السجن ولده الفضل فـفكر فى جيلة ليصنع بها ماءً ساخنًا يناسب شـيخوخة أبيه، فكـان إذا أقبل الليل غافـل السجان وأخـذ قدحًـا مليئًا بالماء وقـام به عند السراج حتى يطلع الفجر ومازال الفـضل هكذا حتى فطن له السجان، فمنعه من ذلك وحـال بينه وبين السراج، ولـكن الفضل لم ييـأس من بر أبيـه ولم تعيـه

الحيلة، فكان يملأ القـدح كعادته ويضمه إلـى جسمه حتى يطلع الـصباح، فكان يحصل على شـيء من الماء الدافئ فيقـدمه لأبيه، وقـد أدرك أبوه ذلك فكان إذا صلى بسط أكفه إلى الله وقال «اللهم لا تذقه حر جهنم ولا عذاب السموم».

وجاء أن سيدنا مـوسى عليه السلام سأل ربه وهو يناجيـه يومًا فقال: «أى الأعمال أحب إليك. فقال له الله عز وجل : بر الوالدين يا موسى من بر والديه كنت له وليًا فى الدنيـا وأنيسًا فى القبر ورحـيمًا فى الحشـر ودليلاً على الصراط ومحدثًا فى الجنة يكلمـنى وأكلمه ويناجينى وأناجيه». وقـال سليمان بن أيوب: لقد مكثت أطلب العلم وأبتغى حفظ القرآن أكثر من عشر سنين ولم أحسن قراءة الفاتحة، فعز على ذلك وكـان شيخى ييأس منى فكنت أبكى فى خلوتى وأضرع إلى الله فى سـجـودى أن يفك عـقدة لـسانى ويذهـب عنى ظلمـة قلبى. فلم يستجب الله لى، فشكوت ذلك لرجل من الصـالحين فسألنى هل لك أم؟ فقلت له نعم. فقـال لى: أو بار بها أنت؟ فقلت أحـسن البر يا سيدى وأتمه، فـقال: اذهب إليهـا ومرها أن تدعـو لك بحفظ القـرآن والفقه فى الدين فـعدت إليـها مسـرعًا وأخبرتهـا بما قال الرجل، فانتظرت حـتى كان الليل وجاء وقت سـحر فأحسنت وضوءها وتناولت من سحورها وعزمت على أن تصبح صائمة لله، ثم قامت تصلى وتدعو لى حـتى طلع الفجر، فاستجاب الله لـى وكأنما كان عقلى شمسًا تحـجبها سحابة صيف، فـهبت عليها ريح عاصف فانقشـعت عن وجهها السحابة، فكنت من أقـوى الناس حفظًا وأسرعهم فهمًـا وأحدهم ذكاءً وفطنة، ومازلت أترقى فى مدارج القرآن والحديث وأسـبح فى بحور العلم والحكمة حتى أصبحت إمامًا لا يشق لى غبار، وفارسًا مغواراً لا تطمس له آثار، فمن كانت له حاجة تعثر عليه قضاؤها فليسأل أبويه الدعاء.

وقالوا إن سيدنا موسى عليه السلام سأل ربه يومًا فقال: اللهم أرنى رفيقى فى الجنة، فأوحى الله إليه يا موسى إن شئـت أن تراه فاذهب إليه فإنه فى مدينة أنطاكيـة، فذهب سيدنا مـوسى إلى هذه الأرض، فلما نزل بها ساقـه القدر إلى حانوت عطار فعـرض عليه نفسه وسلم عليه فأدرك أنه غـريب، فرحب به وقال له: يا سيـدى أرى فى وجهك نور الصالحين ووقار المتـقين فهل لك أن تنزل فى

ضيافـتى؟ فقال سيـدنا موسى لا أحب إلى من ذلك يا سيدى، فلـما كان وقت الغداء أغلق العطار حانوته وأخذه معه إلى منزله، قال موسى: فلما دخلنا البيت رأيت شيخًا كبيرًا قد كف بـصره وثقل سمعه وخفت صوته، فلم نكد نصل إلى مجلسه حتى رفع وجهه إلينا كأنما أحس بمقـدمنا عليه، فاقترب منه العطار فغسل عنه عـرقه وأزال قـذره ثم غسل له أطرافـه وأعضـاءه، وأحضـر طعامًـا شهـيًا فأطعمه، ثم سقـاه لبنًا صابحًا، فلما فرغ من إطعامه وسقـيه غسل له يده وفمه فسمعت الشيخ وهو يسأل العطار. من الضـيف الذى معك؟ فقال والله ما سألته عن نفسه يـا أبى، فإن شئت فاسأله، فـسألنى فقلت له إنى مـوسى بن عمران، فقال موسى بن عمران نجى الله وكليمه؟ فقلت له: نعم. فقال الشيخ: الحمد لله فقد تمت النعـمة وكملت المنة وإنى سأموت بعـد قليل فقال له ابنه: من أين لك ذلك؟ فقال إنى سألت الله فى كل صلواتى وخلواتى ألا يقـبضنى إليه حتى أنظر إليك وأجلس معك فاسـتجاب الله لى، ولـم تمض أيام حتى مات، فلمـا فرغوا من تجهيزه قال سـيدنا موسى للعطار: لا شك أنك كنت بارًا بأبيك - قال: نعم كنت بارًا به أحسن البر، وكنت لا آكل حتى أطعـمه ولا أنام حتى ينام، فقال له سيدنا موسى: أبشر فأنت رفيقى فى الجنة، فقال: إنى أعلم ذلك. فقال: وكيف علمت؟ قال إنى كنت كـلما أطعمت أبى لقـمة أو سقيـته شربة أو قـدمت إليه إحسانًا رأيته يحرك شفتيه ويهمـهم بكلمات، فتبينتها لأقف فإذا هو يقول: اللهم إنى أسألك بلطفك ورحمتك أن تجـعل ابنى هذا رفيق أنبيائك فى الجنة، وأيقنت أن الله قد استجاب دعاءه لى.

ويقال إن سيدنا موسى لما أراد الرجوع من أنطـاكية شق عليه المسير وتعب من كثـرة المشى وطول الطريق، فألهـمه الله عز وجل أن يأتى عـابدًا يتنسك فى إحدى المغارات ويسأله شيئًا يركبه يستـعين به على طول سفره، فتوجه إليه سيدنا موسى على هدى من الله، فلـما دخل عليه مـغارته وجده يصلى فـانتظره حتى فرغ من صـلاته، فحيـاه وسلم عليه. فـرد على التحيـة بأحسن منهـا ثم سأله حاجته، فقال له سيـدنا موسى: هل من شىء أركبه حتى أعود إلى أهلى؟ فنظر الشيخ إلى أسد وأشار إليـه قائلاً له: قم فاركب هذا باسم الله وعلى بركة الله،

فتعجب سيدنا موسى من أن يكون الأسد مركبًا، ولكنه أقوى الناس إيمانًا بقدرة الله، فركب الأسد حتى وصل إلى مستقره ثم تركه يذهب من حيث جاء، وعند ذلك أوحى الله إلى سيدنا موسى، يا موسى «أتدرى بأى شىء أعطيت الناسك هذه المنزلة؟ وبأى سبب منحته هذه الكرامة؟ فقال سيدنا موسى - الله أعلى وأعلم فقال له الله عز وجل: إن أم هذا الناسك سألته حاجة تشتهيها نفسها عند وفاتها فقضاها لها، فرفعت وجهها إلى الله وقالت يا رب - اللهم كما قضى حاجتى فاقض حاجته ونفِّس عند الضيق كربته.

فانظر -رعاك الله- يا أخى كيف يفعل بر الوالدين بالأبناء الأخيار، إنه مفتاح رضوان الله لهم، ومصدر بركته فى أرزاقهم، وسبب عزهم. وكرامتهم فى هذه الحياة، لا يظفر به إلا الأتقياء ولا يوفق إليه إلا السعداء، ولا يتمتع بثماره إلا العقلاء الأذكياء.

وأعجب من كل ما تقدم ما جاء فى كتب التاريخ من أن رجلاً كان يعيش مع ابنه أيام سيدنا سليمان عليه السلام وداخل مملكته، وكان الرجل صالحًا ورعًا وزاهدًا تقيًا يتجنب المعاصى، ويخشى الذنوب والآثام ويكره أن يرى فى بيته شيئًا يغضب الله، وكان له ابن جرئ على محارم الله لا يخاف ربه ولا يخشى ذنبه ولا يترفع عن عار ولا قبيح، فكان يشرب الخمر فى بيت أبيه وعلى مرأى ومسمع منه فكان والده ينهاه ويزجره، ويعظه ويرشده ويحذره غضب الله ومخافته، فكان لا يرعوى ولا ينزجر وكثيراً ما كان يسخر من أبيه ويتهكم بنصحه ووعظه، حتى شرب الخمر ذات يوم فدخل عليه أبوه ليعظه بالحسنى وينصحه باللين، وكانت الخمر قد عملت برأسه عملها واغتال عقله ضوارها، فهجم على أبيه فلطمه على وجهه لطمة عنيفة فقأت عينه وأسالت دماءه، ولم تمض مدة يسيرة حتى أفاق من سكره واستيقظ من غفلته، فأبصر عين أبيه على خده فأخذه الهلع وتملكه الفزع وأيقن أنه أساء، وأنه ارتكب ذنبًا لا يغفر، وفعل إثمًا لا يمحى وأتى عاراً لا يزول فجعل يقرع نفسه ويوبخ شخصه. ولم يجد ما يخلصه من عاره وشناره إلا أن يقتص لأبيه من نفسه، ويقطع يده التى لطمه بها ولا يمكن أن يسكن له ضمير أو يستريح له بال دون هذا الانتقام، فلما فعل ذلك

بنفسه ورآه أبوه مقطوع اليد أخذته الشفقة عليه. وتوجع لمنظره فبكى بكاء ساخنًا وذرف دموعًا حارة. وقال: «يا بنى ليت لى ألف عين تقلع كل واحدة وراء الأخرى ولا أراك قطعًا لا يمين لك». ثم أخذه وتوجه به إلى نبى الله سليمان، فوجداه داخل الهيكل يعظ بنى إسرائيل ويذكرهم بالله، فلما وقف الرجل بابنه أمامه حدثه عن قصته مع ابنه، فبكى سيدنا سليمان من حنان الوالد على ولده حتى وإنه قسا عليه، ثم أخذ عين الشيخ فجعلها مكانها ويد الابن فوصلها بساعدها وقال للصالحين من بنى إسرائيل، إنى داع فأمنوا ورفع وجهه إلى الله وقال يدعوه: «اللهم بشفقة الولد على والده وببر الولد بأبيه أسألك أن تشفيهما وتقضى حاجتهما». فقال الصالحون «آمين»، فاستجاب الله لنبيه وشفعه فى الرجلين وجعلها معجزة لسيدنا سليمان وعبرة لبنى إسرائيل، وذكرى بعد ذلك كله للمؤمنين ينتفعون بهديها، ويتأملون فى أحداثها حتى علم الأبناء منزلتهم فى قلوب الآباء فسلام الله علينا وعلى عباد الله الصالحين.

ويشبه هذه القصة فى روعتها وأحداثها ما رواه سيدنا مالك بن دينار رضوان الله تعالى عليه. قال رحمه الله ونفعنا به «خرجت إلى حج بيت الله فى سنة من السنين فرأيت الجميع على عرفات وقد رفعوا أيديهم إلى السماء. وبسطوا أكف الضراعة والرجاء وأكثروا من الأنين والبكاء يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، ويطلبون منه الرحمة والغفران. فقلت فى نفسى. ليت شعرى من المقبول من هؤلاء فأهنئه وأباركه، ومن المطرود منهم ومن الشقى المحروم فأتوجع له وأعزيه، فلما نمت تلك الليلة وكنت بالمشعر الحرام رأيت فى نومى من يقول لى «يا مالك إن الله قد غفر لأهل الحجيج أجمعين وتقبل منهم ما عدا محمد بن هرون البلخى فإن الله قد رد عليه حجه»، فاستيقظت من نومى فزعًا فصليت صلاة الغداة وجعلت معهم وسألتهم يا هؤلاء هل فيكم أهل بلخ؟ فقالوا «نعم» واحضروا البلخيين لى، فقلت لهم «هل فيكم من يعرف محمد بن هرون؟» فقالوا كلهم: نحن نعرفه، إنه متنسك لا يسكن إلا خرائب الجبال، ولا يقيم إلا فى أغوار الكهوف يعيش على بقل الصحراء، ويشرب من ماء العيون والآبار، لا همة له فى الدنيا ولا رغبة له فيها، فقلت لهم إنى فى شوق إلى لقائه

فأخذونى معهم. فلما كنا بصحراء بلخ اسـتأذنتهم فى لقائه فأذنوا لى، فجعلت أطلبه بين الجبال حتى وجدته، فلما دخلت عليـه مغارته وجدته قائمًا يصلى وقد وضع غلا فى عنقه وقيدًا ثقيلاً فى قدميه، فلما فرغ من صلاته التفت إلىَّ وقال: من الرجل؟ فقلت له مالك بن دينار، فاغبر وجهه وارتعدت مفاصله وقال مرحبًا بك يا سيدى لعلك رأيت منامًا لى. فتعـجبت من قوله ومكاشفته وقلت نعم يا سيـدى رأيت لك رؤيا أحببت أن أطلعك عليـها، فقال هكذا يا سـيدى فى كل عام. يرى لى رجل صالح مثل رؤياك فـقصصتها عليه فـلما فرغت منها نظرت إليه فإذا هو يبكى، فقلت له يا سيدى هل لى أن أطلع من سرك على سبب هذه الجفوة من الله لك؟ فـاشتد بكاؤه وقال: أنا أحدثـك يا أخى فإن فى ذلك راحة نفسى من هموهـها وأحزانها، إنى كنت مـسرفًا على نفسى وكنت أشـرب الخمر وحدث أن سكرت أول ليلة فى رمضان فزجرتنـى أمى ونهرتنى على معصية الله واشتد غـضبها علىَّ وتقريعـها لى، فقمت إليـها فصفعـتها صفعـة قوية فاضت روحها بعدها.

فلما رأيتها صريعـة بين يدى عضنى الندم وتملكنى الأسف وأبغضت نفسى ولم أجـد سبـيلاً إلى الراحـة والسكينة إلا أن أفزع إلى وحـشة الجـبال وظلـمة الكهوف أضرع إلى الله فيها وأبتهل إليه أن يقيل عثرتى ويغفر زلتى وفى كل عام أحج بيت الله وأقول والدموع تغرقنى والعبرات تخنقنى «اللهم يا مفرج الهم ويا كاشف الغم فـرج همى واكشف غـمى وارض عنى» ثم أعود إلى منزلى فـأعتق العبيد وأنفق الأموال، فعسى أن يكون ذلك كفارة لما وقع منى، ثم هاج به الدمع وأخذه البكاء فـسكت عن الكلام، فلما سـمعت منه قـصته عـبست فى وجـهه وقلت له: لقـد كدت تحـرق الأرض ومن عليهـا بجريمتك هذه، ثم قـمت عنه وسألت عن المسـجد الجامع فصليت فـيه وقمت إلى وردى فـأديته ثم نمت على طهـارة ولسانى رطب بذكـر الله، فرأيت رسـول الله ﷺ فى منامى تلك الليلة وهو يقول لى: **«يا مالك بن ديـنار لا تقنط عباد الله من رحـمة الله فـقد يطلع الله على المذنبين فيغـفر ذنوبهم ويرحم ضعفهم ويستـجيب دعاءهم»** فلما أصبحت رجعت إلى ابن هرون فى مغارته فـأخبرته بما قال رسول الله ﷺ. فشهق شهقة

وظل مـدنفًا عليـلاً حتى لقى الله، فكان أهل بلخ ولا سـيمـا الصالحـون منهم يسمونه شهيد أمه.

وأخيراً فإن المؤمن العاقل والمسلم الصحيح لا يرضى لنفسه أن يكون عزيزاً كريمًا ووالده ذليل مـهان، أو شقى تعس أو محـروم محتاج، فليـعلم كل عاقل لبيب أنه مـهما أحسن إلـى والديه، ومهما أكـرمهمـا ومهما بالغ فى الإحـسان والكرم، فإنه لا يبلغ عشر حـقهما، ولا يكافىء إحسانهمـا وليعلم أنه كما يدين الفتى يدان، كمـا قال رسول الله ﷺ «**البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت فاعمل ما شئت فكما تدين تدان وبالكيل الذى تكيل به تكال**».

فكن يا أخى باراً بـأمك وأبيك وكن لهم خـيـر دليل وأنصـع عنوان على حسن الخاتمة وجمال المصير. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

ذم العقـوق وما جـاء فيـه

وكـما إن الإسـلام أمر ببـر الوالدين ورغب فـيـه وزينه فى قلوب الأبناء المخلصين وحببه إليهم، فقد نهـى عن عقوق الوالدين وحذر من شؤمه، وخوّف العـاقين من أبنائهم سوء العـاقبـة وقبح الخـاتمة، ونهى الأولاد أن يعقـوا أباءهم وأمهاتهم أو يتبـرموا بوجودهم، أو يستثقلوا خدمـتهم إذا تقدم بهم السن وانتهى أمرهم إلى الضعف والمشـيب ونفرهم من كل كلام خشن تتفـوه به ألسنتهم حتى ولو كانت كلمة غيـر مقصودة، أو لفظًا غير متعمـد، وحدثهم فى كتابه عن أن عاقبـة العقوق ذميمـة ونهايته وخيـمة لا فى الحياة الدنيا فـقط ولكن فى الآخرة كذلك، لأن فى العقوق إنكار للجـميل وجحود للمعروف ونسيـان لكل ما قدمه الآباء والأمهات من حقوق وواجبـات ولما بذلوه من أموال وعرق ابتغاء وجه الله دون أن يدخروا جهدا أو يقتصدوا وسعًا أو يفكروا فى جحود أو عقوق، ولو أن الآباء والأمهات نظروا إلى المـستقبل بعين عقـولهم وفكروا فيما حـولهم من عبر وخافوا أن يغدر بهم أبناؤهم ويعقوهم فى ضعفهم ومشيبهم، لو أنهم فعلوا ذلك لادخروا أنصبة كثيرة من المال والعقار، ولعاشوا فى ظلها ورحابها أيام الشيخوخة عيـشة السعـداء، الهانئين، وحيـاة الوادعين المطمئنين، ولكنهم لـم يفعلوا ذلك رحمة بأبنائهم وتضحية فى سبيلهم، فأعطوا بدون غرض وأنفقوا من غير حساب استـجابة لفطرتهم وتلبيـة لنداء قلوبهم وخضـوعًا لما طبعـهم الله عليه من حب الأولاد وحلاوة تـربيتهـم ولما أودعه الله فى نفـوسهم من مـتعة الأمـل وحرارة الرجاء، فـإذا أنكر الأولاد ذلك الفضل وتجاهلوا تلك التضـحية وتجهـموا للآباء والأمهات، كان ذلك دليلاً على شـقائهم وأنهم محرومون مطرودون، ولابد من أن ينزل بهم عـذاب الله وتحل بهم نقمـته، ولابد من أن ينتـقم الله منهم ويطيل عمرهم وينزع البـركة من أولادهم، ويهبهم من الأولاد من يعـقهم ويذيقهم من ألم العقوق ومرارة الكـفران والجحود أضعاف ما فـعلوا بآبائهم وأمهاتهم وليكون الجزاء من جنس العمل ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ ﴿**سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾.

ومن تأمل قوله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم وهو يأمر الابن ببر والديه وينهاه عن عقوقهما حتى ولو بكلمة جارحة أو لفظ غليظ يشعر بالتذمر ويدل على التحرج والضيق، من تأمل ذلك من كتاب الله أقلع عن العقوق وتخوف آثاره وأضراره فى العاجل والآجل على السواء، فأيقظ قلبك يا أخى وألق بسمعك لما جاء فى كتاب الله حول البر والعقوق:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾[1].

فأنظر يا أخى كيف نهى الله عن كلمة جافة يقولها الأبناء لآبائهم أو لأمهاتهم.

ويقول سيدنا على رضى الله عنه (لو علم الله شيئا أدنى من الأف لنهى عنه)، يقول الرسول ﷺ **«ليعمل العاق ما شاء فلن يدخل الجنة وليعمل البار ما شاء فلن يدخل النار ولن يجد ريح الجنة عاق»**.

وجاء فى كتب الأخبار أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام «يا موسى وقر والديك فإن من وقر والديه مددت فى عمره ووهبت له ولدًا يوقره ومن عق والديه مددت فى عمره ووهبت له ولدًا يعقه».

وقال محمد بن إسحاق ما أعدل القدر فى أخذه وانتقامه لقد رأيت بنفسى وشاهدت بعينى رجلاً من أهل البصرة، رباه والده فى حنان ورفق ونشأة تنشئة لينة ناعمة، فلما بلغ مبلغ الرجال وزوجه بامرأة جميلة ورزقه الله منها أولادًا حسانًا، فأقبل على زوجته وأولاده وفتنه جمال المرأة ونضارة الأولاد عن إكرام أبيه والإحسان إليه، وكان كلما تقدمت به السن ازداد فى جسمه قوة وفى ماله كثرة ووفرة، أما والده فقد أرهقه الكبر وأعجزه الهرم وتملكه الضعف والمرض

---

(١) الإسراء: ٢٣-٢٥.

وأضنى جسمه المشيب، فلزم داره وتوقع أن يحسن إليه ولده ويقوم بخدمته كما قد أحسن إليه أبوه من قبل، ولكن ابنه كان عاقًا فجحد جميله إليه ونسى كثرة أياديه عليه، وجرأ بجحوده وعقوقه زوجته وأولاده على أبيه، يسيئون إليه ويسخرون منه ويضحكون من كل أفعاله، ويسومونه سوء العذاب، وحدث يومًا أن قدموا له طعامًا فى إناء زجاجى مذهب فتناوله الشيخ بيد مرتعشة أضعف أعصابها الكبر حتى عجزت عن حمل الإناء، فسقط على الأرض فتهشم وتحطم، فلما رأت ذلك الزوجة غضبت عليه وثار الأولاد فى وجهه، فلما جاء ابنه حدثوه عن الطبق الفاخر وكيف أن الشيخ حطمه وهشمه، فاشتد غضبه على أبيه ونهره فى عنف وقسوة، ثم قال لأولاده أحضروا له طبقًا من النحاس ولا تقدموا له طعامًا إلا فيه، فاستحسنت زوجته رأيه وأعجب الأولاد بفكره وبعد نظره، وأسرعوا من وقتهم فاشتروا إناء من النحاس السميك ليقدموا للشيخ طعامه فيه، ثم أقبل الأولاد على أبيهم وقالوا له. ما أحسن رأيك يا أبى وما أبعد نظرك وما أسرع حلك للمشاكل والمعضلات، إن هذا الإناء قوى متين وسنطعم فيه جدنا ما دام حيًا حتى إذا مات احتفظنا به ذخرًا باقيًا عندنا، فإذا تقدمت بك السن وعلاك المشيب وأصبحت عجوزًا مثل جدنا أطعمناك فيه حتى لا تسكر لنا الأطباق الغالية والآنية الثمينة، ففزع الأب من قولهم وتشاءم من حديثهم وأدرك أنهم يتكلمون بلسان القدر، وأن الله الذى أنطق كل شيء أنطق ألسنتهم بكل ما يقولون، فتخوف العاقبة وتهيب المصير وأحسن إلى والده وأعاد الطبق إلى صاحبه وقال لزوجته وأولاده، ليس لكم سبيل إلى هذا الشيخ فهو أبى وحدى وسوف أخدمه بنفسى، فهو صاحب كل هذه النعم ومصدر كل ما نتمتع به من مال وعقار، وهكذا يؤدب الله عباده ويحذرهم جزاءه ويلقى ثمار ما يزرعون من بذور، لأنه عليم حكيم ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾[1].

ومما يدل على أن للعقوق أثرًا سيئًا وضررًا كبيرًا ما رواه سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه حدث فقال:

كنت أطوف بالكعبة المشرفة فسمعت رجلاً يردد هذه الأبيات ويقول:

---

(١) الكهف: ٤٩ .

يا من يجـيب دعـاء المضطر فـى الظلم

يا كـاشف الضـر والبلوى مع السـقم

قـد نام وفـدك حـول البـيت وانتبـهـوا

وانـت ياحـى يا قـيـوم لـم تنـم

هب لى بجـودك مـا أخطأت مـن حـرم

يا مـن يجـود عـلى العـاصين بالنـعم

إن كـان عـفـوك لا يـرجـوه ذو سـفـه

فـمن يجـود على العـاصين بـالكرم

قال على فـأحزننى قوله وآلمنى بكـاؤه، فقلت يا حسين أمـا تسمع النادب بذنبه والمعاتب ربه، امض إليه فعسـاك تدركه فأتنى به، فأسرع الحسين فى خطاه حتى أدركه فقال له أجب أميـر المؤمنين، فلما جلس بين يديه إذا هو رجل جميل الوجه تقى البدن نظيف الثيـاب طيب الريح. إلا أنه قد شل جنبه الأيمن وكان لا يمشى إلا ثقيـلاً متباطئًـا وكأنما يجر جنبه جـراً، قال على فأقبلت عليـه بوجهى وجعلت ألاطفه وقـلت له من أنت يرحمك الله وما شأنك؟ قـال شأنى شأن من أخذ بالعقوبة ومن عق أهله، قلت له ومـا اسمك؟ قال: منازل بن عدى، فقلت له ما هى قصتك يا أخى؟ قال: كنت مشـهوراً فى العرب باللهو واللعب والفسق والمجون، كنت أركض فى صبوتى ولا أفيق من غفلتى، إن تبت اليوم من ذنوبى عاودتها غداً، كنت أديم العصيان حـتى فى شعبان ورمضان، وكان لى والد لين الجانب رقيـق القلب كثير الشـفقة على والرحمـة بى، وكان يحضرنى كـثير من الجهال ويحيط بى جمع من الفسقة المفسدين، وكان والدى يحذرنى نهاية الغرور وعاقبة المعصية، ويقول يـا بنى إن لله عذابًا شديداً ونقمة مهلكة وهو يراقبك فى ليلك ونهارك وسرك وعلانيتك فلا تتعرض لغضبه وسخطه، يابنى كم ضج منك الظلام وصاحت منك الملائكة الكرام والشهر الحرام والليالى والأيام فكنت أعصيه وأسخر بنصحه فكان يلح علىّ ويبالغ فى الرجاء، فلما رأيت منه ذلك قمت إليه فضربته ضـربًا موجعًا وكنت له بالمرصاد كلمـا ألحف على فى نصحه بالغت فى ضربه وإهانته، فلا سئم هو من نصحه لى ولا رجعت عن إهانتى له، فلما يئس من برى له وطاعتى لأمره قال:

والله لأصومن ولا أفطر ولأقومن الليل ولا أنام ولأدعون عليك ربى، وقد صدق وعده فواصل صيامه بقيامه وظل هكذا حتى جاءت أيام الحج فتوجه إلى بيت الله الحرام وقال وهو متوجه إليه. والله لأفدن إلى بيت الله ولأستعيذن عليك الله، فقدم إلى مكة يوم عرفة يوم الحج الأكبر، فطاف وسعى وقضى من المناسك ما كتب له، فلما كان الليل وهجع الناس فى مضاجعهم تعلق بأستار الكعبة وجعل يجار بالبكاء ويقول:

يا من إليه أتى الحجاج من بعد
يرجون لطف عزيز واحد صمد
هذى منازل ما قد خاب قاصدها
فخذ بحقى يا رحمن من ولدى
وشل منه بجود منك جانبه
يا من تقدس لم يولد ولم يلد

فوالذى رفع السماء وأنبع الماء ما أتم دعاءه حتى شل جانبى الأيمن وظللت كالخشبة الملقاة بأرجاء الحرم، وكان الناس يغدون على ويروحون دهشين متعجبين ويشيرون إلى قائلين: هذا الذى أجاب الله فيه دعاء أبيه، قال الإمام رضى الله عنه وهل كنت مع أبيك يومئذ داخل الحرم حينما كان يدعو الله عليك؟ قال نعم خرجت خلفه أترضاه وأرجوه فلم أدركه ولم أره إلا وهو متعلق بأستار الكعبة، فقلت له وماذا فعل أبوك بعد ذلك قال لقد رجوته وتوسلت إليه أن يدعو الله لى بالشفاء وما زلت به حتى أرضيته عنى وقد رق قلبه لى وأجاب رجائى ووعدنى أن يذهب معى إلى مكة فى العام القادم فلما جاء الموسم خرجت معه إلى مكة وحملته على ناقة وما زلنا نسعى حتى وصلنا إلى وادى الأراك، وبينما كنا نمر على شجرة إذ نفر طائر من وكره فذعرت الناقة فألقت بأبى من فوق ظهرها فدقت عنقه.

قال على يا أخى إن أمرك لعجيب وإن خبرك لقريب، فما الذى صنعت بعد ذلك؟ قال منذ هذا اليوم وأنا أتحامل على نفسى وأحج بيت الله وأسأله أن يغفر لى ويقبل توبتى ويعافينى من هذا البلاء، قال سيدنا على رضى الله عنه:

ألا أعلمك دعاء سمعته من رسول الله وما دعا به مهموم إلا فرج الله عنه، فقال لى لا أحب إلى من ذلك، فقلت له إن شئت أن يعافيك الله مما أنت فيه فقل إذا أصبحت وإذا أمسيت **«اللهم إنى أسألك يا عالم الخفية، ويا من السماء بقدرته مبنية، ويا من الأرض بعزته مدحية، ويا من الشمس والقمر بنور جلاله مشرقة ومضية، يامقبلا على كل نفس مؤمنة زكية، يا مسكن رعب الخائفين وأهل التقية، يا من حوائج الخلق عنده مقضية، يا من نجى يوسف من رق العبودية، يا من ليس له بواب ينادى ولا صاحب يفشى سره، ولا وزير يعطى ولا غيره رب يدعى، ولا يزداد على كثرة الحوائج إلا كرما وجودا، أعطنى سؤالى إنك على كل شىء قدير»**.

قال على رضى الله عنه تمسك بهذا فإنه كنز من كنوز العرش، قال سيدنا الحسين رضى الله عنه فوالله لقد استجاب الله دعاءه، وأزال عنه بلاءه ورأيته سليما معافى كأن لم يكن به سوء.

وفى الحديث القدسى عن الله عز وجل: «يا موسى إن كلمة واحدة من العاق تزن جميع جبال الأرض، فقال سيدنا موسى وما ذلك يا رب؟ قال له الله عز وجل إذا قال الولد لوالديه لا لبيك»، ولذلك كان يتوقاه الصالحون من الصحابة والتابعين.

قالوا إن سيدنا على زين العابدين ابن سيدنا الحسين رضى الله عنهما كان لا يأكل مع أمه فى طبق واحد، فقال له واحد من أصحابه مالك لا تأكل مع أمك فى طبق واحد وأنت من أبر الناس؟ فأجابه رضى الله عنه بقوله أخاف أن تسبق يدى يدها إلى شىء تشتهيه نفسها فأكون قد عققتها من حيث لا أدرى.

وقيل لعمرو بن ذر كيف بر ابنك بك قال إنه من أبر الناس بى، فوالله ما مشيت نهارا إلا مشى خلفى ولا سرت ليلا إلا مشى بين يدى، ولا صعد سطحًا وأنا جالس تحت سقفه.

وقال سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لقد كان لى صديق ما رأيت مثل بره قط، كبرت عنده أمه فكان يخدمها بنفسه ويغسل عنها القذر بيده

ويكرمها كثيراً ولا يصرف وجهه عنها، وفى سنة من السنين أراد أن يحج فقالت له خذنى معك فأجابها إلى ما سألت، وقد رأيته فى الكعبة وهو يحملها على كتفيه ويطوف بها، فسلمت عليه ودعوت له بخير، فقال لى يا عبد الله أترى أنى قد كافأت أمى وأديت لها حقها، فقلت له لا والله ما كافأتها ولا بأنة واحدة صاحت بها عند الوضع وقد أخذها الطلق وجاءها المخاض، إنك يا سيدى تفعل بها ما تفعل من الخير وأنت تتمنى لها الموت أما هى فكانت تفعل بك أضعاف ذلك وهى تتمنى لك الحياة، وأراك أحسنت والله يحب المحسنين.

«وجاء رجل إلى رسول ﷺ فقال له يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأقمت الصلاة وآتيت الزكاة وصمت رمضان وحججت البيت. فمع من أكون فى الجنة؟ فقال له النبى ﷺ تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما لم تعق والديك. واعلم أن من الكبائر أن يشتم الرجل أباه ويسبه فقال وكيف يسب الولد أباه يا رسول الله؟ فقال يسب أب رجل فيسب الرجل أباه».

وقال الأصمعى خرجت يومًا إلى البادية فرأيت رجلاً كبيراً قد أضعفه الهرم وأثقل كاهله المشيب ولكن رأيت فى عنقه حبلاً ودلوا وهو ينزح من بئر عميقة والفصل صيف والجو قائظ حار، ورأيت خلفه شابًا قويًا يضربه إن توانى وينهره إن أبطأ، فأخذتنى الشفقة عليه والرأفة بحاله، فأقبلت على الشاب وقلت له أو ما تتقى الله فى هذا الشيخ الضعيف، أو ما يكفيه ما يعانى من ضعف وهزال فى هذا الحر الشديد، فزجرنى الشاب وقال لا شأن لك به فهو أبى وأصنع به ما أشاء، فتعجبت من أمره وقلت له إن هذا عذر أقبح من الذنب فلا جزاك الله عن والدك خيراً، فقال الشاب وقد أخذه الغضب لا تدع على يا سيدى فإنه كان يفعل هذا بأبيه، فانصرفت عنه وأنا أقول فى نفسى: إن لله فى خلقه شئون، ثم واصلت رحلتى بين الأعراب حتى مررت ببستان نضير يانع الثمار متفتح الأزهار، فقلت آوى إليه من لفحة الجو ولهيب القيظ، فلما دخلته رأيت رجلاً وإلى جانبه زنبيل نظيف ملىء بقطن مندوف كأنه والله الحرير والديباج، ورأيت فوق هذا القطن شيخًا كبيراً والرجل يطعمه بيده شهى الثمار وجنيها، فقلت له يا

أخى يرحمك الله من يكون هذا الشيخ؟ فقال إنه أبى وقد تقدمت به السن وطال به العمر وأنا أقوم على راحته بنفسى ولا أتركه لغيرى، فقلت جزاك الله عن برك بوالدك أحسن الجزاء، ثم عدت من رحلتى هذه وقد رأيت أعق الناس وأبر الناس.

وقال محمد بن إسحاق مرض رجل من جيراننا وكان يعيش مع زوجته وأولاده فى منزله ولم يكن معه غيرهم من أهله، لأن أمه كانت تسكن بعيدا عنه، ولما علمت أمه بمرضه جاءت إليه تعوده وكان عنده طعام شهى وفاكهة وشراب فأرادت زوجته أن تكرم أمه بشىء مما عندها فأبى عليها الزوج ذلك وقال دعيها تخرج لشأنها، فانصرفت أم الزوج وبعد قليل وصلت أم زوجته فهش لها وفرح بها وأمر زوجته أن تقدم لها أشهى وأغلى ما عندها من طعام وشراب ففعلت، فلما مضت إلى سبيلها غضبت عليه زوجته وأنكرت عليه فعله وصممت على فراقه فاجتمع الناس عليهم وقالوا لها إنك لا تفهمين ولا تعقلين إنه فعل ما فعل إرضاء لك وتقربًا إلى قلبك وحبك، فقالت لهم الزوجة إنى أعلم ذلك ولكننى لا أنظر إلى اليوم وإنما أنظر إلى المستقبل فعما قليل يكبر سنى ويتزوج ابنى وسوف يفعل بى ما فعل أبوه بأمه، فشكر الناس لها عقلها واعترفوا بفضلها وإنها كانت على صواب.

وخير مانختم به هذا الباب قصة أبى كلاب مع سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد روى ابن الأثير فى كتابه أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قدم على سيدنا عمر وكان شيخًا عجوزًا، فرحب به عمر وأجلسه قريبًا منه وسأله عن شأنه، فشكا له فقره وسوء حاله بعد غياب ابنه كلاب، فقال له سيدنا عمر وأين ذهب ابنك؟ قال خرج مجاهدًا فى سبيل الله تحت راية سعد بن أبى وقاص وقد بكيت عليه حتى ذهب بصرى وكل جسدى وضعفت قواى، فلما سمع منه عمر قصته رق لحاله وبكى توجعًا له ثم كتب من فوره إلى أمير الجند أن يبعث إليه بكلاب هذا فأرسله سيدنا سعد إلى المدينة، فلما دخل على عمر قال له أأنت كلاب؟ قال نعم يا أمير المؤمنين فهل من حاجة، قال له بلغنى أنك كنت بارًا بوالدك فما بلغ من برك به، فقال كلاب يا أمير المؤمنين إنى كنت أكفيه

كل أمره فقال عمر يا كـلاب وما أحب شيء كنت تلقاه به؟ قال كنت أعمد إلى أسمن ما فى الإبل فأغسل أخـلافها ثم أسقيها وأريحهـا وأتركها حتى يبرد اللبن فى ضرعها ثم أحضر إناء نظيفًا فأحلب له وأسقيه حتى يكرع، فلا يرفع عن فمه الإناء حتى يتـجشأ شبعًـا، فتعجب سـيدنا عمر من قـوله ودهش من بره بأبيه، وقال لكلاب كن هنا فى صمـت حتى أرسل إليه ليحضـر هنا وافعل به ما كنت تفعل معه قبل خروجك إلى الجهاد، فإنى أحب أن أرى برك بأبيك وأشهد بعينى رأسى ثم أرسل سيدنا عـمر إلى أبى كلاب فجاء إليه وقـد ضعف بصره وانحنى ظهره وارتعشت يداه، فقام إليه عمر ورحب به وأجلسه إلى جواره ثم سكت عنه قليلاً والتـفت إليه وقال: كيف أنت يا أبا كـلاب؟ قال يا أمير المؤمنين كـما ترى ضعفا على ضعف ووهنًا على وهن وشوقًا مبرحًا إلى رؤية كلاب، فقال له عمر هل لك حاجـة تشتهـيها؟ قال نعم يا أمـير المؤمنين أن أرى كلابًا قـبل أن أموت وأضمه ضمة حانية، وأقبله قبلة حارة أطفئ بها ظمئى، وأسكن بها لوعتى فتأثر عمر بقوله واهتز لمنظره وقال له يا أبا كلاب ستبلغ ما تحب إن شاء الله، ثم أشار إلى كلاب أن يحضر له اللبن الذى كان يعـده له، وأن يصنع به مثلما كان يصنع ففعل كـلاب وأحضر له اللبن بالطريقـة التى كان يحضرها، ثم أعطاه إلـى عمر فأسلمه عـمر بدوره إلى الشيخ وقال اشرب لبنًا يا أبا كـلاب، فأقبل على الإناء يعب منه عبًا حـتى إذا شبع رفع فمه عنه وقال: يا أمير المؤمـنين إنى أحس شيئًا عجيبًا فقال سيدنا عمر وما ذاك يا شيخ؟ قال أرى صنيع ولدى كلاب وريح يديه فى هذا الإناء ولقـد برح بى الشـوق يا أميـر المؤمنين ثم هطلت عـيناه بوابل من الدمع الغـزير، وعند ذلك رق لـه عمـر وقـال: يا شـيخ. هذا كـلاب أمـامك فاحتضنه، فجعل يضمه إلى صدره ضـمًا ويوسع خده لثمًا ويلتزمه عناقًا، وكأنما هو أمل تجسد وحلم تحـقق، حتى إذا اشتفى صدره وسكن وجـده وهدأت لوعته وجفت دموعه قـال له سيدنا عمر يا كلاب الزم خـدمة أبيك ورزقك جار عليك كما لو كنت تجاهد فى سبيل الله، فشكره أبو كلاب ودعا له بخير فقال له سيدنا عمـر أكنت تناجيه يا أبا كـلاب قبل أن يجيء إليك؟ قال نعم يا أمـير المؤمنين، لطالما ناجيته فى خلوتى ووحدتى، فقـال له فماذا كنت تقول؟ قال كنت أقول إذا أضر بى الوجد وهام بى الشوق هذه الأبيات، وأنشد:

لمن شيخان قد نشدا كلابا
كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيعرض فى إباء
فلا وأبى كلاب ما أصابا
تركت أباك مرعشة يداه
وأمك ما تسيغ أبدًا شرابا
فإنك وابتغاء الأجر بعدى
كباغى الماء يتبعه السرابا

فلم يفرغ من قوله حتى أبكى عمر وأبكى جميع الحاضرين ثم انصرف والجميع يتبعونه أنظارهم وكان حديث المدينة حينًا من الزمن عن كلاب وأبى كلاب.

وعلى كل حال فإن الأبناء مهما قدموا لآبائهم من بر، أو حاولوا ذلك فلن يبلغوهم حقهم لأن ذلك ليس فى طوق البشر أن يقدروه، والرجل الموفق هو من يحرص على الخير جهده حتى يحصل على ما يستطيع الحصول عليه، جاعلاً نبراسه المنير فى ظلمات الحياة والشهوات قول العليم الخبير ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[1].

ومن طريف ما يحفظه السلف الصالح أن ولدًا بارًا بأبيه كان صالحًا وكان يبذل جهده لينال رضا الله ويكتسب محبة والده، وفى يوم من الأيام أعجبه بره بوالده واغتر بكثرة إحسانه إليه وجميل فضله عليه، فقال لأبيه يا أبت: إنى أريد أن أصنع بك من البر والخير أضعاف ما فعلته بى فى صغرى من الجميل والإحسان، ووالله لا تطلب شيئًا مهما كان عسيراً إلا يسرته لك أو بعيدًا إلا قربته منك، وكان الوالد حكيمًا مجربًا فلم يشأ أن يصدمه فى مشاعره، أو يجرح إحساسه ووجدانه. فقال له يا بنى لست أشتهى شيئًا فى الحياة إلا رطلاً من التفاح فأسرع الابن فأحضر له أرطالاً ووضعها بين يديه وقال له خذ منها

حاجتك أو خذها كلها فإذا فرغت من تناولها أحـضرت لك أضعاف أضعافه فأنا على كل شىء قـدير، فقـال الأب العجوز إن فـى هذا القدر من التـفاح كـفاية لنفسى وسد حاجتى، ولكن لا أريد أن آكله هنا ولا تطيب نفسى إلا بتناوله فوق قمة هذا الجـبل، فاحملنى إليه يا بنى إن كنت باراً بى، فـهش الابن لمطلبه وقال لك هذا يا أبى، ثم وضع التفاح فى حـجره وحمله على كتفـه وصعد به أعلى الجبـل وأجلسه فى مكان هادئ مـريح ووضع التفـاح بين يديه وقال له خـذ منه حاجـتك فإن نفسى طيـبة بذلك فجـعل الوالد يأخذ التـفاح من طبقـه لا ليأكله ولكن ليرمى به فى أدنى الجبل فإذا فرغ منه أمر ولده أن ينزل فـيجمعه له ويعيده إليه في أعلى الجبل حـيث هو جالس مستريـح، وتكرر ذلك ثلاث مرات وكلما قذف به الأب يعـيده الابن وفى المرة الرابعة نفـذ صبر الولد وضاق صـدره وكاد يفتك بأبيه لولا أن فطن أبوه إلى منظر الغضب فى وجـهه فروح عن نفسه وربت على كتفه وقال له: لا تغـضب يا بنى ففى نفس هذا المكان ومن فوق هذا الجبل كنت ترمى بكرتك فأنزل مـسرعًا لأعـيدها إليك، ما أخذنى الملل ولا أجـهدنى التعب حـرصًا على إرضائك وأنت صـغير، وصـدق رسول الله ﷺ فى تأديبه لأمته وتقويمه لأخلاقها.

«سددوا وقاربوا فإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

وفقنا الله جميعًا إلى الخير والبر وجنبنا الجفاء والعقوق.

فى فضل صلة الرحم وذم القطيعة

الرحم هم أقارب الإنســان وأهله وهم جزء منه وبعض من دمـه وعَصَبَـته مهما تغـيرت بهم الأيام أو تقلبت بهم الأحوال لا يبعدهم عن الإنــسان فقر ولا مرض، ولا يقطعهم عن أهلهم عسر ولا شدة ولا يحول بينهم وبين قريبهم غنى ولا ثراء، لأن الله سبحــانه وتعالى أمر بصلتهم على كل حــال وطلب الإحسان إليــهم فى كل وقت وحين والتــغاضى عن زلاتــهم وغفــران إســاءتهم ونسيــان هفواتهم حتى تظل صدورهم سليمة من الحقد والحسد، وقلوبهم نظيفة من الغدر والغل ونفــوسهم نقيــة من العداوة والبــغضــاء فلا يفكرون فى شر ولا يــتمنون لأهلهم ضراً، ولا ينحــرفون إلى معصــية وفساد، إذا رأوا أهلهم فى نعــمة تمنوا لهم الكثـير منها والبــركة فيــها، لأن خـير أقاربهم يعــمهم وأشجــارهم تظلهم وثراءهم يصل إليــهم، وطعــامهم ملء بــطونهم وأفواههم وهــم تبعــا لذلك لا يشحون على أقاربهم بما يملكون من قوة، ولا يبخلون عليهم بما يقدرون عليه من معونة ومنفــعة ولا يقفون مكتوفى اليد إن هــجم عليهم خصم أو نزل بهم بلاء، وحتى إذا لم يكن عنــدهم شىء من ذلك كله أعطوهم قلوبهم ومنحوهم حــبهم وأكثروا لهم من الدعاء أن يتم الله عليهم نعمته ويضاعف لهم كرامته ويطيل لهم فى عمــر الصفــاء والهناء، فهم فى أيام الــرخاء والصفــاء ألسنة ناطقة وكــلمات صادقة يتحدثون بمجد أهليهم ويفخرون بعزهم ويتشرفون بالانتساب إليهم، وفى أيام الشدة والبلاء تراهم أعوانًا صــادقين وجنودًا مهاجمين وقلاعًا شامــخة شماء فى وجه الأعداء والخصوم، يصدون غارتهم ويكسرون شوكتهم ويردون سفاهتهم يأبون كل الإباء أن يلحق بأقاربهم عــار أو ينزل بساحتهم خزى أو يصيــبهم سوء أو مكروه، أو يتقول عليــهم أحد منكرا أو قبيحًا، وكل ذلك بثــمن زهيد يدفعه الأغنياء لأقــاربهم الفقــراء وذوى رحمهــم المعدمين، إنه ملء بطونهم بفــضلات أطعمتهم وستر عوراتهم بقديم ثــيابهم وخلقانهم، وتندية أكفهم بما تيسر لهم من صدقة أو زكاة، إنه الابتسامة المشرقة فى وجــوههم والكلمة الرقيقة فى أسماعهم

والمحبـة الصادقة فى السـؤال عن غائبهـم وعيادة مـريضهم ومواسـاة حزينهم، وتقريب فقيرهم والوقوف معهم فى الشدائد والملمات.

وهذا بحق ثمن زهيـد لو قـيس لما يدفـعه الفـقـراء فى مقـابله لأقـاربهم الأغنيـاء، إنهم يدفعـون ماء وجـوههم وأغلى ثنائهم ومديحـهم وأثمن حبـهم وولائهم، وقد يدفـعون دماءهم أحيـانا فداء وقربانًا لأقـاربهم الأغنياء إن دعت الظروف أو تحكمت الأحوال.

قالوا إن أبا سـفيـان كان جالسـا فى ناديه وحوله كـثير من أبـنائه وأقاربه الأغنياء، فـدار بينه وبين رجل من بنى مخـزوم نقاش فى أمـر من الأمور، ولم تمض إلا سـاعة حـتى تطور النقاش إلى جـدال والجدل إلى تحـد والتحـدى إلى خصومة وسباب حتى أحرج أبو سفيان وضاق صدره ودارت عينه فى أوجه أبنائه وأقاربه الأغنياء يطلب بينهم المعين والنصير ليدفع عنه ذلك الشر الذى كاد يفتك بعزته ويودى بمكانته ويمرغ شرفه وأنفـه فى الرغام، ولكن أحدًا من أبنائه وأقاربه لم يحقق له رغبـة ولم يجب له نداء خوفًا على نفسه وحرصًـا على ماله وإبقاء على سمعتـه ورعاية لأبنائه وأزواجه حتى لا يفارق ما هو فيـه من نعيم ومتاع. فلمـا تأزم الموقف بأبى سـفيـان وأخـذه الحرج مما هو فـيـه انبرى صـعلوك من صعاليك بنى أمية إلى الرجل المخزومى فأخـذ بتلابيبه وخناقه ثم رفعه إلى أعلى وصفع به وجـه الأرض فشجت رأسه وسال الدم من أنـفه وكاد يموت، وآن ذاك سرى عن أبى سفـيان وقال للحاضـرين (والله ما أود أن لى بهذه الصفـعة الدنيا وما فيها وقد ذل من لا سفيه له).

ولذلك كـان سيـدنا على رضى الله عنه يقول: «أكـرموا أقـاربكم وصلوا أرحـامكم وإن كـانوا فـقـراء فإنهـم زينتكم فى الرخـاء وعـونكم على البـلاء وسلاحكم وعـدتكم على الخصوم والأعـداء يكثرون عددكم ويرهبـون أعداءكم ويكسبونكم فى أعين الناس مهابة وجمالاً».

أما القاطعون لأرحامهم والمجافون لأهليهم والمتعاظمون على فقرائهم وأبناء جلدتهم، ويأبون إلا أن يعـيشوا لأنفـسهم ويتفـردون بنعمـتهم فإن الله سـيغنى

أهلهم عنهم ويعطيهم من فضله ويرزقهم من جـوده، ثم يبوء القاطع بسخط الله وغضبه ويرجع بحقد أهله وحسدهم ولا يكون نصيبه منهم إلا غضبهم عليه وكثرة إساءتهم إليه ودعاءهم ليل نهار أن يذهب الله نعمته ويزيل عزته وكرامته، وأن يجعل نصيبه من كل هذا الشراء الشقاء والبلاء والطرد والحرمان، وأخيرا يخرج من الدنيا ليلقى الله بدون حسنة صنعها أو معروف قدمه أو جميل أسداه.

ومن يك ذا فـضل فـيبـخل بفـضله

علـى قـومـه يسـتـغن عنـه ويذمم

وقد جاء عن رسول الله ﷺ فى فضل صلة الرحم أحاديث كثيرة وآثار عديدة، وكلها تتحدث بما فى الصلة من أجر وتشهد بما لها من منزلة عند الله.

فقد جاء فى حديث قدسى عن الله عز وجل: «**أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الرحم وشقـقت لهـا اسـمًا من إسـمى فـوعـزتى وجـلالى لأصلن من وصلهـا ولأقطعن من قطعها ولا أرضى حتى ترضى**»، ثم قرأ الرسول ﷺ ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾.

وقالوا إن الرسول ﷺ كان جالسا ذات يوم مع أصحابه فى المسجد يعظهم ويذكرهم ويدارسهم العلم والقرآن فسكت عن الحديث لحظة ثم قال لأصحابه: «**لا يحضرن مجلسنا اليوم قاطع رحـم فإن رحمة الله عز وجل لا تنزل على قاطع لرحمه**» وكان فى مجلس رسول الله فتى من الأنصار وكان قاطعا لرحمه فنالت منه هذه الكلمة وحركت فى قلبه عوامل الشفقة والرحمة وأسالت فى نفسه منابع الرأفة والإحسان فقام من مجلسه فوراً فأتى خالته وكان بينه وبينها شىء فاستسمحها وسألها المغفرة، فاستغفرت له وسامحته فى كل ما كان لديه من حقوق لها ثم عاد إلى مجلس رسول الله وهو طيب النفس رضى القلب ناعم البال، فرحب به الرسول وأثنى عليه وقال يدعو له: «**وصلك الله كما وصلت رحمك**» وجاء عن الرسول ﷺ أنه قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة فى الأهل مثراة فى المال منسأة فى الأجل**».

وقد روى أبو داود فى سننه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له «يا رسول الله إنى أذنبت ذنبًا وإنى أخاف الله فهل لى من توبة؟ فقال له النبى: **«يا هذا ألك أم؟»** قال: لا. فقال: **«هل لك من خالة؟»** قال: نعم. فقال له النبى ﷺ: **«اذهب إليها فبرها وأحسن إليها وصل ما انقطع من رحمها يغفر الله ذنبك ويذهب همك ويكفر عنك كل خطاياك»**.

وقد بلغ من سماحة الدين الإسلامى وسموِّه عن المحقرات والدنايا، وترفعه عن سفاسف الأمور أنه لا يرى صلة الرحم تجارة يدفعها القريب إلى قريبه ليأخذ منه ثمنها ويتقاضى عنها بدلها، ولكنه يربى أبناءه وأتباعه على أن تكون كل أعمالهم الصالحة من البر والخير والجميل والمعروف والجود والإحسان ابتغاء مرضاة الله وخصوصًا صلة الرحم التى أعظم الإسلام أجرها ووعد عليها الثواب الأوفى والعطاء الجزيل، وفى ذلك يقول نبى الرحمة ومعلم الأمة وخاتم النبيين **«ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل هو الذى إذا قطعت رحمه وصلها»**.

ثم يمضى رسول الله فيؤدب أمته بما أدبه به ربه، ويعلمهم طرفا من فضله الذى آتاه فيقول ﷺ: **«أوصانى خليلى بتسع أوصيكم بهن، الإخلاص فى السر والعلانية، والعدل فى الغضب والرضا، والقصد فى الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمنى، وأعطى من حرمنى. وأصل من قطعنى. وأن يكون صمتى فكرا، ونطقى ذكرا، ونظرى عبرة»**.

وجاء إليه رجل وقال يا رسول الله إن لى أقارب من أهلى أصلهم ويقطعوننى وأحسن إليهم وهم يسيئون إلى، وأحلم عليهم وهم يجهلون على، فقال له النبى ﷺ: **«الزم إحسانك إليهم وإن كنت صادقًا فيما تقول فكأنما تطعمهم المل. أى النار. ولا يزال معك من الله ظهير ومعين مادمت على ذلك»**.

وجاء عنه أيضًا أنه قال: **«أفضل الصدقة صدقة على ذى الرحم الكاشح»** «أى المبغض المجافى سيئ الطبع» وقد تلمس عظمة الإسلام لمسا مباشرا وتحسها إحساسًا ملموسًا إذا أمعنت النظر فى هذا الحديث وأطلت الفكر فى ألفاظه ومعانيه، يقول ﷺ: **«لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسنت الناس أحسنا وإن**

أساءوا أسـأنا. ولكن وطنوا أنفسـكم إن أحسن الناس أن تحـسنوا وإن أساءوا لا تسيئوا. واعلموا أن ثلاثة من كن فيه أدخله الله الجنة. أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك».

وقال سيدنا عثمـان بن مظعون رضى الله عنه كنت صديقًا لرسول الله ﷺ قبل البـعثة. فلمـا أكرمه الله بنعـمة النبوة وكـرامة الرسالة دعـانى إلى الإسلام فأسلمت حيـاء منه وإرضاء لشخصه دون أن يدخـل حب الإسلام قلبى ومازلت «ما أنا عليه أزوره مـجاملة وأتردد عليه مصـانعة وأصحبه على غـير دين، حتى جلست عنده يوما فـهبط عليه جـبريل بقرآن من السـماء. فلما سـرى عنه قرأه الرسول علينا فإذا فيه: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون**﴾ فوقع حب الإسلام يـومئذ فى قلبى فخرجت من عنده وأتـيت عمه أبا طالب فأعلمتـه بالقرآن الذى نزل يدعو إلى صلة الرحم وإكـرام ذوى القـربى فقـال لى أبو طالب يا ابـن أخى. اتبعـوا محمدًا فإنه يأمر بمكارم الأخلاق وكونوا مـعه على دينه تفلحوا. فاستقر الإسلام فى قلبى وعدت إلى رسـول الله فأخبرته بما قـال عمه أبو طالب. فطابت نفـسه بذلك وطمع فى أن يدخل الإسـلام، ولكن القـدر كـان غالبًـا والقـضاء كـان محـتومًا، ولم يقتـصر الإسلام على أن يدعـو أبناءه إلى صلة أرحامهم الأحـياء فحسب، ولكنه تجاوز ذلك إلى صلتهم أمواتًا فى قبورهـم فقد ثبت أن رجلا كان جالسًا عند أختـه وهى تجود بروحها، فكان يعظها ويذكـرها ويشرح صدرها إلى لقاء الله، فقالت له جزاك الله عن أختك أحسن الجزاء وأثابك أجزل المثوبة ولقد وصلت رحمى وأنا حية فلا تقطعه وأنا مـيتة، ولا توحشنى فى قبرى فإنى آنس بك ميتـة أكثر مما كنت حية، فصل حـبل ودى وأنا ميتة كما وصلتـه وأنا حية، والآخرة أحوج إلى البر من الدنيـا فلا تنس صلتى بدعائك لى ولا تقطع رحمى بترك الصلاة على فبكى أخوها وقرأ قوله تعالى: ﴿**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**﴾[١].

---

(١) الإسراء: ٢٥-٢٦ .

ومن عظمـاء الرجال ونبـلائهم من وجد عـزته فى صلة رحمـه ولذته فى الإحسـان إليهم ومـتاعـه وسروره فى غـفران ذنوبهم وقـضاء حوائجـهم وإزالة همومهم وكربهم حتى وإن أساءوا وقابلوا الإحسان والمعروف بالجحود والإنكار، ومنهم عمرو بن معد الذى أثر عنه قوله:

سـهـرت وأقـوامى الخـليـون نوم
ومـا أنا ذو ثأر ولا أنـا مـغـرم

ولكـن همـا بـين جنبى هـاجـه
على ذوو الـقـربى عـفى الله عنـهـمـو

فـإن يك حلـمى مـذ أعناق جـهـلهم
فـلازلـت فـيـهم يـجـهـلون وأحلم

ومـا أسـفـى من أن أمـوت وإنـنى
لأعـلم أن المـوت شئ مـحـتـم

بل أسـفـى أنى إذا مـت قـبـلـهم
أضـيمـوا ولـم أسـمـعـهمـو إن تظلمـوا

فأى نبـل يتجلى فى هذا الكلام وأى روعـة تتخلل ألفـاظه ومعـانيه، أى شهامـة ومروءة تتدفق من هذه الأبيات، إنه لا يحزن على نفـسه أنه مات ولكن يحزن على الضعـفاء من قومه والفقراء مـن عشيرته أن يعضهم الفـقر بعده، أو تهـجم عليـهم صـروف الدهر بعـد مـوته، أو تنتـابهـم الكوارث والخطوب ثم يستغيثـون بشجاعته ويستنجدون بمروءته وينشدون نواله فلا يجـدون إليه سبيلاً، على الرغم من أنهم أو غـروا صدره وأهاجوا أحـزانه وأشجـانه، ولكنه لنبله لا يقابل إساءتهم بـإساءة مثلها وإن كان فى ذلك مـرارة على نفسه قد لا يحـتملها وظلم قد لا يطيقه، فما أمر إساءة الأهلين وما أقسى ظلم الأقربين.

وظلـم ذوى القـربـى أشـد مـرارة
علـى المرء من وقـع الحـسـام المهـند

ولقد كان سيدنا عمر بن عبد العزيز من بنى أمية نسبًا ولكنه لم يكن منهم دينًا وخلقًا وزهدًا وورعًا، وصلته لرحمه الأقربين وأبناء عمومته العلويين.

قالوا إنه دخل قصر الخلافة يومًا فأبصر على الباب سيدنا عبد الله بن الحسين واقفًا على بابه فضمه إلى صدره وقبله بين عينيه وأخذ بيده فأجلسه فى مجلسه، ثم قال له: يا ابن بنت رسول الله إن كانت لك حاجة عندى فاكتب إلى كتابًا أو أبعث إلى رسولاً ولا تأتنى بنفسك فإنى لأستحيى من الله أن يراك واقفًا على بابى، ثم قضى حاجته وودعه إلى باب قصره، فشكر له عبد الله حسن صنيعه وقال له: أبرك الله برحمك فليت بنى أمية كلهم عمرُ.

وقالوا إن الرشيد قابل رجلاً من قبيلة كلب اسمه عدى فسأله عن كبيرهم وسيدهم واسمه هشام، فقال يا عدى بم بلغ فيكم هشام من السيادة والقيادة ما بلغ وليس بأشجعكم فى الحرب ولا بأضربكم للسيف، إنه قصير دميم، فقال عدى مهلاً يا أمير المؤمنين، لقد تجمعت فيه المحامد والمكارم والتقت فيه المحاسن والمناقب، إنه يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويعطى فقيرنا ويعود مريضنا ويواسى مهمومنا ويعلم جاهلنا ويقوى ضعيفنا ويكثر قليلنا. ويطعم جائعنا وينفس مكروبنا، وما من عظيمة نزلت بقومه إلا تحملها عنهم بماله، ولا نائبة نابتهم إلا كان معهم فيها، يدفع عن قومه بحجته وينافح عنهم بنفسه وثروته، الكل يعرفون له قدره ويمدحونه إن عنَّ ذكره، ننام عن مصالحنا ويذكرها وتنسى ديوننا وهو لا ينساها، وإن ذبح ذبيحة كان حظه منها كحظ الفقير من أهله، وإن حصد حديقة كان نصيبه كنصيب غيره، لا تمل منه المكارم ولا ترهبه العظائم فهو كما قال الشاعر:

خليل إذا جئته يوما لتسأله
أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعه والله يظهرها
إن الكريم إذا أخفيته ظهرا

فقال الرشيد والله لو أن هذه المكارم فى عبـد مملوك لساد قومه بهذا الإيثار فيحق لكم أن تجلوه يا عدى.

وقال الربيع حاجب المنصور كنت جالسًا مع أبى جـعفر المنصور يومًا فقال لى يا أبا الفضل، أريد أن تحضـر إلى جعفر بن محمـد العلوى مكبلاً بالسلاسل والقيود، قـال الربيع فقلت فى نفسى أية بلية هذه، ثم قمت من سـاعتى ومعى الجنود والأعوان وتوجـهت إلى منزل جعـفر بن محـمد فدخلت عـليه وقلت له أجب أمير المؤمنين الساعة، فقـال وماذا يريد منى أمير المؤمنين فقلت له ألا تجب عليك طاعته؟ فـقال دعنا من هذا حتى أتوضأ وأصلى ركـعتين فلعل ذلك يكون ختام عملى، فتركـته حتى صلى فأوثقته بالسلاسل والقيود فجـعل يحرك شفتيه بكلمات ما سـمعتها، فلمـا وصلنا إلى الخليفة وجدناه قـد أنهى مجلسه ودخل منزله، فأودعت جعفر فى السجن حتى يطلع النهار، فلما أشرقت الشمس وعقد مجلس الخلافة أخـذ أبو جعفر مكانه من صدر المجلس وأذن لى بإحضـار جعفر فدخلت به عليه مكبـلاً مغلولاً، فسلم على الخليفة فـلم يرد عليه السلام ولكنه قال يا جـعفر إن مما نحـفظه وتحفظه مـعنا قول النبى ﷺ: «**ينصب للغادر لواء يعرف بـه يوم القيـامة**» وقد بلـغنى أنك تؤلب على دولتى الناس وتجمـع العدة والعتاد لإزالة مـلكى، فقال جعفـر، يا أمير المؤمنين إن مما أحفظـه وتحفظه قول النبى ﷺ «**ينادى يوم القيـامة من بطنان العـرش ليقم من كان أجـره على الله فلا يقم إلا المتـفضلون والكاظمـون الغيظ والعافـون عن الناس**» فلم يسكن غضـبه وقال يا ربيع أدخله السجـن حتى أرى فيه رأيى غدًا، قـال الربيع فأخذته وأنا لا أشك أن الخليفة سيقتله، فلما كان الغد جلس الخليفة مجلسه رأيته متهلل الوجه باسم الثغر مـثلوج الفؤاد فتفاءلت خـيرًا ودخلت عليه لأسمع ما يقـول فقال يا ربيع. على بأبى محـمد اذهب فأزل عنه قـيده وفك غله وآنس وحشـته وطيب خاطره ثم ائتنى به مـعززًا مكرمًا، فخرج والله همى بقـوله وزحزح عن صدرى جبلاً كان جاثمًا عليه، فما كان أبغض إلى من شىء كدخول علوى وشى به إلى الخليفة، فبادرت إلى جعفر وفعلت به ما قال الخليفة وأكثر، وكان لا يزال يحرك شفتيه كمـا كان يحركهما ساعة القبض عليه فلمـا دخلنا على الخليفة قام إجلالاً

له، وخرج من مجلسه فسعى إليه وعانقه وأجلسه إلى جواره وقال معذرة، يا أبا محمد. فأنتم معدن النبوة ونبع الرسالة وإليكم ينتهى كل خلق حميد وعنكم تؤخذ السنة والكتاب، وأنا استغفرك هذه الإساءة، فقد قطعت عليك خلوتك وأفسدت عليك عبادتك وما كانت إلا وشاية ماكر كذاب، فلقد رأيت جدك محمد ﷺ فى منامى الليلة آخذا بيد عمه العباس فجعل يعاتبنى فى شأنك ويقرأ على هذه الآية من كتاب الله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(١) ثم ولى عنى مقطبًا، فاستيقظت من نومى فزعًا مذعورًا، فهل أنت غافر لى تلك الزلة يا أخى؟ فبكى جعفر وقال يغفر الله لى ولك ويا أمير المؤمنين.

وعند ذلك التفت إلى الخليفة وقال يا ربيع على بالغالية وهى نوع من الطيب الفاخر كان لا يستعمله إلا الخلفاء وكانوا إذا أرادوا إعزاز رجل طيبوه منه، فلما أحضرته طيبه قال يا ربيع ضاعف لجعفر جائزته ففعلت وانصرفت معه، فلما خلونا معا سألته عما كان يقول فى سره ساعة دخولى عليه، قال يا أخى كنت أردد هذا الدعاء وهو الدعاء الذى كان يردده النبى ﷺ عند الشدة، فيفرج الله همه ويكشف كربته، فقلت اسمعنيه يا أخى آخذه عنك، فقال لى هذا الدعاء «**اللهم احرسنى بعينك التى لا تنام واكفنى بركنك الذى لا يرام، واحفظنى بعزك الذى لا يضام، واكلأنى فى الليل والنهار وارحمنى بقدرتك على فأنت ثقتى ورجائى فكم نعمة أنعمت بها على عجز عنها شكرى وكم من بلية ابتليت بها عجز عنها صبرى وكم خطيئة ارتكبتها فلم تفضحنى فيها، فيا من قل عند نعمته شكرى ولم يحرمنى، ويا من قل عند بليته صبرى فلم يخذلنى، ويا من رآنى على الخطيئة فلم يعاقبنى، يا ذا المعروف الذى ينقطع أبدًا، ويا ذا الأيادى التى لا تحصى عددًا، ويا ذا الوجه الذى لا يبلى أبدًا ويا ذا النور الذى لا يطفأ سرمدًا، أسألك أن تصلى على محمد وآله وأن تكفينى شر كل ذى شر ظاهر، بك أدرأ فى نحره وأعوذ بك من شره وأستعين بك عليه، اللهم أعنى على دينى بدنياى وعلى آخرتى بالتقوى، واحفظنى فيما غبت عنه ولا تكلنى إلى**

(١) محمد: ٢٢ .

نفسى فيما حضرته، يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة اغفر لى ما لا يضرك وهب لى ما لا ينقصك، اللهم إنى أسألك فرجًا قريبًا وصبراً جميلاً وأسألك العافية من كل بلية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

قال الربيع فحفظته منه فكنت لا أدعو به فى هم إلا فرجه الله عنى ولا فى حرج إلا أخرجنى الله منه، فكنت أحفِّظه أولادى وأحبائى لينتفعوا ببركته.

ومما يدل على أن قطيعة الرحم تؤذى صاحبها فى الدنيا والآخرة وأنها لا يشفع معها عمل صالح مهما كان كثيرا ما جاء فى كتاب الزواجر لابن حجر، قال رحمه الله وأثابه: كان لرجل من أهل الكوفة مال كثير وكنوز وجواهر وفى سنة من السنين عزم على حج بيت الله الحرام فخاف على أمواله وجواهره سطو اللصوص وكان له صديق من الصالحين المعروفين بالإخلاص والتقى المشهورين بالعفة والصلاح فوقع عليه اختياره وأودعه كل أمواله ونفقائه ثم توجه قاصداً مكة ليؤدى فريضة الحج، فلما فرغ منها توجه إلى مدينة رسول الله فقضى حق الزيارة ثم قفل راجعًا إلى بلده وأراد أن يذهب إلى صديقه ليسترد منه وديعته وأمانته فقالوا له إنه قد مات فتوجه إلى أهله ليعزيهم فيه وليسألهم عن وديعته، فلما قضى واجب العزاء وترحم على صاحبه سأل زوجته وأولاده على أمانته عندهم، فقالوا لا نعلم لك أمانة عندنا، فقال لقد دفعتها إلى أبيكم قبل أن أخرج إلى الحج، فقالوا والله ما أعطانا شيئًا ولا أوصانا بشىء ولا أطلعنا على سر من أسراره، فحزن الرجل على نفسه وتحسر على ضياع ماله ووقع فى ورطة شديدة وتحير فى أمره ماذا يفعل وجعل يطوف على علماء الكوفة ومجالسهم فقالوا له ما عندنا فى ذلك علم ولا فقه فازاداد همًا على هم وضاق صدره أكثر مما كان، ومازال فى حيرة وارتباك حتى نصح له أحد العلماء العاملين أن يتوجه إلى علماء مكة فهم أهل حرم الله ولهم صلة قوية بالله، فلعله يجد عندهم من همه فرجًا ومخرجًا. فتوجه إليهم يرجو بركتهم ويطلب معونتهم وعرض عليهم مشكلته، فقالوا له لا نعلم لك مخرجًا إلا أن تمكث هنا حتى يأتى رجب الحرام تعبد الله وتطيعه وتكثر من ذكره تسبيحه فإذا جاء رجب فصم نهاره وقم ليله وأكثر من ذكره وتلاوة القرآن حتى إذا كانت الليلة السابعة والعشرون ليلة الإسراء

والمعراج، فقم إلى وردك حتى يأتى وقت السحر فصلِّ صلاة الحاجة وعلموه دعاءها وقالوا له تقول فى السجدة الأخيرة من الركعة الثانية «اللهم إنى أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك واسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامة، يا إله العالمين يا مجيب دعوة المضطرين أنت أعلم بحاجتى فصل روحى بروح فلان بن فلانة وسم اسمه واسم أمه ثم اختم دعاءك بالصلاة والسلام على رسول الله، فإن كانت وديعتك من مال حلال جمع الله روحك بروحه فسله عن وديعتك أين مكانها، فإذا لم يجمع الله روحك بروحه تلك الليلة فاعلم أن روحه سجينة معذبة فكرر ذلك سبع مرات فإن الله يشفعك فيه، وإن كان من الصالحين جمع الله روحك بروحه فى الليلة الأولى، ففعل الرجل كل ما أوصاه به علماء مكة ولم ير الرجل إلا بعد الليلة السابعة، فأيقن أنه من المعذبين، فلما التقى به سأله عن وديعته فأخبره عن مكانها، فلما اطمأن عليها سأله عن حاله فأخبره أنه معذب وأن روحه سجينة فى نار جهنم، فقال له يا أخى وما سبب ذلك وقد كنت من عباد الله الصالحين، تكثر الصلاة والصيام والإنفاق، قال نعم يا أخى كل ما تقوله حق ولكن ما أغنى عنى ذلك شيئًا، فقال له صاحبه ولماذا؟ قال لأنه كان لى أخت فقيرة وكانت أرملة تعول أيتاما، وكانت تذهب الأيام والأعوام أو تأتى فلا أرى وجهها ولا أصل رحمها ولا أعطف على أيتامها، فكانت تدعو على فأحبط دعاؤها كل أعمالى الصالحة فلقيت الله بغير عمل صالح، ثم غابت روحه عنى فلما صحا الرجل من نومه حدث علماء مكة بما رآه من صاحبه وذكر لهم مصيره وأنه من أهل النار لأنه قاطع رحم فترحموا عليه ورثوا لحاله وهنئوا الكوفى بقضاء حاجته وعودة وديعته فشكرهم وعاد إلى بلدته، وقابل أولاده وذكر لهم مكان الوديعة من الدار فمكنوه من أخذها وقال لأولاده صلوا عمتكم فإن أباكم قد دخل النار من أجل قطيعتها واستسمحوها فى حقها عليه وأكثروا من الدعاء له والصدقة عليه، فعسى الله أن يشفعكم فيه ثم أخذ يحدث الناس بما رآه من حاله حتى لا يقطع أحد رحمه، ولا يجفو أقاربه وليعلم الناس أن صلة الرحم حقها عظيم، جعلنا الله من الواصلين المقبولين.

فى حق الأولاد وما جاء فى فضل تربيتهم

الأولاد نعمة جليلة وهبة جميلة، بهم تعمر الأرض وتزدان الدنيا وتتحقق المنافع وتجمل الحياة، وتكمل سعادة الآباء والأمهات وقد امتن الله بهم على عباده ببقاء النوع الإنسانى موجودًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فقال سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾(١).

وإذا كان الأولاد كذلك فيجب على الآباء أن يحسنوا تربيتهم وأن يكملوا أدبهم ويتقنوا تعليمهم وتهذيبهم، ويأخذوهم بأقوم المثل وأعظم المبادئ ويحفظوهم كتاب الله ويمنحوهم الحب والعطف، ويخلعوا عليهم كثيرًا من الشفقة والحنان ويأخذوهم باللين فى حينه وبالقسوة فى حينها، ويكونوا معهم كالطبيب الحاذق مع مريضه يعطيه الدواء بقدر ويمسكه عنه بقدر ويقدم له الغذاء النافع فى الوقت المناسب، وليعلم الآباء أن أبناءهم وديعة عندهم وأمانة فى أعناقهم فليحسنوا رعايتهم وليجملوا القيام على نصحهم وتوجيههم حتى يصنعوا للمجتمع رجالا أصحاء وجنودًا أقوياء وعمالاً شرفاء يفعلون الخير أينما وجد، ويجدون فى عمل الإحسان والبر حيث كان، وليعلم الآباء بعد ذلك أن عيون أبنائهم معقودة بسيرتهم وأن عقولهم مشدودة إلى أفعالهم، فليكونوا لهم خير قدوة وأفضل أسوة فى جميع الأقوال والأفعال، فكل ما يقومون به من فعل وكل ما يتجملون من خلق فهو منقوش فى قلوبهم ومسطور على صفحات عقولهم، فالأب أمام ولده كتاب مفتوح يقرأ كل ما خط فيه كلمة كلمة وحرفًا حرفًا، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وليعلم الآباء بعد ذلك أن أولادهم عنوان لهم فى الحياة وعون فى الشدة وأنيس لهم فى الكبر والمشيب، ومنبع رحمة لهم بعد الممات وذكر جميل إن كانوا صالحين، فلينبتوهم نباتًا حسنًا، ولينشئوهم

---

(١) النحل: ٧٢ .

تنشئة كريمة يرضى الله ورسوله عنها ويباركها الدين والقرآن وتزينها الفضائل والأخلاق.

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: **«الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم والذى نفسى بيده ما أعطى والد ولده عطية خير له من أدب حسن»**.

وقال ﷺ: **«ولدك ريحانة من رياحين الجنة تشمه سبعًا وأدبه سبعًا واصحبه سبعا حتى إذا بلغ إحدى وعشرين سنة فزوجه وسل الله خيره وبره واستعذ به من شره وفتنته، فهو إما صديق حميم أو عدو مبين»**.

ومن الآداب التى يجب مراعاتها فى تأديبهم وتربيتهم أن يسوى الوالد بين أولاده فى الهبة والعطية وألا يميز إنسانًا منهم على إنسان لسبب من الأسباب فإن ذلك يفسد قلوبهم ويوغر صدورهم ويزرع فى قلوبهم الحقد والحسد وينبت فيها الضغينة والشحناء ولذلك لما جاء بشير والد النعمان إلى رسول الله ﷺ وفى يده النعمان صغيرًا، وقال له يا رسول الله إن أم هذا الغلام أمرتنى أن أخص ولدى النعمان بشىء من مالى وقد أجبتها إلى سؤالها فأبت إلا أن أشهدك على هذا العطاء، فقال له النبى: **«أشهد على هذا غيرى فإنى لا أشهد على جور»**.

قال العلماء فى معناه إن الرسول كره للرجل هذا التمييز بين أولاده وأبى أن يجيبه إلى طلبه ويشهد على وصيته لما فى ذلك من الظلم والجور، وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال **«سووا بين أولادكم حتى فى النظرة والقبلة، واعدلوا بينهم فى الحقوق كما تحبون أن يعدلوا بينكم فى البر»**.

رمن الآداب التى كان يقوم بها رسول الله فى تربيته أولاده ويأمر بها أصحابه وأتباعه أدب العقيقة وهى ذبيحة يذبحها الوالد لابنه فى اليوم السابع من مولده يأكل منها بعضها ويتصدق عنه بأكثرها تقربًا إلى الله وشكرًا له على ما

(١) التحريم: ٦ .

أولاه من نعم، وما منحه من فضل وجود وكذلك فعل الرسول ﷺ بالحسن والحسين عق عنهما فى اليوم السابع وختنهما وتصدق بوزن شعرهما فضة وقال الرسول ﷺ فى ذلك **«يعق عن الغلام فى اليوم السابع من مولده ويختن فإذا بلغ سبع سنين أدب وأمر بالصلاة فإذا بلغ عشرا عزل عن إخوته وفرق بينه وبينهم فى المضاجع وضرب على الصلاة إن قصر فيها فإذا بلغ عشرين سنة زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال له قد علمتك وأدبتك وزوجتك أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة»**.

وقال رسول الله ﷺ:

«حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه واسمه وألا يدعو عليه بسوء فإن وبال ذلك عليه».

وقد ثبت فى كتب الأدب أن رجلاً جاء إلى سيدنا عبد الله بن المبارك وقال له: إن لى ولدًا أحسنت إليه قبل أن يولد وبعد أن ولد ومع ذلك عقنى وأساء إلى، فقال عبد الله وكيف أحسنت إليه قبل أن يولد؟ قال أحسنت اختيار أمه وخاله، قال وكيف أحسنت إليه بعد مولده؟ قال أحسنت تسميته وأدبه وتهذيبه قال له فكيف عقك إذن؟ أكنت تطعمه من الحلال؟ قال له نعم. كنت أطعمه من كسب يمينى وليس لنا طريق للرزق غيره، قال ابن المبارك فهل كنت قد دعوت عليه وأنت غضبان؟ قال نعم فعلت ذلك كثيرًا، قال يا أخى لقد أفسدته وضيعته. أما سمعت قوله سبحانه وتعالى: **﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾**(1).

وقال بعض الحكماء:

لا تنطقن بحادث فى مجلس
فلربما سبق القضا فيكون

ومن الآداب التى يجب أن يأخذ الآباء بها أنفسهم فى تربية أطفالهم. العطف عليهم وإظهار الشفقة والرحمة بهم حتى ينشئوا صالحين، أصفياء النفس

(1) الإسراء: 11 .

أتقياء القلوب برآء من الكآبة والتعقيد، قالت عائشة رضى الله عنها أمرنى رسول ﷺ أن أغسل وجه أسامة وأزيل المخاط من أنفه فتقززت من ذلك نفسى وجعلت أفعل ذلك وأنا آنفة فلم يعجب ذلك رسول الله منى فضرب يدى ثم أخذه فغسل وجهه بيده الشريفة ثم قال: «**أحسن الله بنا إذ لم تكن له جارية**» يقصد الرسول ﷺ بقوله هذا أنه سيخدم أسامة بنفسه لينال بذلك أجر تأديبه وتنشئته وثواب رعايته والقيام على أمره وقصة الرسول ﷺ فى عطفه وحنانه على الحسن والحسين معلومة، فقد ثبت فى كتب السيرة أنه ﷺ كان يخطب أصحابه يوما فدخل عليه الحسن فى مسجده فجعل يتخطى الرقاب ويتعثر بين الصفوف والصحابة فى حرج من أمرهم لا يستطيع أحد أن يكلمه أو يأخذ بيده خوفا من أن يلغوا والرسول يخطب فتضيع جمعتهم ويذهب أجرهم، فلما أدرك الرسول منهم ذلك نزل عن منبره فاحتضن الحسن ووضعه إلى جانبه فوق المنبر ثم قال لأصحابه وكأنما يظهر لهم عذره. صدق الله العظيم حيث يقول سبحانه: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ ثم واصل خطبته حتى أتمها ونزل عن المنبر ليصلى بالناس فلما سجد بهم أطال السجود فلما فرغ من صلاته قالوا له يا رسول الله إنك أطلت السجود على غير عادتك، قال إن ابنى هذا قد ارتحلنى واعتلى ظهرى فلم أشأ أن أعجله عن حاجته حتى ينزل بنفسه فأطلت السجود.

وكان معاوية يحب يزيد ابنه حبًا شديدًا ويراه ولى عهده ويعده ذخرًا ليكون خليفة من بعده وحدث أن رأى منه يومًا شيئًا يكرهه فغضب عليه غضبًا شديدًا وأوجعه شتمًا وتقريعًا، وبينما كان فى ثورته وغضبه عليه دخل عليه الأحنف بن قيس وكان الأحنف حليمًا وقورًا وثبتًا رزينًا يحسن أن يضع الحكمة فى موضعها، ويجيد قول الكلمة فى حينها وآنها، وكان معاوية يجله لفضله وحلمه ويوقره لعلمه وأدبه فلما رآه فرح به وأجلسه إلى جانبه فقال له الأحنف، مالى أرى أمير المؤمنين غضبانًا؟ قال. يا أبا بحر، إن يزيد أغضبنى بعد أن اشتريت غضب الله وسخطه برضائه وحبه ووالله الذى لا إله إلا هو ما أوردنى موارد الهلكة إلا يزيد، فقال له الأحنف. لاتغضب يا أمير المؤمنين فهكذا يلقى كل والد من ولده وهكذا يفعل كل ولد بأبيه فقال له معاوية، أو تحفظ فى الأولاد شيئًا؟ قال نعم.

الأولاد هم ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم قفلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك ويستثقلوا حبك، فلما فرغ الأحنف من قوله هدأت نفس معاوية وسكنت ثائرته، وقال يا غلام احمل إلى يزيد عشرين ألف درهم ومثلها من الثياب ومائة رطل من المسك والعنبر والطيب، فحملها إليه، فلما دخل الغلام على يزيد بعطاء أبيه زال عنه غضبه وسأله: من فى مجلس أمير المؤمنين يا غلام؟ قال: الأحنف بن قيس قال له اذهب إليه وعد به إلى فلما دخل الأحنف على يزيد قام إليه معظمًا، ثم أجلسه معه على سريره وقال له أخبرنى كيف كانت القصة؟ فحدثه عما دار بينه وبين أبيه، فقاسمه يزيد الصلة وخصه بجائزة من عنده وقال: حبا الله الحكماء وبارك لنا فى العلماء والأدباء.

ومن الآداب التى يجب على الأب مراعاتها فى تربية ابنه أن يوسع عليه قدر استطاعته كى لا يتذمر وحتى لا تنحرف أخلاقه، وألا يعرض عليه تقاليد زمانه الذى مضى فإن الأيام متجددة والعصور متقلبة ولابد للإنسان أن يكون ابن عصره ووليد دهره، وقد كان سيدنا عمر يقول: «لا تأخذوا أولادكم بأدب زمانكم فإنهم خلقوا لعصر غير عصركم».

وذلك حق لا ريب فيه ولكن على شرط ألا يعارض الفضائل المتفق عليها دينًا والآداب المجمع عليها رجولة، والتقاليد التى لا تعارض الإنسانية الكاملة والمروءة الناضجة، لأن الحق يمرض ولا يموت والشرف يضعف ولا يمَّحى فالفضيلة تتمدد وتنكمش ولكن جوهرها واحد عند التمدد والانكماش ، فليس معنى تقدم العصر وتطور الدهر أن يترك الابن للشيوعية ورذائل المدنية كالخلاعة والمجون باسم الحضارة والخنفسة والتخنث باسم الحرية، والتدخين والتحشيش باسم التوسعة فى الإنفاق، ففى الحكم المتفق عليها «إذا أعطيت ابنك كل ما يريد فقد أفسدته» لأنه من ناحية يطلق لنفسه العنان فى الشهوات والملذات وهو جاهل بمغبتها، ومن ناحية أخرى لا يجد شوقًا إلى الحاجة ولا متعة عند الأخذ، ولا

يرى لأبيه فضلاً فى المنع والعطاء، وإذا كان هذا غير مستحسن من الإنسان مع نفسه فمن باب أولى مع أولاده وأبنائه، ولذلك قيل:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت

ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

ومن الآداب التى تنبغى مراعاتها والحرص عليها فى معاملة الأولاد وتهذيبهم، ألا يفضل الإنسان ذكراً على أنثى فإن الكل من عطاء الله، وهبة جليلة من هباته ومنحه، والمنفعة فى كل منهما يعلمها الله لأنها من غيبه وليست مقصورة على ذكر أو أنثى فقد يأتى الإنسان ضرره من حيث يتوقع النفع، وقد تنزل به الخسارة من حيث يرجو الربح والمكسب. وقد يدخل عليه الخوف والحذر من حيث يؤكد الطمأنينة والأمان وإذا كان لكل فاكهة مذاقها ولكل شىء مزيته الخاصة به والملازمة له، فإن الأولاد كذلك للذكر منفعة المرجوة منه وللبنت مزيتها الخاصة بها، وقد دخل عمرو بن العاص يوماً على معاوية وكان عمرو يكره الإناث جداً ويقول: إن تربية البنت جهد ضائع وزرع عقيم، نصرها عويل وصياح وبرها سرقة وخيانة، وأثقل الأعباء على أبيها وأخف الأحمال على أمها كان ذلك رأيه فى الإناث قبل أن يدخل على معاوية، وقد وجد عنده ابنة صغيرة يدللها ويداعبها، فقال له من هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال له معاوية وهو يبتسم: هذه تفاحة القلب وريحانة الأنف ومهجة الفؤاد، فقال له عمرو: انبذها عنك يا أميرَ المؤمنين بعيداً، واطرحها جانباً فإنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء وينقلن المال والعقار إلى الغرباء ويورثن الضغائن والأحقاد فتغير وجه معاوية من كلامه وقال لا تقل هذا يا عَمرو فوالله ما مرض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الإخوان والحدثان، ولا أذاقك حلاوة العطاء والحنان إلا هن، فسكت عمرو ثم قال: والله يا أمير المؤمنين لقد حببتهن إلى بعد بغض وأعنتنى على صلتهن بعد قطيعة وإبعاد، فقال له معاوية أوما سمعت قول الأول:

لولا أميمة لم أجزع من العدم

ولم أخض فى الليالى حندس الظلم

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى
ذل اليتيمة يجفوها ذووا الرحم
تهوى بقائى وأهوى موتها كرما
والموت أكرم نازل على الحرم
أحاذر الفقر يومًا أن يلم بها
فيكشف الستر عنى أم على وضم

فلم يفرغ من هذه الأبيات حتى سالت دموع عمرو على خديه، والذى كان يدين به عمرو بن العاص من بغضه للبنات خلق من أخلاق الجاهلية ورذيلة من الرذائل القبيحة التى نعاها الإسلام على العرب وقومها فى نفوسهم، فقد كانوا يكرهون الأنثى ويرونها حملاً ثقيلاً على أعناقهم. وكان منهم من يئدها حية ويواريها التراب، ومنهم من يبقيها ولكن على بغض وكره ومذلة وهوان، وقد سجل لهم القرآن الكريم موقفهم منها فى الجاهلية بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1].

فلما جاء الإسلام ملأ القلوب بنور الإيمان وأقنع العقول بأن رزق الجميع على الله، وحرم التفرقة بين الأولاد وقرر نصيب الأنثى والذكر من تركة الآباء الأمهات، ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[2].

وضبط هذا النصيب بأن للذكر مثل حظ الأنثيين، لا ظلمًا منه فى القسمة ولكن لأن أعباء الذكر قد تزيد على مر الأيام والأعوام، ذلك فى المال والعقار أما فى العطف والحنان، أما فى البر والإحسان، أما فى التربية والتنشئة فإن الإسلام يأمر بالتسوية ويرى أنهما سواء. فقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «سووا بين أولادكم فى النظرة والقبلة».

---

(١) النحل: ٥٨-٥٩ . (٢) النساء: ٣٢ .

ومن الإنصاف أن نقول إن البنت قد تكون أحوج إلى الحنان والتفضيل من الذكر لأنها خلق ضعيف لطيف وعورة منزوية، وربما تنكر لها الزمن وتقلبت بها الأحوال، فلا تجد ملجأ تلجأ إليه ولا ركنا ركينا تعتمد عليه إلا المال، وقد قالوا إن أحد الصالحين لما حضرته الوفاة وأحس بدنو أجله ونهاية حياته، قسم تركته بين أبنائه وأعطى بنتًا من بناته أضعاف ما أعطى أخيها من المال، فتذمر الولد وغضب من فعل أبيه وجعل يشكو إياه إلى إخوانه ويصفه أمامهم بأنه من الظالمين، وجعل يستعديهم عليه لكى ينقض هذا التقسيم ويعيد الأمور إلى نصابها، فاستجابت له صفوة طيبة من أصدقاء أبيه وحضروا معه إلى والده ثم عاتبوه على فعله وذكروا له غضبة ابنه ورجوه أن يعيد النظر فيما فعل ويعطى كل ذى حق حقه بدون ظلم ولا إجحاف، فتألم الوالد من تصرف ابنه وأراد أن يبين لهم وجهة نظره، فصاح بهم أن أقعدونى فأقعدوه، فلما استوى جالسًا تنفس الصعداء ثم نادى بأعلى صوته على ابنته المفضلة فأسرعت إلى إجابته، فتكلف الحديث معها فى شيء وأوقفها قليلاً ريثما أشبع الحاضرون أنظارهم منها، وكانت الفتاة محرومة من كل معالم الحسن والجمال، فلما أدرك أن القوم قد وقفوا على قبحها ودمامتها أذن لها بالانصراف ثم أقبل عليهم وقال يا قوم، من منكم يأخذ هذه لنفسه أو لأحد أبنائه فضحكوا من قوله وقالوا لا حاجة لنا بها ولا رغبة لنا ولا لأبنائنا فيها، فقال لهم ولماذا؟.

فأمسكوا عن الجواب عفة وتأدبًا، فلما رآهم سكوتًا قال لهم: أنا أخبركم لماذا أمسكتم عن الجواب وأحدثكم بما عفتم ألسنتكم عن ذكره، إن لسان حالكم يقول: نأباها زوجة لنا أو لأحد أبنائنا لقبحها ودمامتها، فإذا أنا أدركت ذلك منها ووهبت لها من مالى ما تصون به عرضها وتستغنى به عن أخيها وعن الناس أكون من الظالمين المجحفين؟.

فقالوا لا والله ماظلمت أحدا ولا أجحفت، ثم اقبلوا على ابنه فبصروه بعواقب الأمور، وصدق الله العظيم ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا**﴾[1].

---

(1) النساء: ١١ .

ومن الآداب التى يجب ألا ينساها الآباء فى تربيــة أبنائهم ألا يفضلوا ذكرا على ذكر فى العطاء والهبــة خصوصًا إذا كان التفــضيل لأسباب تافهة، كـجمال الأم وصغر سنها وقرب الأولاد من أبيهم تبعا لقرب أمهم من قلبه، فإن التفضيل والحــالة هذه جريمة نكراء ورذيلـة شنعاء وإثمًـا عظيـمًا لأنه يؤدى إلى تبــاغض الأولاد فى الدنيا وزرع القـطيعة فى قلوبهم وبذر أسـباب العـداوة والشحناء بين صفوفهم، وربما طال بالوالد العمـر وتقدم به السن وآلمه الهرم والمشيب ولم يجد بين يديه إلا أبناءه المحرومين، وحين إذن يحتاج إليهم فلا يجد عندهم إلا النفور منه والعقوق له.

وسيـجدون آن ذلك من يقف مـعهم ويشـد من أزرهم ويرجع على الوالد بالعتـاب والملام، وما أدق قـول الرسول ﷺ، فى هذا المعنى: «**رحم الله والدًا أعان ولده على بره**».

وقد روت كتب الآداب أن الرشيد أمـير المؤمنين كان يحب الأمين والمأمون فى طفولتهـما وأيام تنشئتـهما وتأديبهمـا ولكنه كان يتوقع بينهمـا شرًا ويتوجس بينهما فـتنة، وكان ينظر إلى مستقبل أيامـهما بعين بصيرته وفطنتـه، كان جالسًا على عـرشه يومًـا ومعـه مؤدب أولاده الكـسائى فـدخل عليه الأمين والمأمـون فأدناهمـا من سريره وقـربهما من صـدره فاحتـضنهما وقـبلهمـا ثم التفت إلى الكسائى يسأله عنهـما وقال له كيف تراهما أيها المؤدب؟ وكـان الكسائى حاضر البديهة حـاد الفطنة متوقد الذكـاء لا يعجزه جواب ولا يغـيب عنه غرض، وقد بادر إلى جواب الخليفة وأنشد:

أرى قـمــرى أفق وفــرعى شــامــة
يزينهــا عــرق كــريم ومــحـتــد
سليلى أمــيــر المؤمنين وحــائزى
مــواريث مــا أبـقى النبـى مـحـمـد
يســدان أنفــاق النفــاق بـعـزمــة
يزينهــمــا حــزم وســيـفى مـهـند

فلم يفرغ من هذه الأبيات حتى هطلت دموع الرشيد على وجهه ساخنة حارة ثم أمر بالأمين والمأمون فأخرجا من مجلسه وأقبل على الكسائى وقال ياشيخ:

«كأنى بهما وقد حم القضاء ونزل القدر من السماء وقامت بين هذين الحروب والشحناء، وقد تشتت أمرهما وتفرق جمعهما وانقسمت الكلمة بينهما، فسفكت الدماء البريئة وأزهقت النفوس الجريئة» فقال له الكسائى يا أمير المؤمنين- إن العدل سوف لا يخطئك والصواب سوف لا يأباك، أعانك الله على أمرك فوضعت الحق فى نصابه وأقررت السيف فى قرابه، ولم يكن الكسائى يقصد بقوله هذا إلا إبعاد الرشيد عن توليته العهد للأمين قبل المأمون ولما لم يذعن الرشيد ولم يستجب لوصيته، وولى الأمين وهو صغير ماجن من بعده وأبعد المأمون وهو عاقل حكيم ولبيب أريب وصاحب الحق الأول فى توليته عهد أبيه لكبر سنه من ناحية ولرزانته ووقاره من ناحية أخرى، تحقق ما تنبأ به الرشيد فوقعت بينهما الحروب وقامت نتيجة محتومة لما قام به الرشيد من تفضيل الأمين على المأمون من غير مبرر ولا مقتضى.

وقد سئل سيدنا على رضى الله عنه. أى أولادك أحب إليك؟ فقال (الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يعود).

ومما يجب على الآباء أن يتصفوا به من حكمة فى تنشئة أولادهم ألا يكثروا من عقابهم وتأديبهم ويبالغوا فى تقريعهم وتوبيخهم، وألا يلحفوا عليهم فى الطلب ولا يكلفوهم من الأمر ما لا يطيقون، باسم البر والواجب زاعمين بأنهم أحق بعطفهم وإحسانهم من كل عزيز لديهم، فإن ذلك وإن كان صحيحًا لكن الأبناء لا تراه حقًا جازمًا ولا واجبًا مقدسًا، وإنما ترى البر منحة منهم وإحسانًا يتفضلون به على الآباء والأمهات، فإذا لم يكن الوالد حكيمًا فى طلب حقه ورفيقًا فى معاملة ولده وخفيفًا لطيفًا فيما يأمله ويشتهيه، فإن ابنه سرعان ما يتبرم به، ويستثقل ظله ويرى أن كثرة إلحافه والحاجة من موجبات القطيعة والعقوق، ومن الحماقة المسرفة أن تطلب حقك بلسان القوة وأنت هزيل ضعيف، وفى الوقت نفسه أحمق أخرق، لأن الدنيا قد زالت عنك إليهم

وأصبح الناس معهم عليك، وقد ولى عصرك وانقضى عمرك وذوى شبابك وهجم المشيب، فلا تعش بعقلك فى غير عصرك، وقد قال أحد الأبناء لأبيه الذى أثقل عليه فى الطلب وكلفه ما لا يطيق باسم البر والإحسان، قال له: «يا أبى إن عظم حقك على لا يمنع صغير حقى عليك» فقال له أبوه يعاتبه ويقرعه، أما قرأت فى القرآن قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1].

فقال له ابنه إن الله أمننى عليك ولم يأمنك على فقال وكيف ذلك؟ فقال أوما قرأت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾[2] ولم يقل للأبناء ولا تقتلوا آباءكم فخاف الآباء على الأبناء ولم يخف الأبناء على الآباء، ولست من الآباء الذين أوصى الله بالإحسان إليهم فى قرآنه الكريم وأنشد:

لو كنت فى زمن النبى محمد
ما جاء فى القرآن بر الوالد

فيجيب على الآباء أن يرفقوا بأبنائهم عند كبرهم ويغمضوا أعينهم عن بعض عيوبهم ويتغابوا وهم من الأذكياء حتى لا يجترأ الأولاد عليهم ويسومونهم سوء العذاب.

وقد قالوا إن رجلاً أصابه الكبر وأضعفه الشيب دخل على ابنه فوجده مع إخوانه يتندرون ويضحكون فزجره زجرًا عنيفًا ورأى أن ذلك خروجًا على الآداب وجرأة على حقه، فطرد إخوانه عنه وأخذ يكيل له الشتم والسباب ويحذره أن يرى هؤلاء الشباب هنا مرة أخرى، فسكت الولد تأدبًا وتظاهر بالحياء أمام أبيه واستطاع أن يلتقى بإخوانه خارج البيت ويكوِّنوا لهم وكرًا، ويقيموا لهم مخبأ فى أحد المنازل- وهنالك بعيدًا عن العيون شربوا الخمر وارتكبوا كل منكر وقبيح فجعل الوالد يتجسس على ابنه حتى دخل عليه فوجده يسكر ويعربد، فهجم عليه ليضربه فقام إليه ابنه وضربه فى قسوة وعنف واستعدى عليه أقران السوء من إخوانه، فضربوه ضربًا مبرحًا، وأذاقوه الذل والهوان من حيث لا يجد

---

(1) الإسراء: ٢٣ . (2) الأنعام: ١٥١ .

له وليًا ولا نصيراً، ولما عاتبه أبوه على هذه الإهانة وما لقيه على يديه من عذاب وسباب، قال له فى جرأة ووقاحة:

أمن شـــربة من مـــاء كـــرم شـربـتـهـــا
غـــضـبت علـى اليـوم طاب لـى السكر
سـأشرب فـاذهب مـا حـييت كـلاهمـا
حـــبـيب إلـى قلبى عـــقـوقـك والسكر

وأخيراً فإن حـقوق الأولاد على الآباء كثيرة، وواجبـاتهم عديدة فمن شاء أو يؤدى حقوقهم ويمنحهم واجباتهم فليجعل كتاب الله حليتهم وسيرة النبى ﷺ قـدوتهم، وتعاليم الـدين الحنيف قبلتـهم وأخـلاق سلفنا الصـالح خيـر منهج ينهجونه وأفـضل سبيل يسلكونه، فإنه إن فعل ذلك نعم بهم صـغارا وسعد بهم كبارا وكانوا له بعد الممات مصدر رحـمة بين الأموات وذكرا جميلا فى الأحياء، وصدق رسـول الله ﷺ إذ يقول: «**إذا مات ابن آدم انقطع عـمله إلا من ثلاث. علم ينتفع به. وولد صالح يدعو له. وصدقة جارية تسرى عليه**».

نسـأل الله الكريم من فضلـه ما قـاله فى كتـابه أن يجـعل لنا من أولادنا وأزواجنا قرة أعين وأن يجعلنا للمتقين إمامًا.

فى فضل العدل وما جاء فيه

العدل كلمة ذات جرس عذب ورنين موسيقى أخاذ وسحر يستولى على العواطف والمشاعر ويملأ القلوب ببهجة الأمن ويرد الراحة والطمأنينة الدعة والهدوء، إذ به تتحقق الآمال وتنجح الأعمال وتصل الحقوق إلى أربابها وتدفع المظالم عن أصحابها وبالتالى تعمر الأرض وتتقدم الدنيا ويستتب الأمن ويسود النظام، ولا يتمسك بالعدل إلا أولئك الذين صفت أرواحهم وزكت نفوسهم وطهرت قلوبهم، وتعلقوا بما عند الله.

وأفضل العدل ما قام به الإنسان نحو نفسه فأعطى الناس حقوقهم التى فرضها الله لهم عليه وجعلها أمانه فى عنقه، ويكفى أن نعلم دليلاً على سمو العدل وعظمته وتقديره واحترامه أن الإسلام أمر به ورغب فيه على كل حالة حتى فى حالة الغضب التى لا يملك المرء فيها نفسه ولا يضبط فيها مشاعره ولا يميز فيها بين الخطأ والصواب ومع ذلك كله يكلف الله عباده المسلمين أن يكونوا عدولاً مقسطين، وأعجب من ذلك أن يأمر الإسلام أبناءه وأتباعه بالعدل ويحضهم عليه حتى مع أعدائهم الكافرين وخصومهم المناوئين لأن ذلك حق لهم لا يمنعه كفر ولا شرك ولا تؤثر فيه عداوة ولا بغضاء، فياله من دين شامل لكل أنواع الفضائل ومكارمها، وفى فضيلة العدل والإنصاف، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾(١).

ولم يأمر به عباده وفقط ولكنه تعالى أحبه واتصف به فيقول سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ ويقول سبحانه: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(٢).

---

(١) المائدة: ٨ . (٢) الممتحنة: ٨ .

والإسلام لا يقصد العدل فى الأحكام فحسب ولكنه ينشده فى كل شىء يقوم به الإنسان فى حياته، بمعنى أن يكون عادلاً مع نفسه، عادلاً فى أهله وأبنائه. مقسطًا فى أقاربه وذويه، حتى فى قوله ولفظه يطالبه الإسلام أن يكون عادلا منصفا ولو كان ذلك القول يمس أقاربنا أو أعز الناس علينا فيقول سبحانه وهو يؤدب عباده المؤمنين بحكمه وسنته ونصائحه ووصاياه: **﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[1]، ومن هنا نعلم لماذا كان الرسول حريصًا عليه إلى حد أنه كان ينصف أصحابه من نفسه ويطبقه بينهم فى أدق صوره مهما كانت الظروف حرجة أو الأحوال قاسية، لأنه كان يعلم أن العدل أمانة الله في عنقه وأنه تعالى وضعه تحت رقابة دقيقة من سمعه وبصره، فيقول سبحانه مخاطبًا رسوله والمؤمنين **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾**[2].

وقد ورثه الصحابة رضوان الله عليهم عن نبيهم وطبقوه تطبيقًا عمليًا فى البلاد التى فتحوها والأمم التى حكموها بقطع النظر عن أن يكونوا أهل كفر أو أرباب دين، ولذلك لا نعجب إذا رأينا الإسلام قد ساد الأمم المتحضرة وملك أعنة الشعوب الراقية، ونشر مبادئ الإسلام فى كل ربوع الدنيا دون ما جهد ولا عناء لأنها كانت مبادئ سمحة لا تأباها النفوس ولا تنفر منها الطباع. وقد ذكر عن الرسول ﷺ أنه قال: «**أوصانى خليلى بتسع أوصيكم بهن**» ذكر منها العدل فى الغضب والرضا.

ويقول ﷺ: «**ما من أمير عشيرة إلا ويجىء يوم القيامة ويده مشدودة إلى عنقه أعتقه عدله أو أوبقه جوره**»، ويقول أيضًا: «**السلطان ظل الله فى أرضه يأوى إليه الخائف ويلجأ إليه المظلوم**».

وقد ثبت فى سيرة رسول الله أن المسلمين لما انتصروا على الكفار فى غزوة بدر وقتلوا منهم الكثير وأسروا منهم الكثير، كان من بين الأسرى العباس بن

---

(١) الأنعام: ١٥٢ . (٢) النساء: ٥٨ .

عبـد المطلب عم رسول الله ﷺ، وكان الرسول ﷺ قد أمر بالأسـرى فشدوا وثاقهم وأحكموا قـيودهم حتى يحضر أهلهم الفداء إلى رسـول الله وبينما كان الرسول قائما فى خـيمته ليلا يصلى إذ دخل عليه سيـدنا عمر بن الخطاب وكان حارس الأسـرى والقوام عليهم، فلمـا جلس بين يدى رسول الله ﷺ رآه يبكى قال ما الـذى يبكيك يا رسول الله وقد نصرك الله على أعـدائك وبيض وجهك؟ قال: «**يا عمر أبكانى أنين عمى العباس فى جوف الليل لثقل القيد على قدميه**»، فلم يتكلم سـيدنا عمـر بشىء حتى خرج وعـاد فى صمت، وبعد برهة وجـيزة سأله الرسول: «**ما لى لا أسمع أنـين العباس؟**» قال يا رسول الله أرخـيت قيده فـسكت أنينه، فقـال له النبى: «**يا عـمـر إن من العدل أن تفـعل ذلك بجـمـيع الأسرى**»، فقـام عمر رضى الله عنه وأرخى قـيودهم جميـعًا، وجاء فى سـيرة سيـدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه اشـترى فرسًا من رجل فلمـا تم البيع والشراء أخذه فحمل عليه فأعطبه بإحدى قـوائمه حتى أصبح يعرج بها فلما كان اليوم التالى أرسل إلى الرجل صـاحب الفرس وقال له خذ فرسك فإنهـا معابة، فقال له الرجل وما عيـبها يا أمير المؤمنين قال إنها تعرج. قال لقـد دفعتها إليك سليمة بالأمس فـلا آخذها اليوم وهى تعرج، فقال إذا لم تأخـذها حاكمتك إلى القاضى شريح، قـال الرجل قد رضيت به حكمًا بينى وبينـك، فلما دخلا على القاضى عرضًا عليه قضيتهـما، فقال القاضى يا أمير المؤمنين إنك أخذت الفرس صحيحة سليمة فأنت ضامن لها حتى تردها صـحيحة كما أخذتها، فرضى عمر وهو خليفة حكم شريح وولاه قضاء العراق.

وكان سـيدنا أبو بكر رضى الله عنه سـخى النفس لين الأخلاق مـستـقيم الطبع قبل أن يتـولى خلافة المسلمين، وكـان يعمل تاجراً قبل أن يلى الخـلافة، فلما تولاها لم تغير من أخلاقه شيئا ولكنه سارع فخطب المسلمين خطبة بين فيها نهجه فى الخلافة وسيرته فى الحكم وكان مما أثر عنه فيها قوله:

«**القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق مـنه والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له وأطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم**».

وكـان بعد خـلافتـه ملازمًـا للتجـارة لينفق على نفـسه وولده فلمـا رأى المسلمون ذلك وخافوا أن تضـيع مصالح المسلمين وظفوا عليه راتبًا شـهريًا يكفيه وأهله بالمعروف، وحدث أن جاء مال من العراق فقـام سيدنا أبو بكر ليقسمه بين المسلمين فـقسمـه بينهم بالتسـاوى سواء فى ذلك من دخل الإسـلام مبكرًا ومن تأخر فى دخـوله وسواء فى ذلك من قاتل رسـول الله ومن قاتل معه، فـقال له كبراء الصحابة يا خليفة رسول الله أتسوى بين من سبق إلى الإسلام ودخله محبًا طائعًا وبين من تأخر عنه حتى تم له النصر وكـتب له الفوز؟ فقال لهم سيدنا أبو بكر: يا قـوم إن هؤلاء السـبـاقين وأولئك المقـاتلين إنما أسلمـوا لله وقـاتلوا لله وأجرهم يوم القيامة عند الله يظفرون به فى الآخرة وإنما الدنيا بلاغ.

وجاء فى سـيرة عـمر بن عـبد العزيز أن ابنًـا من أبنائه خرج إلى الصـيد فتشاجر مع أحد الرجال فضربه ضربة شجت رأسه وكان أبوه يومئذ خليفة، فلما رأته أمه وقد سال منه الدم ظنت أن أباه سيأخـذ له بثأره ويقتص له من خصمه. وأسرع رجال الشرطة فـقبضوا على الغلام وهموا به سـوءًا. فقال لهم والله لئن فعلتم بى شـيئًا لأخـبرن أمير المؤمنين وأنـتم تعلمون عدالتـه، فخافوا عـمر فى شخص الغلام فلما أدخل عليه قال لـه الخليفة الراشد ابن من أنت يا غلام؟ قال أنا فلان بن فـلان وقد قتل أبى مـجاهدًا فى سبـيل الله، فقال عـمر نعم النسب أتيـتنا به ولكن ما ظنك بنـا، قال يا أمـير المؤمنين أكـبر الظن أنكم سـتأخـذون بحقكم وتعدلون فى قصاصكم فالتفت عمر إلى أحد كتابه وقال له انظر هل تجد اسمه فى سجل العطاء بين أيتـام المسلمين؟ فنظر الكاتب ثم جاء وقال: لم أجد اسمه بينهم، فقال عمر اجعلوه فى سـجل اليتامى وأجروا عليه من العطاء مثلما تجرون عليهم ويكفينا عقوقا له أننا نـسيناه منذ مات أبوه، فلما سمعت بذلك أمه وهى بنت خليفة وحفيدة خليفة وأخت خلفـيتين وزوجة الخليفة القائم. قالت ما أخوفنى على أولادى بعـد اليـوم من القـراء واليتامى، فـقال لها سيدنـا عمر بن عبد العزيز، أوما تحفظين قول الله عز وجل: ﴿**وإن تعفـــوا أقـرب للتقـــوى**﴾ فكظمت المرأة غيظها ابتغاء مرضاة الله وطلبًا لمرضاة عمر.

ولما سرقت المرأة المخزومية وقامت البينة على إدانتها وهى من عائلة شريفة عرفت بمجدها وعزها فى الجاهلية والإسلام وأراد الرسول قطع يدها امتثالاً لأمر الله وتقديرًا لحق من حقوق المسلمين جاءه أسامة بن زيد الذى كان يعرفه المسلمون بأنه حبُّ رسول الله وابن حبه لأنهما تربيا فى بيت النبوة وفى حجر رسول الله ﷺ، وكان الرسول ينزلهما من قلبه منزلة كريمة ويراها منه فى موضع الولد من أبيه، فلما أدرك بنو مخزوم مكانة أسامة من قلب رسول الله وسَّطوه ليشفع لهم عند رسول الله حتى لا يقيم على المرأة الحد، فلما كلم أسامة النبى غضب عليه وقال: «**ويحك يا أسامة أو تشفع فى حد من حدود الله**». ثم ردد كلمته الخالدة التى ما زالت دستورًا مرعيًا حتى الآن وجرت فى الناس مجرى الأمثال: «**والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإن سرق الضعيف قطعوه**».

وما أعدلك يا سيدى يا رسول الله وما أصلبك فى تنفيذ العدل وأقضاك عند أخذ الحق!! وما أشدك فى دين الله حينما يثبت الحد ويصبح ملكًا لرب الدين وصاحب هذا الملك والملكوت!! ووالله لو كان ذلك الحق لك لتسامحت فيه ووهبته لأهله فى يسر وسماحة وأنت رضى النفس ناعم البال، لقد آذوك يوم الطائف وأدموا جسدك الشريف وكادوا يقضون على حياتك تمامًا لولا عناية الله، وقد أنزل الله عليك جبريل يومها ليقول لك. إن الله يأمرنى أن أطيعك فى كل ما تأمرنى به ووالله لو أمرتنى أن أطبق عليهم الجبال لفعلت، فقلت ووجهك إلى السماء ويداك مبسوطتان إلى الله: «**اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**» ولكن حينما أصبح هذا الحق لله كنت من أحرص الناس عليه ومن أشدهم تمسكًا به ولم تقبل فيه شفاعة شفيع حتى وإن كان من أحب الناس إليك وأعزهم لديك.

وقالوا إن رجلاً من اليهود دخل على عبد الملك بن مروان وقال له إن بعض عمالك لطمنى وقد جئت إليك لتنصفنى منه وتذيقنى حلاوة العدل الذى عرف به الإسلام واشتهر به ولاة المسلمين، فاستثقل الخليفة قوله وظله وأعرض عنه، فلم ييأس اليهودى من إعراضه وجعل يكرر قوله على الخليفة، والخليفة يعرض عنه، فلما قاربه اليأس من عدله قال له يا أمير المؤمنين. إنى أجد فى

التوراة أن الحاكم لا يكون شريكًا فى الظلم حتى يرفعه إليه، فإذا رفع إليه ولم يزله فقد شارك فيه ففزع عبد الملك من كلامه هذا وأزال ظلامته واعتذر له، وقالوا إن عاملاً من عمال أبى جعفر المنصور أخذ ضيعة من أحد الناس اغتصابًا وظلمًا فأقسم ليأتين الخليفة فى بغداد وليرفعن ظلامته إليه. فجاء إلى المنصور واستأذن حاجبه فى الدخول فأذن له، فلما مثل بين يديه قال يا أمير المؤمنين. أأذكر حاجتى أم أضرب لك مثلاً قبلها؟ فابتسم الخليفة وقال له بل اضرب لى مثلاً فقال الرجل يا أمير المؤمنين الطفل إذا نابه ما يكره فزع إلى أمه لأنه لا يعرف غيرها ولأنها أقرب الناس إليه وأقواهم فى نظره، فإذا كبر قليلاً واتسعت مداركه كان فزعه إلى أبيه لأنه فى نظره أقوى من أمه وأشد منها بأسًا فإذا كملت معارفه واستنار عقله لجأ إلى الوالى لأنه يدرك أنه أقوى من أبيه وأمه، وأن فى إمكانه أن يفعل ما لا يقدران عليه، فإذا بلغ رشده وتم نضجه كان الخليفة فى نظره أقوى الأقوياء فإذا لم ينصفه الخليفة ولم يأخذ بحقه من غريمه شكاه إلى الله، وقد نزلت بى نازلة من الظلم ولحقنى الكثير من الجور وليس فوقك أحد إلا الله عز وجل وقد جئتك أعرض عليك ظلامتى فإن أنصفتنى من غريمى وحكمت لى بالعدل فذاك وإلا فأنا ذاهب إلى الله لأحج بيته فى العام القابل فإذا قمت بين يديه فى حرمه رفعت أمرى وأمرك إلى الله، فانخلع قلب المنصور لقوله وارتعدت أوصاله من كلامه وسأله عن ظلامته فقصها عليه، فقال له يا هذا إننا نحكم بينك وبين خصمك بالحق وننصفك منه إن شاء الله، ثم كتب إلى الوالى ليرد له ظلامته فأسرع الوالى بردها خوفًا من المنصور أن يبطش به.

ومما أثر عن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر أنه كان يعدل فى دولته وكان يحذِّر ولاته وقضاته أن يكونوا ظالمين، ومما جاء فى تاريخه دليلاً على أنه كان يحب العدل ويكره الظلم هذه القصة.

قالوا إنه كان جالسًا فى مجلسه يومًا فدخل عليه رجل من رجال الشرطة وقال له إن أحد القضاة رأى ولدك العباس ومعه آلة موسيقية فأخذها منه وحطمها وكان ابنه العباس ماجنًا حقًا، فقال له ابن طولون على بالشيخ،

فأحضره سريعًا حتى أوقفه بين يدى الأمير ابن طولون، فنظر إليه مغضبًا وقال له أيها الشيخ أتدرى مـاذا فعلت؟ قال نعم لو لم أدره لم أعمله، فقـال له أفتدرى ابن من هذا الذى كسـرت عوده؟ قال نعم أدرى أنـه ابنك العباس، وقـد قابلنى يحمل عوده ومعه غانية ماجنة فأخـذت منه العود فكسرته، فقال له الأمير أو ما كنت تكرمه من أجلى؟ قال أفتـرضى أن أكرمه بمعصية الله وقد قـال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]. والنبى ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» فشكره ابن طولون على موقفه من ابنه وجرأته فى الحق وفقهه فى الدين وقال له يا هذا كل منكر رأيتـه فى هذه الدولة فـغـيره وأزله وأنا من ورائك أشـد أزرك وأعينك على تنفيذ أمر الله.

وجاء فى كتاب القضاء لأبى يوسف أن أمـير المؤمنين المأمون جلس للقضاء بين الناس والنظر فى مـظالمهم، وبينمـا هو كذلك إذ دخل علـيه رجل وقـدم له رقعة كتب فيها بخط واضح بسم الله الـرحمن الرحيم من عبد الله فلان بن فلان إلى أمير المؤمنين وخليـفة رب العالمين وبعد. فإنا نسـتغيث بالله من ظلم وقع لنا وجور ألم بنا فإن أنصفتنا وحكمت بالعدل وإلا شكوناك إلى رب السماء، فأدناه المأمون ثم قـال له إنك ذكرت فى رقعـتك أنك مظلوم ولكن لم تذكر فيـها من ظلمك قـال: الذى ظلمنى هو أنت فـفـزع المأمـون من جرأته واهتـز قلبـه من صراحته وقال له: أنا أنا؟ قال نعم وهل أخـاطب بالخلافة أحدًا سواك، فقال له وفى أى شىء ظلمتك؟ قال له أخذت منى عـشرة آلاف درهم، قال المأمون وفى أى شىء أخذتها؟ قال له إن سعيدًا واليك بالبصرة وهو وكيل لك قد اشترى منى جواهر وحليـا بهذا المبلغ ولم يدفع إلى من المال شيـئا، قال المأمون فـإذا اشترى سعـيد منك جـواهر وحليًا ولم يدفع لك تكون الـظلامة منى؟ فقـال نعم تكون

(١) التوبة: ٧١ .

الظلامة منك إذا صحت له الوكالة والنيابة عنك وكان يقوم مقامك، وقد قال لى إنه يشتريها لأمير المؤمنين فقال المأمون فى حلم وروية إن دعواك هذه تحتمل أموراً ثلاثة، إما أن يكون سعيد قد اشترى هذه الحلى لنفسه وإما أن يكون قد اشتراها لى ودفع الثمن إليك وإما أن يكون أخذه منى ولم يدفعه إليك. وإذا صح واحد من هؤلاء فليست لك مظلمة عندى ولست لك بغريم ولا أنت خصم لى فقال الرجل: إن الله قد أحلك منزلا رفيعا واختصك بنسب عريق وجعلك أولى الخلق وأقربهم إلى الإنصاف والانتصاف فأنت ابن عم رسول الله ﷺ. فهل تحملنى على كتاب الله وهل تحاكمني إليه وهل تأخذه بسنة رسوله والصحابة من بعده؟ وهذه الأشياء هى الشريعة التى أختم الناس بها وأدنتموهم عليها. ومن أحكامها وتعاليمها ومبادئها الثابتة أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. فأنت والله أحق الناس باتباع تعاليم الدين، فقال المأمون وهل معك بينة؟ قال لا قال فلك اليمين إذن قال الرجل لى اليمين فقال المأمون فإذا حلفت لك أبرأتنى من هذا الدين وطابت نفسك قال نعم ولكن أرجو أن يكون هذا أمام القاضى الذى نصبته لرعيتك، فصاح المأمون بأعلى صوته يا غلام على بيحيى بن أكثم، فحضر القاضى يحيى فلما أخبره المأمون بالقصة قال له اقض بينى وبين هذا الرجل كما يأمرك دينك وعقلك. فابتسم يحيى تأدبًا وقال له يا أمير المؤمنين تطلب منى قضية وحكمًا قال نعم، قال يحيى: لا يكون ذلك فى دارك ولكن فى دار القضاء فإنك لم تجعل دارك مجلسًا للقضاء، فقال له المأمون صدقت وأمر أن تعقد الجلسة فى دار القضاء، فلما جلس القاضى مجلسه قال لنبدأ بالعامة أولاً ليصح القضاء فى قضيتك، فنظر فى مظالم العامة فلما فرغ دعا بالخليفة وخصمه، فدخل المأمون يحيط به شىء من مظاهر الخلافة. وأبهة السلطان، كرسى فاخر يجلس عليه وجنود حوله وأعوان ينتظرون أمره، فلما رأى القاضى ذلك قال: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس وأمر بإبعاد كل ما كان يختص بالخليفة ثم استمع لهما فحدثاه القصة وقال المأمون ردًا على خصمه لا أعرف له حقا عندى، فقال القاضى للمدعى تلزمك البينة إذن، فقال ليس له بينة، قال القاضى فليس لك عند الخليفة إلا اليمين،

فقال المأمون والله لقد لج فى الخصومة والله لأوطئن نفسى على تحملها ولأحلفن له اليمين، وحلفهـا فلما تمت القضية حكم القاضى ببـراءة الخليفة من الدين ثم قام عن مجلسه وأجلس الخليفة مكانه وقال له يا أمير المؤمنين: إنى كنت فى حق الله حتى أخذته منك وليس لى الآن أن أتصدر عـليك فى المجلس، فلما استوى الخليفة جالسًا مكان القاضى قال احضـروا للخصم من المال ما كان يدعيه، فلما أحـضروا المال قـال له المأمـون خذها إليك ووالله مـا كنت أحلف كـاذبًا قط ثم أعطيك المال فأكون قد افتديت دينى بـدنياى، وما دفعت إليك المال إلا خوفًا من أن تقول الناس إنـى أتيتك من جهـة القدرة والسلطان بما كنت أسـمح لك بالمال واليمين، فـاذهب بالمال فهو لك، فـابتسم الرجل وقال: أويؤمننى الخليـفة على نفسى حتى أنجو به؟ فقـال نعم والله أنت آمن حتى لو أردت الثغر أى ولو أردت أن تصل به آخر مكان فى البـلاد ثم كلف المأمون حارسًا بالمشى معـه حتى بلغه مأمنه، هذه يا أخى صـورة مشرقة للعدل فى الإسـلام ترفع من قدره وتعلى من شأنه وتبين لك مـبلغ اهتمام المسلمين به حكامًـا وقضاة، لم يسـتغلوا سلطاتهم ليقهروا أرباب الحقوق وليأخـذوا أموالهم رغم أنوفهم تحت أى شعار، ومن أعز من الخليفـة المأمون نفرًا وأعلى منه حكمًـا وسلطانًا يلزمه واحد من شعـبه بمبلغ أخذه غيره دون أن تكون له بينة وأخـيرًا يحلف الخليفة ثم يدفع المال، كل ذلك حرصًـا على مـبدأ العـدل أن يظل عزيزًا ركنه مـرتفعـة رايته مـرعيًـا جنابه بين المسلمين.

وأعجب من هذه مـا حدث به الربيع حاجب أبى جـعفر المنصـور، حدث الربيع فقال: ما رأيت أثبت قلبًـا ولا أشجع نفسًا ولا أقوى إيمانًا من رجل وشى به إلى المنصور وأبلغ بأن عنده مالاً وكنوزًا وجواهر وودائع لبنى أمية، فأرسل أبو جعفر المنصور فى طلبه، فلما دخل على الخليفة قال له يا هذا لقد بلغنا أن عندك ودائع ونفائس وأموالاً لبنى أمية، فقـال الرجل أو تقدرون العدل يا أمير المؤمنين وتجلون الإنصاف؟ قال نعم ومن أولى بذلك منا، قـال: فهل أنا آمن على نفسى إن ناقشـتك الأمر؟ قال: نعم أنت آمن على نفـسك فماذا تريد أن تقول؟ فـقال الرجل: أوارث أنت لبنى أمية يا أمير المؤمنين؟ قال لا قال أفوصى على أموالهم؟

قال لا. قال: إذن فما سؤالك عما أودعوه عندى من أموال؟ فارتبك المنصور فى الجواب وأطرق رأسه قليلاً ثم قال إن بنى أمية قد ظلموا المسلمين أموالهم واغتصبوا الكثير من أمتعتهم وأنا وكيل المسلمين فى استردادها منهم فأريد أن آخذ منك وأجعلها فى بيت مالهم لأنفقها فى مصالحهم قال: فعليك البينة إذن يا أمير المؤمنين على أن ما فى يدى من المال والودائع مما خان بنو أمية فيه المسلمين واغتصبوه منهم كما تعلم كان لهم أموال خاصة بهم غير ما إغتصبوه، فأقم البينة على أن الذى فى يدى من أموالهم كان من المال الذى خانوا المسلمين فيه، فأطرق الخليفة مليا ولم يجد جوابًا يقنع به ذلك الرجل، فالتفت إلى الربيع وقال يا ربيع ما أرى هذا الرجل إلا صادقًا ونحن أولى بإنصافه والعدل معه ثم نظر إلى الرجل وقال: قد أطلقنا سراحك يا هذا فهل من حاجة نقضيها لك؟ قال نعم يا أمير المؤمنين لى حاجة إليك قال وما هى؟ قال أن تطمئن أهلى على حياتى فإنك أزعجتهم بأخذى من بينهم فجأة ثم تجمع بينى وبين من سعى بى إليك وأخبرك بأن عندى أموال وودائع لبنى أمية، فإنهم لم يكن لهم عندى أموال ولا ودائع ولكنى لما وقفت بين يديك أيقنت من عدلك وإنصافك فأردت أن أناقشك وكان ما قلته أقرب إلى الصواب والخلاص وخير من أن أقسم لك إيمانًا قد لا تقع فى قلبك موضع الصدق واليقين، فقال المنصور يا ربيع. أحضر من سعى إلينا به، فأخرج غلامًا يافعًا، فلما نظر إليه الرجل قال يا أمير المؤمنين أو تدرى من هذا؟ إنه عبد مملوك لى سرق منى خمسة آلاف دينار وفر بها هاربًا فشدد الخليفة على الغلام فاعترف بها، فنظر الخليفة إلى الرجل وقال: هل لك فى العفو عنه من أجلنا قال قد عفوت عنه يا أمير المؤمنين إجلالاً لعفوك معى وأزد على ذلك أنى اعتقته ابتغاء وجه الله ووهبت له المال الذى أخذه منى، فأثنى عليه الخليفة وأذن له فى الانصراف، فكان المنصور يتعجب من شجاعته ويشيد برجولته وبطولته ويقول ما رأيت مثله قط بين أفراد الرعية يا ربيع.

وهناك قصة وقعت للمنصور نفسه وهى أدل على عدالته وإنصافه مما تقدم حدثت كتب الأدب عنه فقالت: لما مات سلمى بن سعيد وخلف أموالاً وأولادًا وكان عليه ديون كثيرة للناس عامة ولأمير المؤمنين المنصور خاصة، فلما علم

الخليفة بموته كتب إلى عامله الذى تقع تركة سلمى بن سعيد فى دائرة اختصاصه يأمره أن يأخذ له دينه أولاً من تركة سلمى قبل أن يقسم أمواله بين الغرماء، فإذا بقى شىء كان لهم، فلما وصل الكتاب إلى عامله لم يلتفت إليه ولم يقم لكلامه وزنًا، ولكنه قسم المال على أرباب الديون بنسبتها وجعل للخليفة سهما كواحد من الغرماء، ثم كتب إلى الخليفة يقول له يا أمير المؤمنين وصلنى كتابك أطال الله بقاءك وقرأت ما جاء فيه ورأيتك واحدًا من الغرماء فأعطيتك من تركة سلمى على قدر سهمك فيها وفعلت ذلك مع جميع الغرماء كل على قدر سهمه، ثقة منى بعدلك والسلام.

فلما وصل الكتاب إلى المنصور لم يغضب على عامله ولم يعزله عن ولايته، ولكنه شجعه على إقامة العدل ونشر الإنصاف بين الناس، فكتب إليه يقول، وصلنى كتابك وفهمت ما فيه وقد رضيت عن حكمك فيما حكمت به، ملأ الله بك الأرض عدلاً والسلام.

وقالوا إن زياد بن أبيه وهو وال على العراق من قبل معاوية بن أبى سفيان. قالوا إنه بعث الحكم بن عمرو فى جيش كبير إلى أرض خراسان ففتحها واستولى على كثير من أموالها وغنائمها، فلما بلغ الخبر زيادا وأنه قد فتحها وأحرز أموالاً كتب إلى الحكم يقول له يا هذا: إذا وصلك كتابى فاصطف للخليفة كل بيضاء وصفراء من الغنيمة قبل قسمتها يعنى زياد بذلك أنه يجمع الذهب والفضة من الغنيمة ويرسل بها إلى معاوية، ولكن الحكم لم يستجب لكتابه ولا رضخ لأمره وقال: إن الغنيمة حق للجند وهى لهم دون غيرهم، فقسمها بين رجاله وأعطاهم حظهم من الذهب والفضة ثم كتب إلى زياد يقول له جاءنى كتابك ووقفت على ما فيه وقارنت بينه وبين كتاب الله وقد وجدت كتاب الله قبل كتابك وأصدق عبارة منه ووالله لو أن السموات والأرض كانتا رتقًا على عبد فاتقى الله فى حكمه وأنصف فى قضائه لجعل الله منهما فرجًا ومخرجًا، والسلام.

ولما ولى سيدنا عمر بن عبد العزيز خلافة المسلمين رد المظالم إلى أهلها

وحكم بين الناس بالعدل والقسطاس المستقيم ولكى يكون منصفًا حقًا بدأ ببيته أولاً وأخذ نفسه بمبادئ العدل قبل أن يأخذ الناس وقد رد كثيرًا من أموال زوجته إلى بيت المال. وحرم غلمان بنى أمية من كثير من الحقوق والأموال التى كانوا يأخذونها أيام الخلفاء السابقين ولا ينفقونها إلا فى البذخ والترف والشهوات والملذات، وقد أدى هذا إلى غضبهم من تصرفه وتذمرهم من سياسته وتقولهم القبيح فى حقه، حتى لقد هددوه بالقتل وتوعدوه بالموت وأنذروه على لسان عمته وكانت عمته تقية صالحة ولها جرأة عليه وكان يحبها لصلاحها وتقواها وسنها، فأبلغته بكل ما يدور ضده فى الخفاء وبكل ما تهمس به غلمان أمية ورجالهم من شر فلما فرغت من كلامها قال لها سيدنا عمر: إن النبى ﷺ سلك بالعدل طريقًا وقد سلكه أبو بكر وعمر الصحابة من بعده حتى آل الأمر إلى معاوية فجرجره يمينًا وشمالاً وحاد به عن الطريق الذى رسمه الله ورسوله وسلكه خلفاؤه الراشدون من بعده وايم الله لو مد فى عمرى لأردن العدل إلى الطريق الذى رسمه الدين وسلكه الرسول وصحبه، فقالت له عمته يا ابن أخى اتق الله فى نفسك واعلم بأن القوم يبيتون لك ويدبرون لك أمرًا وإنى أخاف عليك منهم يومًا عصيبًا، فقال لها الخليفة الراشد: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أمنيه الله» فخرجت إليهم تقول إن عمر قد أشرب حب الدين قلبه ولا يرضى بالعدل والإنصاف بديلاً من دنياه، هذه يا أخى منزلة العدل فى الإسلام فكن من العادلين المنصفين فى كل ما ولاك الله عليه من عمل وما ائتمنك عليه من مال وما عسى أن يكون قد تفضل به عليك من حكم وسلطان، واعلم أنك ستسأل عن كل ما استرعاك الله عليه فإن حفظته حفظك الله وإلا ندمت على كل تقصير وفوات، رزقنا الله العدل وحبب إلينا الإنصاف.

فى ذم الظلـــم وأهلـــه

وكما مدح الله العدل والإنصاف لعن الله الظلم والظالمين، والإسلام كدين حنيف يهدف إلى البقاء ويرمى إلى الخلود ويجتهـد فى إقامة مبادئ الحق وأركان العدل ونشر الفضيلة والخلق الكريم بوصفه هذا يكره الظلم ويمقت الظالمين، وقد حرمه الله تعالى على نفسه كما حرمه على عباده، وقـد أفاض الإسلام فى ذمه وتقبيحه بين آيات كتـابه، ولقد توعد الله الظالمين فى الدنيا والآخرة بالخزى المبين والعذاب الأليم وأنذرهم وخامة العاقبة وسوء الختام، وأى ظالم يسمع هذه الآية وهى تتـوعد الظالمين بالويل والثـبور عند فـراقهم للدنـيا وخروج أرواحـهم من أبدانهم ويسمع الملائكة وهى تـنهرهم وتنتزع أرواحهم فى عنف وقـسوة، ثم لا يقلع عن ظلمه وجوره ويرجع عن كل عسف وطغيـان خوفًا من هذا اليوم واتقاء لذلك المصير الموجع.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[1] والظلم بعد ذلـك صفة قـبيحـة ورذيلة كريهة أقـل ثمارها وأدنى أضرارها أنها تخرب الـديار وتقصر الأعمار وتعرض صاحـبها إلى بغض الناس وتحقيرهم له ونبذهم إياه فتجعلهم يتحاشون صحبته ويكرهون لقاءه ويتربصون به الدوائر والنازلات، وما أهلك الله الأمم السابقة ولا أباد القرون الغابرة إلا لأنهم سلكوا مسالك الظـالمين، فأكلوا حقوق الضعـفاء واعتدوا على عبـاد الله الفقراء وأزهقوا الأنفس والأرواح، وسـفكوا الدماء وسجـنوا الأبرياء وعاثوا فى الأرض فسادًا، وما علموا أن وراءهم ربًا قويًا جبـارًا وباطشًا قهارًا وعزيزًا ذا انتقام، وأنه يراقب أعـمالهم ويرى ظلمـهم وجـورهم وأنه سيـأخذهم إن عـاجلاً أو آجـلاً

(١) الأنعام: ٩٣-٩٤ .

بظلمهم وغدرهم ولابد أن ينتقم منهم مهما طالت الأيام وامتدت الأعوام، وأنه أخذ على نفسه عهدًا وثيقًا وميثاقًا أكيدًا أن ينتقم من الظالمين فى عاجل أمرهم وآجله وألا يرد للمظلومين دعاء ولا يؤخر لهم رجاءً، وفي الحديث القدسى عن الله عز وجل أنه قال:

«وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ولأنتقمن من رأى مظلومًا فقدر أن ينصره فلم يفعل».

وحتى أعوان الظالمين الذين يشدون أزرهم ويقوون ظهرهم ويساعدونهم على القهر والغلبة ويطيعون أمرهم فى معصية الله لم يتركهم الله يسرحون ويمرحون وينعمون ويتمتعون دون أن يلقيهم جزاء عملهم ويطعمهم ثمار ظلمهم جزاء ما قدمت أيديهم لأن الظالمين الطغاة والمستبدين البغاة ما بطشوا إلا ببأسهم ولا صالوا إلا بسيفهم ولا بغوا وطغوا إلا بقوتهم وحولهم، فلولا وقوفهم معهم ومساعدتهم لهم ما كانوا ظالمين ولا مستبدين ومن تتبع آيات القرآن الكريم واستقرأ نصوصه وجده يصب جام غضبه وينزل وبال لعنته ونقمه على الظالمين ويخبر أنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا يفوزون يوم الحساب، فالله عز وجل تارة يقول ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾[1] وتارة أخرى يقول:

﴿ **إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[2] وثالثة يقول ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[3] ورابعة يقول ﴿ **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾[4] أما السنة النبوية فإنها تحذر من الظلم وعاقبته وتنذر الظالمين بوخامة العاقبة وسوء الختام فيقول الرسول ﷺ:

«ينادى مناد من وراء الصراط معشر الطغاة الأشقياء إن الله يحلف بعزته ألا يجاوز هذا الجسر ظالم».

وقال الرسول ﷺ: **«يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بُهْمًا يناديهم**

---

(١) هود: ١٨ . (٢) إبراهيم: ٢٢ .
(٣) القصص: ٥٠ . (٤) الأنعام: ٢١ .

مناد من قبل الله عز وجل: «أنا الملك الديان ليس لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد يطلبه بمظلمة ولا يظلم ربك أحداً».

وقال أيضًا: **«من ضرب سوط ظلم اقتص منه يوم القيامة».**

وقال سيدنا على رضى الله عنه «اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك» وأنشد فى هذا المعنى:

لا تأمن الدهر حراً ظلمته فما ليل حر إن ظلمت بنائم

وجاء فى أحاديث رسول الله **«أن النار يوم القيامة تهاجم الظالمين وأعوانهم ويخرج منها ملك ينادى بأعلى صوته أين الظلمة وأعوان الظلمة حتى من برى لهم قلمًا أو لاق لهم دواة، فيجمعون فى تابوت ثم يقذفون فى النار».**

وقالوا إن رجلاً من بنى إسرائيل كان يتكسب من صيد السمك وكان يخرج صبيحة كل يوم يبحث عن رزقه بين لجج البحر وأمواجه غير حافل بما يلقاه من برد قارس وما قد يعانيه من حر شديد، وما قد يعترض طريقه من أهوال وصعاب ليعود فى آخر النهار برزقه ورزق أولاده، وما قد يملأ بطونهم من طعام وقوت وما قد يدفئ أجسامهم ويستر عوراتهم من كساء وغطاء، وكان رزقه كفافًا تارة يتسع وتارة يضيق، وفى يوم من الأيام ذهب إلى البحر كعادته فرزقه الله سمكة كبيرة هامت نفسه بحبها لا ليأكلها ولكن ليبيعها فيقضى من ثمنها دينه ويحضر بعض ضرورياته فإن فضل من ثمنها شىء فهو قوت أولاده الصغار وأبنائه المستضعفين، وجعل يترسم حولها خيوط آماله ويجمع أطياف أحلامه، فحملها على كتفه إلى السوق وكلما اقترب من ساحته خطوة تزايدت آماله وتضاعفت أحلامه وظن أنه بات فى مأمن من الفقر وبعيدًا عن العدم والإملاق، ومازال كذلك حتى دخل السوق وعرضها للبيع فتقدم إليه جندى غليظ الكبد منتفخ الأوداج مصعر الخد وقال له: بكم تريد أن تبيع هذه السمكة أيها الصياد؟ قال أريد أن أبيعها بكذا وكذا وغالى فى ثمنها فأخذته العزة بالإثم وأخذها من الرجل قهرًا وانتزعها من يده انتزاعًا ثم صفعه صفعة قاسية أنسته كل ما كان يدور فى رأسه حول السمكة من آمال وأحلام فلما أفاق من صفعته تلفت بعينيه

يمينا وشمالاً ليرى الجندى فوجده قد ولى فأتبعه بصره وكأنما كان ينظر إلى ملك الموت وقد قبض روحه ليصعد بها إلى السماء وبقدر ما كان الجندى مزهواً فخوراً وتياهًا مختالاً، وكأنما قد انتقل كل ما كان فى رأس الصياد من حلم إلى رأسه، فجعل يمشى نشوان ويترنح فرحان حتى دخل بيته على زوجته وأولاده وكأنما يحمل إليهم مجد الدهر وعزة الأبد، فاستقبلوه مبتهجين. فألقى بالسمكة بين أيديهم غنيمة باردة ولقمة سائغة. فقالت له زوجته لا تبرح المنزل حتى نقطعها معا فإنى لا طاقة لى بها وحدى. فقال إن شئت ذلك فأحضرى السكين. فأسرعت بها إليه فقبض على رأسها ليذبحها فعضته السمكة فلم يلق لها بالاً، فلما فرغ من تجهيزها خرج ليقضى بعض حاجاته ريثما تهيىء له المرأة شيئًا من لحمها الشهى ولم يبعد عن المنزل قليلاً حتى كان أصبعه قد انتفخ ورما وأصبح فى حالة من الألم يعجز عن أن يتحملها إنسان فلم يكن هنالك بد من أن يذهب بها إلى طبيب عصره، فقال له يا هذا لابد من قطع أصبعك الساعة وإلا أضر بيدك كلها فأذن له فى قطعها رغبة منه فى الراحة وطمعًا فى السلامة والنجاة، وما إن فرغ منها حتى ورمت كفة كلها فعاد إلى الطبيب فقال لابد من قطعها وإلا أضرت بساعدك فقطعها فورمت ساعده فأمره الطبيب بقطعها وإلا أفسدت ذراعه فسبقه الورم إلى عضده ومنكبه، فقال له الطبيب لابد من قطع الباقى من ذراعك وإلا أصيب جسمك كله، فقطعها من زندها وهكذا لا يفرغ من قطع حتى يسبقه الداء إلى العضو الذى بعده، ومازال يفكر فى أمره ويتخوف على الباقى من جسمه حى نام ذات ليلة فرأى فى منامه من يقول له: يا هذا إنك ظلمت من ظلمته فاذهب إليه فتحلله من ظلمك له وإلا قطع الله جسمك إربًا إربًا، فلما استيقظ من نومه جعل يسأل عن الصياد ويتتبع أخباره حتى عثر عليه فدفع إليه ثمن السمكة وتحلله من ظلامته فعفا الرجل عنه، وعند ذلك توقف الداء فى جسمه وبرئ من علته وأصبح يعيش بين الناس بذراع واحدة ويمشى بينهم عظة وعبرة لكل ظالم لا يخاف الله ولا يتقيه، وقالوا إن الله أوحى إلى نبى هذا الزمن، **«وعزتى وجلالى لولا أنه ترضَّى عبدى لعذبته بظلمه مادام حيا»** وقد سأل أحد الصالحين هذا الصياد أكنت قد دعوت عليه؟ قال نعم إنه لما اغتصب قوتى وقوت أولادى بقوته وبأسه رفعت وجهى إلى السماء وقلبى يذوب

كمدا وحسرة وقلت «إلهى جعلتنى ضعيفًا وجعلته قويًا فخذ لى بقدرتك وعزتك حقى منه فقد ظلمنى ولاصبر لى إلى الآخرة».

فقال له يا أخى قد سمع الله منك واستجاب لك.

وقالوا إن أحمد بن طولون لما قوى سلطانه وتمكنت دولته أخذ يقسو على المصريين ويفرض عليهم الضرائب ويجور فى الأحكام وكانت السيدة نفيسة رضى الله عنها آن ذاك موجودة بين المصريين وكان بيتها كعبتهم، كانوا يتوجهون إليها فيسمعون وعظها ويحفظون حديثها ويشمون منها رائحة أهل البيت زكية عطرة ويرون فى وجعهها السمح أنوار النبوة، فلما أحسوا بظلم ابن طولون؟ فقالوا لها إنه يركب يوم الجمعة. قالت إذا ركب فأعلمونى، فلما ركب خرجت إليه ووقفت له فى الطريق فلما أحس بها وأدرك إنها السيدة نفيسة ترجل عن جواده تعظيمًا لها وإجلالاً لهيبتها، فدفعت إليه رقعة فقرأها فإذا مكتوب فيها هذه الكلمات (ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخلوتم ففجرتم وردت إليكم الأرزاق فمنعتم وظلمتم، ولم تعلموا أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة ولا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد أوجعتموها وأجساد عريتموها، ومحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالمون، فاعملوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا مستجيرون واظلموا فإنا إلى الله متظلمون ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون**﴾ فلم يفرغ ابن طولون من قراءتها حتى أخذت من قلبه كل مأخذ ونالت من نفسه كل منال، وضاقت عليه الأرض بما رحبت فجمع قضاته وحكامه وأخذ عليهم جميعًا أوثق العهود وآكد المواثيق ألا يظلموا أحدًا ولا يقهروا إنسانًا، وكان ذلك بفضل السيدة نفيسة رضوان الله تعالى عليها، وكانت تقصد بقولها سهام الأسحار دعاء المظلومين على الظالمين إذا جن عليهم الليل ولفهم الظلام ولم يجدوا لأنفسهم وزرًا ولا ملجأ إلا دموعهم الساخنة وقلوبهم الملتاعة يتضرعون بها إلى الله أن ينتصف لهم من الطغاة الظالمين.

ورحم الله من قال هذه الحكمة يزجر بها أهل الظلم والجور ويخوفهم غضبة الله:

لا تظلـمن إذا ما كنت مقتـدرا فالظلـم آخـره يأتيك بالنـــدم
تنـــام عينـاك والمظـلوم منـتبـــه يدعــو عليك وعيـن الله لم تنم

وقالوا إن سيدنا عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه استعمل عمير بن سعد على حمـص فتظلم منه أهلها وجعلوا يشكونه إلى عمر، فكـتب إليه عمر أن يحضر إلى المدينة فقـدم إليها ماشيًا ليس معه إلا عكازه يتـوكأ عليها فى يده وإداوته التى يتوضـأ منها ومزوده على ظهـره، فلما أبصره عـمر قال له يا عمـير أأجدبت البلاد أم أهلها أهل سوء؟ فقال يا أمير المؤمنين أما نهاك الله عن أن تجهر بالسوء من القول. كيف تقـول هذا وقد جئتك بالدنيا أجرها؟ فقـال له عمر وما الذى معك من الدنيا قال: عكازى أتوكأ عـليه وأدفع به عن نفسى ومزودًا أحمل فيه طعامى وإداوة أشـرب وأتوضأ منها والدنيا كلها تبع لما مـعى، فلما سمع منه عمـر قوله قام إلى قـبر النبى ﷺ وبكى عنده وقال وهو يـضرع إلى الله «اللهم ألحقنى بصاحـبى غير مفرط ولا مـقصر» ثم أجلس عميـرًا بين يديه وأقبل عليه يناقشه فيما افتراه عليه أهل حمص من ظلم وجور وقال له ماذا فعلت بعملك يا عمير؟ قـال يا أمير المؤمنين أخذت المال من أهله ثم قسـمته على أهله ووالله لو بقى منه شىء لأتيتك يه يا أمير المؤمنين. فقال له يا عـمير عد إلى عملك فإنهم قد اتهمـوك وأنت برىء، فقال أنشدك الله يا أميـر المؤمنين أن تعيدنى إلى أهلى فإنى لا أصلح لولاية حـمص ولا لغيـرها فأذن له وأعفـاه من الإمارة، ثم بعث إليه بعد أيام حـبيب بن عمر وقال له إذا ذهبت إليه فـأقم عنده أيامًا تعرف على حاله وكن ضعيفًا عنده ثلاثًا حـتى تراه، وهل هو فى سعة أو ضيق؟ فإن وجدته فى ضيق فادفع إليه مـائة درهم فذهب إليه حبيب فلم يجد عـنده شيئًا يؤكل إلا خبز الشعـير مأدومًا بالخل والزيت فمكث عنده ثلاثة أيام كمـا علمه عمر ولما ير فى منزله شيئًا غير خبز الشعير والخل تـألم لخشونة عيشه، فقال له عمير يا أخى هذا هو عيشى فإن شئت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم ألين عيشًا منا فأفعل فإننا والله لو كان عندنا غير هذا الطعام لآثرناك بـه، فلما سمع حبيب منه هذا الكلام دفع إليه المال الذى أمره به عمر فأسرع إلى ثوب قديم ومزقه وجعل يصر فى كل قطعة جزءًا من الدراهم ويبـعث بها إلى إخوانه من الفقراء حـتى أنفذها كلها،

فلما رأى حبيب ذلك جاء إلى عمر وقال له يا أمير المؤمنين جئتك من عند أزهد الناس ووالله ما رأيت عنده من الدنيا قليلا ولا كثيراً، فأمر سيدنا عمر بطعام وثياب فلما وصل إليه عطاء الخليفة قال: أما الثياب فأقبلها وأما الطعام فلا حاجة لى فيه فإن عند أهلى منه ما يكفيهم ثلاثة أيام وأنا واثق أنه لا يفرغ من عنده حتى يرزقهم الله من فضله.

وقالوا إن الخليفة المعتضد كان نائمًا ذات ليلة فاستيقظ من نومه فزعًا وأمر برجاله وجنوده أن يدخلوا عليه، فلما جاءوا قال لهم إنى آمركم بأمر فنفذوه، فقالوا جميعًا نحن جنود الخليفة وأنصاره المخلصون ولا نعصى له أمراً، قال اذهبوا وأحضروا لى أول ملاح دخل الميناء واحجزوا مركبه واحرسوها، فذهبوا إلى دجلة فوجدوا ملاحًا قد أرسا على شاطئ بغداد، فقالوا أجب أمير المؤمنين قال ومالى وما لأمير المؤمنين فأخذوه رغم أنفه، فلما دخلوا على الخليفة قال لهم أوجعوه ضربًا حتى يعترف بالجريمة التى ارتكبها ويخبركم عن حديثه مع المرأة التى قتلها فإما اعترف وإلا ضربت عنقه، فلما أوجعوه ضربًا وخاف على نفسه القتل قص عليهم قصته وقال بينما أنا واقف على مركبى داخل الميناء إذ جاءت إلىّ امرأة جميلة فأعجبت بها وتعلقت بها نفسى فراودتها عن نفسها فأبت وأعرضت فأرغمتها على ما أريد وأخذت منها حظ نفسى وخفت أن تبوح بسرى إذا خرجت إلى البر فقتلتها وأخذت كل ما كان معها من حلى ونقود، ثم طرحت بها فى البحر وذهبت قاصدًا «واسط» فمكثت فيها قليلاً ثم اتجهت إلى هنا فجاءنى جنود الخليفة وقالوا أجب أمير المؤمنين، ووالله لقد فعلت ما فعلت وما معى أحد، فقال له الخليفة لقد كان معك الله وأنت تظلم فاستهنت بسلطانه فذل عليك بقدرته، أين الحلى والنقود أيها الوغد اللئيم؟ قال فى صدر السفينة يا أمير المؤمنين فبعث الخليفة إلى السفينة من يحضر له كل ما فيها وأن يغرقها فى الماء وأمر من ينادى فى الناس من كانت له امرأة خرجت من بيتها بالأمس فليحضر إلى دار الخلافة فحضر أهل المرأة ووصفوها ووصفوا حليها وما كان معها من نقود، فدفعه الخليفة إليهم وقتل الرجل الظالم، فلما فرغ من أمره أقبل عليه جلساؤه وقالوا له يا أمير المؤمنين ناشدناك الله إلا أخبرتنا من أعلمك بشأن

المرأة والرجل؟ وقد حدث ما حدث فى منتصف البحر وفى جوف الليل ولم يكن معهما من يسعى بقصتهما إليك.

فقال الخليفة: بينما أنا نائم أبصرت رجلاً أبيض الوجه طويل اللحية وضاء الجبين ينادينى قائلاً يا أحمد قم إلى أول ملاح ينحدر إلى بغداد الساعة فاقبض عليه واسأله عن المرأة التى قتلها ظلمًا فإذا اعترف لك فأقم عليه الحد وإياك أن يفوتك هذا فتكون من الظالمين، فكان ما رأيتم.

وصدق الله العظيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[2].

ولهذا نرى الرسول وأصحابه من بعده كانوا يتخوفون الظلم ويعلمون أن الله على كل شىء شهيد وأنهم لا يخلون لحظة من عين الله تلحظهم وتراقب أمورهم فكانوا لا يرفضون الظلم ولا يحبون الظالمين، وإذا بلغ واحد منهم أن عاملا من عماله ظلم رعيته حقًا أو اغتصبهم مالاً أو ضربهم سوطًا، سارعوا إلى القصاص منه حتى يكون عبرة لغيره وسلفًا ومثلاً للآخرين، ومن هؤلاء وعلى رأسهم الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان يأخذ عماله بالشدة ويحذرهم عواقب الظلم والبغى ويحاسبهم حسابًا عسيرًا مهما كانوا عظماء.

قالوا فى مناقبه إنه كان جالسًا مع أصحابه فدخل عليه رجل من المصريين وجعل يصرخ ويصيح ويقول. هذا مقام العائذ بعدلك يا أمير المؤمنين فقطع عمر حديثه مع جلسائه وأعطاه كل اهتمامه وقال له يا هذا عذت بمجير فما شأنك وما هى ظلامتك؟ فاطمأن المصرى إلى عدله وذهب عنه روعه وجعل يقص على

---

(1) إبراهيم: ٤٢، ٤٣ .   (2) المؤمنون: ١٧ .

مسامعه ظلامته فقال: يا أمير المؤمنين سابقت ابن عمرو بن العاص فغلبته وفزت عليه فلما رآني سبقته ضربني ونهرني وقال: كيف تسبقني وأنا ابن الأكرمين فشكوته إلى أبيه فحبسني حتى لا آتيك فمكثت في السجن أياما وجعلت أتحين فرصة أهرب فيها من ظلمه لأشكوه لك. فلما أمكنتني الفرصة جئت إليك لتحكم بيني وبينه، فلما سمع عمر مقالته أخذ رقعة فكتب فيها إلى عمرو وكان إذا غضب عليه خاطبه بهذه العبارة الجارحة «إلى العاصي بن العاصي» أما بعد إذا وصلك كتابي هذا فاشهد موسم الحج مع ابنك والسلام.

ثم التفت إلى المصري وقال له أقم هنا ضيفا على المسلمين في ظل كرمهم حتى يحل موسم الحج فأقام الرجل في رحاب عمر حتى جاء الموسم وحضر عمرو بن العاص ومعه ابنه فأجلسهما عمر مجلس القضاء وأقبل على عمرو يؤنبه ويقرعه في عنف وقسوة قائلاً له: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، ثم التفت إلى المصري وأعطاه سوطا وقال له قم فاضرب به ابن الأكرمين، فجعل يضربه ولم يكف عن ضربه حتى اشتهى الحاضرون ذلك وكان عمر يقول في أثناء ضربه ليشجعه ويشد من أزره اضرب ابن الأكرمين، وأخيراً سكت المصري وأقبل على عمر فدفع إليه السوط وقال له. خذ هذا يا أمير المؤمنين فقد اشتفيت وارتضيت، فقال له عمر «عل بها صلعة عمرو نفسه فوالله ما ضربك إلا بسلطانه ولكن المصري كان سليم الذوق مهذب النفس، فقد أبى ذلك وقال إنما أضرب من ضربني، فقال له عمر والله لو ضربته ما منعناك منه، ولم يكتف الخليفة عن تقريع عمرو حتى اعتذر عن ظلم ابنه بأنه لم يعلم بما وقع بينهما.

وهكذا كانت سيرة الخليفة الراشد مع جميع عماله وولاته الذين ولاهم الأمصار.

وكان الحجاج ظالماً جائراً يحب الظلم ويقصد إليه، وكان يؤمن أنه لا يطمئن له حكم ولا يقوم له سلطان ولا تتحقق له هيبة إلا إذا اتخذ الظلم شعاراً له ودثاراً، وقد اتخذ من عداوة الأمويين للهاشميين فرصة يظهر فيها شخصيته

ويقيم على أنقاضها عزته لأنه كان أميراً على العراق، والعراق هى مهبط العلويين ومجمع شيعتهم وأحبائهم فأطلق يد الظلم فيهم ونشر الخوف والرعب بين صفوفهم ونكل بهم شر تنكيل ورأى أن فى هذه الغطرسة وفى تلك الشدة وفى هذا البطش الشنيع أقرب طريق يتودد به إلى قلوب الخلفاء من بنى أمية ليبقوه رجلا من رجال دولتهم وسيفًا من سيوف سلطانهم كيما يعيش عمره فى ظلهم حاكمًا أميراً.

والأخبار فى ظلمه وجوره كثيرة عديدة وذائعة منتشرة ولكنها كانت مع العلويين وآل البيت أقبح ما عرف من ظلم وأشنع ما وجد من طغيان.

ولقد روى التاريخ أن عمر بن عبد العزيز أخرج من سجنه بعد موته مائة وعشرين ألفًا لا يعرف لواحد منهم ذنب يستحق السجن عليه، وكان سجنه صورة من ظلمه واستبداده فقد كان سجنًا لا سقف له ولا مكان لقضاء الحاجة فيه، ولا حواجز تعزل الرجال عن النساء، وكان يوصى القائمين على طعام نزلاء السجن أن يطعموهم خبز الدخن مخلوطًا بالرمال الخشنة ويكثرون لهم فيه من الملح الجبلى فإذا أكلوه جافًا قفاراً حجبوا عنهم الماء حتى تجف حلوقهم فإذا سمحوا لهم به فليكن كدراً مرنقًا، وحدث يومًا أن قبض على رجل من أهل البيت وأمر بتعذيبه حتى يرجع عن حبه لعلى رضى الله عنه ويعترف لبنى أمية بالحب والولاء، فكتب إليه العلوى من سجنه رسالة مريرة يذكره فيها هول القيامة ومصير الظالمين، كتب إليه يقول:

من أحد المؤمنين إلى زعيم المنافقين وإمام الظالمين الحجاج بن يوسف لا سلم الله عليك ولا أكرمك ولاحياك ولارعاك. أما بعد..

فإنى أقول لك إننا آل بيت نطيع الله ونعبده ونخشاه ونتقيه وقد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم الله والشهود الجوارح والأعضاء ﴿ **وإن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾.

فلما قرأ الحجاج رسالته اشتد غضبه وامتعض وجهه وأمر جنوده وأعوانه الظالمين أن يضاعفوا له العذاب حتى يموت.

وقالوا: إن المأمون ولى إمارة الكوفة رجلاً من أحبائه فظلمهم حقوقهم وأساء السيرة فيهم وأسرف فى ظلمهم والقسوة عليهم حتى تظلَّم أهلها من سياسته وضجوا من معاملته وقسوته، فذهبوا إلى المأمون يستغيثون بعدله ويستنجدون برحمته ويتضرعون إليه أن يبعد عنهم ذلك الغشوم الظلوم فقال المأمون لسيد من سادتهم إن قومك قد تمردوا على عاملى ووالله ما علمت بين عمالى أحدًا أعدل منه، فقال له الرجل يا أمير المؤمنين ما علمت رجلاً أولى بالعدالة والإنصاف منك فإن كان عادلاً كما تقول ومنصفًا كما علمت عنه فعليك أن توليه كل بلدة من ملكك حتى يلحقهم من عدله وإنصافه مثل ما لحقنا، وإذا فعلت ذلك به فلن يصيبنا منه أكثر من ثلاث سنين فضحك المأمون من قوله وتعجب من فطنته وقوة حجته وعزله عنهم.

ويقال أن الدولة العباسية بدأ ضعفها وانحلالها وذهاب هيبة الخلفاء وسلطانهم أيام خلافة المعتصم، وكان المعتصم قد أولع بالترف وكثرة البذخ وانغمس فى النعيم والشهوات وأسلم مقاليد الحكم للأتراك السلاجقة ليفرغ هو لمتعه وأهوائه، ونتيجة لهذا الإهمال كثر الظلم وانتشر الفساد وفشت المعاصى بين الناس وتعددت جوادث السرقة والخيانة وظهر السلب والنهب وأعرض الناس عن تجارتهم وزراعتهم لكثرة ما يفرض عليهم من الأموال ظلمًا، وكان التأخر ظاهرًا واضحًا فى كل شىء مما يدل على أن الدولة فى طريقها إلى الخراب والدمار نتيجة لقيام الظلم والجور فيها، وحرمانها من فضيلة العدل ونعمة الإنصاف، وقد أراد بعض جلساء المعتصم والمقربين إليه أن ينصحه ويذكره حتى يلتفت إلى سياسة الدولة ويبعد عنها ما تقاسيه من جور وطغيان وما هى سائرة إليه من دمار وبوار على يد الظالمين، فتحين فرصة من أوقات الصفاء وساعات السمر ليوقظ انتباهه فيها، فقص عليه قصة رمزية أدرك الخليفة منها أنه يعنيه بها ولا يعنى أحدا سواه، قال له يوما من الأيام، يا أمير المؤمنين بلغنى أن بومة الموصل خطبت ابنة بومة البصرة لابنها فأبت بومة البصرة قبول هذه الخطبة إلا إذا دفعت بومة الموصل مهرًا عظيمًا لابنتها فقالت بومة الموصل وكم تريدين مهرًا صداقًا لابنتك؟ قالت بومة البصرة: لا أرضى لابنتى مهرًا إلا مائة قرية خراب، فقالت

لهـا بومة الموصل إنى لا أقـدر على هذا المهـر فى هذه السنة ولكن إذا طال الله عمر والينا سنة أخـرى فإنى سوف أعطيك هذا المهر وفوقه إن شـئت، ففطن لها المعتـصم وترك انغمـاسه فى اللهـو واللعب وجلس بنفســه للمظالم ينظر فيـها، وأيقن أن الظلم إذا دام دمر وخرب بينما العدل: إذا دام عـمر البلاد وأمن العباد ورفع راية الإسلام والوئام، وأن الظلـم يخرب الديار ويقصف الأعـمار ويوغل الصدور ويزرع فى القلوب العداوة والبغضـاء ويجعل المظلوم يستعدى ربه عليك ويسأله فى لـيله ونهاره وسره وعـلانيتـه أن يأخذ له بحقـه منك وأن يذيقك من الذل والهوان بقدر مـا أذقته من الظلم والجور والطغيان والاسـتبداد ما دمت من الظالمين.

يا ظالما جار فيمن لا نصـير له ... إلا المهيمـن لا تغتر بالمهـــل

غدا تموت ويقضى الله بينكما ... بحـكمه الحق لا بالزيغ والميـل

فلا تستهن يا أخى بغضب الله ولا تغتـر بحلمه وإمهاله فإنه وإن حلم لابد أن يغضب ومهما صبر لابد أن ينتقم، ورحم الله الشافعى فقد كان يقول مخاطبًا كل ظالم عنيد:

أتهـــــزأ بالدعـــاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعـــاء

سهام الليل لا تخطى ولكـن ... لهـا أمـــد وللأمد انقضــــاء

فى فضل التواضع وما جاء فى مدحه

التواضع فضيلة حميدة تحبب المتخلق بها إلى الناس وتعظمه فى نفوسهم وتجعله منهم ملء العيون والقلوب، يشتهون قربه ويتمنون لقاءه ويستأنسون بحديثه ويعشقون معاملته، يتقاتلون فى خدمته ويبادرون إلى طاعته ويجعلونه محط أنظارهم ومهبط حوائجهم ومفزعهم عند النوائب والخطوب، فلكل هذه المحامد وهاتيك الفضائل رغب فيه الإسلام وحببه الدين إلى المسلمين ليتم بينهم التعاون على الخير وليتنافسوا فى البر وليكونوا جميعًا إخوانًا فى السراء والضراء وأنصارًا فى الشدة والرخاء، وهو بعد ذلك كله من صفات المرسلين ومن أقدس مزايا الصالحين، ومن ألزم خصال رسول الله التى جمله الله بها وجعله بفضلها نبى الرحمة ومنبع العلم والحكمة ومعدنا نفيسا للجود والكرم.

ولو جاز لإنسان أن يتكبر لنعمة وهبها أو مزية منحها، أو فضل أتاه الله لكان أولى الناس بالفخر والكبر والتيه والخيلاء رسول الله ﷺ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين ورسول الله إلى الناس أجمعين ورحمة أرسلها للعالمين، ينزل عليه الوحى من فوق سبع سموات ويخاطبه الله بأعظم الكلمات وأفخم العبارات، فلا يقول له إلا «يا أيها النبى» ولا يناديه إلا أيها الرسول، يسميه فى قرآنه أسماء كثيرة وينعته فى كتبه بنعوت عديدة، فمرة يسميه رحمة، ومرة أخرى يسميه رءوفا رحيما، ومرة ثالثة أنه شاهد ومبشر ونذير، وأنه سراج منير وداع إلى الله بإذنه، ويذكر فى كتابه ما يدل على عظمته وتكريمه، فالذين يضعون يدهم فى يده يضعونها فى يد الله عز وجل، والذين يذهبون إلى عمل دون أن يأذن لهم غير مؤمنين، والذين يرفعون أصواتهم فوق صوته أغرار جهلاء، واللائى يتظاهرون عليه من نسائه وزوجاته مهددات بالطلاق والفراق والحرمان من شرف النبوة ومزية الاصطفاء، وإن أمرهن إلى فشل وخزلان لأن الرسول يظاهره الله والملائكة وجبريل وصالح المؤمنين، والذين يخرجون على طاعته ويخالفون أمره لابد أن تصيبهم فتنة أو عذاب أليم، والذين لا يمتثلون

لحكمه ولا يرتضون قضاءه عصاة ضالون. والذين يستجيبون لأمره هداة صالحون، إلى غير ذلك من الفضائل والخصائص التى خلعها الله على رسوله وتفضل بها على نبيه وجعله بها سيد الرسل وقدوة البشر وصفوة المصطفين الأخيار، ومع كل هذه الصفات وتلكم المزايا كان يرفع ثوبه ويخصف نعله ويقم بيته ويحلب شاته ويخدم نفسه ويحمل متاعه ويتواضع جهده لإخوانه من الفقراء والمساكين، ويتفقد أحولهم كلها ويسأل عنهم فى كل آن وزمان، فإن كانوا مرضى عادهم وإن كانوا فى عمل أعانهم وإن كانوا محزونين واساهم، وإن كانوا مدينين سد عنهم، ولذلك لا نعجب كثيراً إذا علمنا أنهم كانوا يتفانون فى حبه وقربة، ويسارعون إلى تنفيذ أمره ونهيه ويفدونه بالمهج والأرواح.

روى مسلم فى صحيحه أن الرسول ﷺ كان جالسًا فى بيته يومًا وقد اجتمع عنده أصحابه يسمعون منه القرآن ويدارسونه العلم والحكمة ويتلقون بشوق وشغف كل ما يريد أن يربيهم عليه من أخلاق ومبادئ، وبينما كان المجلس النبوى كله يسبح فى نشوة حالمة من معين النبوة ويرتفع فى روضة يانعة من أزهار الرسالة ويحلق فى جو ملائكى رحيب، لا صخب فيه ولا لغب ولا كبر فيه ولا غرور، دخل عليه جرير بن عبد الله فوجد مجلس الرسول غاصًا بأصحابه وأحبابه وليس بينهم مكان يجلس فيه فأخذه الحرج وتحير أيجلس على الأرض أم يعود راجعًا من حيث جاء أم يظل واقفًا هو؟.

وأدرك الرسول حيرته وارتباكه أو لعله شاركه تلك الحيرة وهذا الارتباك فماذا يفعل الرسول لينقذ الموقف ويكرم من جاءه يبتغى فضله وينشد نبله ويأمل علمه وحكمته ويأخذ عنه دينه وقرآنه، أيرده صفر الكفين من كل هذه الأفضال، وهل يعيده محرومًا من كل هذه الآمال؟

حاشاه أن يحرم الراجى مكارمه   أو يرجع الجار منه غير محترم

لقد أسرع الرسول ﷺ إلى ردائه فجمع أطرافه ورمى به إلى جرير وقال له «**خذ هذا يا أخى فاجلس عليه**» وتلقف الرجل رداء رسول الله فاهتز قلبه لهذا الكرم وتحركت نفسه لهذا التواضع وكاد يذوب خجلاً ووجلاً، فجعل يقبل الرداء

ويضعه على وجهه وعينيه وهو يبكى ويقول أو أجلس على ردائك يا رسول الله؟ ولا يعلم إلا الله وحده ماذا فعلت تلك المكرمة فى قلوب أصحابه وإلى أى حد أثر تواضعه فى نفوسهم.

ولم لا والرسول ﷺ يقول: **«ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله وما من أحد من عباد الله إلا معه ملكان فإن رفع الإنسان نفسه قال الملكان اللهم ضعه وإن تواضع وخشع قالا اللهم ارفعه»**.

ويقول ﷺ: **«طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وأنفق مالاً جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والفاقة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى للمتواضعين يوم القيامة أولئك أصحاب المنابر يوم الدين، طوبى للمطهرة قلوبهم ينظرون إلى الله كما تنظرون إلى القمر ليلة البدر»**.

وقال سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه «إذا أراد الله بعبد خيراً هداه إلى العبادة وحبب إليه الدين وحسن صورته وجعله فى مكان كريم ورزقه تواضعا، فكان بذلك من صفوة عباده المتقين»، وقال رسول الله ﷺ:

«أربع خصال لا يعطيهن الله إلا من أحب. الصمت وهو أول العبادة والتوكل وهو أول اليقين والتواضع وهو أول الإيمان والزهد أول السلامة من ظلم الدنيا».

وقالوا إن رجلاً من المتكبرين دخل على سيدنا أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه فشكا إليه قسوة قلبه وظلمة نفسه وقال له يا سيدى إنى اجتهد فى العبادة وأجد فى الطاعة منذ عشرين سنة ولم أجد لها فى نفسى حلاوة، ولا أحسست لها فى قلبى ضياء ولا نوراً كما يخبر الصالحون عن أنفسهم ويتحدثون عن الألطاف والمنن التى يسوقها الله إليهم، فأدرك الشيخ رحمة الله عليه وعرف مرضه وتبين مكمن الداء فى نفسه وأنه متكبر مغرور، فقال له يا أخى. لو اجتهدت مائة عام فى العبادة والطاعة سوف لا تجد لها لذة ولا تتذوق لها حلاوة، ولا تصل حبلك بالله، فقال السائل ولم؟، قال لأنك محجوب عن الله بنفسك وبعيد عنه بطبعك، حجبك عنه الكبر وأبعدك عنه الغرور، قال فهل من

دواء يا سيدى؟ قال نعم. قال فما هو؟ قال تذهب إلى الحلاق فتزيل عنك شعرك ثم تخلع هذه الثياب عنك وتدخل السوق فتشترى طعامًا كثيراً وتحمله على كتفك وتجعل قلة فى عنقك وتطوف على الفقراء والمساكين فتطعمهم من هذا الطعام، فإذا فرغوا سقيتهم من الماء وغسلت لهم أيديهم فإن سألوك الوضوء وضأتهم، فقال الرجل يا سيدى لا أستطيع هذا. فهل من دواء غير حمل الطعام وصب الماء؟ قال صدقت أنت لا تستطيع هذا لأنك مريض بقلبك وإذا تواضعت أنت إلى هؤلاء سألوا الله أن يشفيك من علة الكبر فيستجيب الله لهم آن ذاك وينقلك من ديوان المتكبرين إلى زمرة المتواضعين فاستجاب الرجل وخرج بعيداً عن بلده وفعل ما أمره الشيخ بفعله ثم عاد إليه وهو كحالته، فلما أبصره الشيخ قال له بفعله لولا أنك متكبر عنيد لفعلت هذا بفقراء بلدك حتى يتشفعوا لك عند الله، فجاهد الرجل نفسه وفعل هذا مع فقراء بلدته فدعوا له بخير فاستجاب الله دعاءهم وشفاه من مرضه وأصبح من المتواضعين وصحب الشيخ وكان من أصفيائه المقربين وأحبائه المتواضعين، وقد أذاقه الله بعد ذلك حلاوة العبادة ونفح قلبه بلطائف المنن وأجرى على يديه الكرامات، فكان الشيخ كلما أدب مريداً من أصحابه ضربه مثلاً للمريدين.

وكان الشيخ رحمة الله عليه من عظماء المتواضعين، قالوا إنه كان يمشى ذات يوم قاصداً منزله فلما رآه الصبيان التفوا حوله وحاولوا أن يعبثوا به، وكان رضى الله عنه يلبس شارة حمراء فظنه صبيان من أهل الذمة الذين يدينون بغير الإسلام فتعلقوا بثيابه وجعلوا ينهرونه ويقولون:

أسلم يا يهودى. فقال لهم أبو يزيد نعم سأطيعكم أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ففرح الصبيان به فرحًا شديداً وأظهروا الغبطة والسرور بإسلامه وجمعوا له جوزاً فملئوا به جيبه وأحضروا له دابة فأركبوه عليها وجلعوا يطوفون به الشوارع والأزقة حتى مروا به على من يعرفه فطرد عنه الصبيان ونهرهم فى عنف وغلظة وقال لأبى يزيد يا سيدى لم أسلمت نفسك لهؤلاء الصبيان يعبثون بك هكذا؟ فقال له أبو يزيد. لا تعجل يا أخى إن لهؤلاء فضلاً كبيراً على كنت غافلاً فذكرونى وجائعًا فأطعمونى ومجهداً فأركبونى.

وقالوا إن سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بلغه أن واحدًا من أبنائه اشترى لنفسه خاتما بألف دينار فغضب منه وكتب إليه. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد نسى نفسه وجهل شخصه وغفل عن مصيره ومثواه. وبعد..

بلغنى أنك قد اشتريت لنفسك خاتما بألف دينار فإن كنت تخاف الله حقًا وتخشاه يقينًا فبعه وأشبع به ألف جائع واتخذ لنفسك خاتمًا بدرهمين واجعل نقشه «رحم الله امرأ عرف قدر نفسه».

فلما وصل الكتاب إلى ابنه لم يتردد فى بيع خاتمه كما قال له عمر ثم تصدق بثمنه واشترى له خاتمًا بدرهمين وعاش فى جملة المتواضعين لله.

وقالوا فى مناقب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه التى استحوذت على إعجاب المسلمين وغير المسلمين لفخامتها وروعتها. قالوا إنه كان يركب ناقته فى الرحلة التى زار فيها عواصم الإسلام قبل موته، وبينما كان فى طريقه إلى الشام اعترضت ناقته بحيرة فنزل عن ناقته وخاضها وكان يحمل آن ذاك نعله فى يده وكان سيدنا أبو عبيدة بن الجراح مرافقًا له فى تلك الرحلة، فأقبل عليه يلومه قائلاً: أأنت تفعل هذا وقد أصبحنا على مقربة من بلاد الشام؟؛ والله ما يسرنى أن أهل هذه البلاد رأوك وأنت تخوض هذه البحيرة حاملاً نعلك هكذا، فابتسم سيدنا عمر ابتسامة ملؤها التعجب والسخرية ثم تنفس الصعداء وقال: آواه لو غيرك قالها يا أبا عبيدة لجعلته نكالاً وعبرة لأمة محمد: أنسيت ماضينا يا ابن الجراح إنا كنا أذل قوم فى الجاهلية فأعزنا الله بالإسلام ومهما طلبنا العزة فى غيره أذلنا الله، إن رسول الله ﷺ حدثنى فقال: **«إن الله أخذ على نفسه عهدًا أن من تواضع لعزته رفعه وقال له انتعش أنعشك فهو فى أعين الناس عظيم وفى عين نفسه صغير ومن تكبر قصمه الله وقال اخسأ فهو فى أعين الناس صغير وفى عين نفسه كبير»** قال أبو عبيدة فوالله مازلت أعرف لعمر فضله على بعد اليوم.

ويقول التاريخ إن الخليفة الراشد لما دخل الشام استقبله معاوية بن أبى سفيان وكان واليه على الشام وقد استقبل عمر استقبالاً رائعًا وهيأ له موكبًا فخمًا

وأعد له زينة فاتنة وحرسًا مدججًا ومركبًا فارهًا وحلة غالية وكان ذلك الموكب ينتظر الخليفة على حدود الشام فى سرية صامتة حتى لا يعلم به أحد من أهلها قبل أن يراه فى زينته وبين حرس المسلمين وجنودهم، فلما التقى الخليفة بمعاوية أقنعه معاوية بأن يترك ناقته ويركب هذا البرذون الذى أعده لركوبه فى هيئة حسنة ومنظر فخم ومشهد رهيب ثم انتزع منه ثوبه الخلق وألبسه حلة تليق بجلال الخلافة وروعة الإمارة وعزة السلطان، ثم صف الحرس حواليه بصفة عسكرية منظمة عليهم ثيابهم الغالية وفى أيديهم سيوفهم ورماحهم، ثم أذن معاوية للموكب العمرى أن يأخذ طريقه إلى دار الإمارة فى صورة تملأ صدر العدو مهابة وتشد أنظار أهل الشام جلالة ووقارًا وكان البرذون فارهًا معلمًا فكان يمشى مشية مختالة ويميس فى عجب وكبر ويتمايل زهوًا وافتخارًا ويضرب الأرض بقدميه ضربة يكاد يخرقها من تحته وكأنما كان يشعر البرذون بعظمة الخليفة الذى يركبه، والألوية التى تظلله والعزة التى تعلوه والدين الذى يحكم ذلك الموكب ويبسط سلطانه وحكمه على ربوع الشام، لذلك كان يمشى مشية إيقاعية راقصة جعلت عمر يملأ صدره عجبًا ويميس تيهًا ويعود إلى ماضيه الأول أيام أن كانت تملأ عروقه الدماء المخزومية المنحدرة إليه عن طريق خئولته، ويشعر بشمم عدى وإبائه أيام أن كانوا يحملون لواء القضاء قبل مجىء هذا الدين الحنيف.

مشية جعلته يستعيد شبابه وهو كهل وينسى إسلامه وهو عمر، ويغفل عن تواضعه وزهده وهو إمام المتواضعين وسيد الزاهدين الورعين.

ولم يطل الطريق بعمر على هذه الحال ولكنها كانت لحظة عابرة ونزوة طارئة أحيت فى قلبه الدنيا بعد أن أماتها وأزكت فى نفسه نار الشهوات والملذات بعد أن أخمدها فلم يصبر على ذلك طويلاً حتى استيقظ ضميره الدينى وعاوده طبعه العمرى، فطرد الشيطان من صدره مزءومًا مدحورًا وتخلى عن هواه فى أقل من لمح البصر وترجل عن برذونه وأقبل عليه فضربه بكمه على وجهه وقال له قبحك الله وقبح من علمك ثم مد يده إلى حلته فانتزعها ورمى بها فى وجه

معاوية وصاح فى رجال الموكب بأعلى صوته خذوا برذونكم وأعيدوا على ناقتى وخـذوا حلتكم وأعطونى ثوبى فـوالله لقـد ملأتم صـدرى زهواً وقلبى عـجبًـا وفخرًا، وأحببتم الدنيـا فى قلبى بعد ما أمتها ورفعتموها وقد وضـعتها، فحاول معـاوية أن يقنعه أن يثبت فى مـوقعه حـتى يدخل دار الإمارة جمـيع أهل الشام ينتظرون رؤيته ويتهيبون زورته، فليملأ صدورهم بعزة السلطان وجلال الإسلام، فرفض عمر كل ما قاله معاوية وركب ناقته ولبس مرقعته وحمل درته فكساه الله جلال المتواضعـين وخرج عظماء الشام ليروه وعلى رأسـهم بِطْرِيقَهُمْ الذى اهتز قلبه رهبة من مشـيته وذابت نفسه خوفًا من بأسه وسطوته فـقال لقومه، إن كان هذا هو إمامهم فأعطوهم كل ما يريدون، وقد صـور هذا المشهد العمرى المرحوم حافظ إبراهيم شـاعر النيل فى عمـريته فقال رحـمه الله وأثابه يخاطب الخليـفة العادل والإمام الزاهد فى دنياه:

يا من صـدفت عـن الدنيـا وزينتـهـا
فلم يـغـرك من دنـيـاك مـغـريهـا

مـاذا رأيت ببـاب الشـام حـين رأوا
أن يلبسـوك من الأثواب زاهـيـهـا

ويركـبـوك على البـرذون تـقـدمـه
خـيل مطهـمـة تحلو مـرائيـهـا

مـشى فـهـملج مـخـتـارًا بـراكـبـه
وفى البـراذين مـا يزهو بعـاليـهـا

فـصـحت يا قـوم كـاد الزهو يقـتلنى
وداخلـتنـى حـال لسـت أدريهـا

وكـاد يصـبـو إلى دنـيـاكم عـمـر
ويرتـضى بيع بـاقـيـه بفـانيـهـا

ردوا ركـــــابى فــــلا أبـغى بـه بدلاً
ردوا ثيـابـى فـحسـبى اليـوم باليــهـا

وجاء فى مناقب سيـدنا أبى بكر أنه كان جم التواضع كثير السـماحة لين العريكة يبغض الكبر ويمقت المتكبـرين، قالوا إنه كان قبل أن يلى الخلافة يحب جيرانه ويعطف عليهم ولا يخرج إلى عمله وشئـونه حتى يتفقد أحوالهم ويعرف أبناءهم وربما سألوه أن يحلب لهم شاتهم فيحلبها، فلما آلت إليه الخلافة وأصبح أميراً على المسلمـين قالت ابنة جارته لأمها إن أبـا بكر لا يزورنا بعد اليوم ولا يتفقد أحوالنا بعد الآن لأنه أصبح خليفة للمسلمين فأين هو منا وأين نحن منه، ولكنهم فـوجئـوا فى اليوم الثـانى وفى نفس الموعد الذى اعـتاد أن يأتـيهم فـيه فوجئوا بالصديق يدخل عليهم الدار ويفـعل معهم من الخدمات والمروءات مثلما كان يفعل معهم قبل أن يلى الخلافة حتى خجلوا من تواضعه وبهتوا من سماحته وقالوا له يا خليفة رسول الله إن أعباءك ثقلـت عليك وإن تبعاتك قد باتت كثيرة ونحن نعافيك من خـدمتنا، فقال لهم سيدنا أبو بكر «والله لا يغـيرنى ما صرت إليه من خلق عودت نفسى عليه».

إنها الفطرة السليمة والطبـيعة المستقيمة والسمـاحة الخالصة والتواضع الذى أخذ الإسلام نفوس أبنـائه بجماله وأذاقهم رحيقه وحـلاوته فى رحاب رسولهم الكريم، فقـد جاء أنه ﷺ كان جالـسًا يومًا مع أصحـابه وكان يجلس بين يديه عظماؤهم وأربـاب الحول والطول فيـهم وكان من بين الجـالسين سيـدنا أبو بكر يجاوره أحد الأغنياء وأصحاب الثراء الذين أغرموا بالمال وحبه حتى فتنتهم الدنيا وزينتها، وكـان هذا الرجل لا يستريح كثيرا لمجـاورة أبى بكر، فكان يجمع ثيابه بعيدا عن ثيابه ويضغط جسمه وأعضاءه حتى لا يلامس جسمه أعضاء الصديق، وكأن حركاته فى خـفة طائشة تحدث رائيها عما يسـتكن داخل نفسه من أمراض وظلمات، ومازال يتكلفهـا ويكثر من تعاطيها دون خجل ولا حيـاء حتى أدركها الرسـول فسـأله فى رفق وهدوء «يا هذا مـالى أراك تتبـاعـد عن أبى بكر وتلم أثوابك عنه. هل خفت أن ينتقل غناك إليه أم خفت أن ينتقل فقره إليك؟» ففزع الرجل من تلك القولة ولم يستـمرئ مرارة الجرعة النبوية التى قـصد الرسول بها

دواء نفسه ومعـرفة سره، فقال وهو يرتعد فـزعا ويذوب خجلا والله لا هذا ولا ذاك يا رسول الله وإنما هى نفس مريضة يلعب بها الشيطان فأقلنى العثرة، قال يا هذا، قد أقلناك عثرتك على ألا تعود لمثلها، فقال الرجل أما وقد عفوت عنى يا رسول الله فإنى أشـهدك أن مالى بينى وبين أبى بكر مناصفـة فسله أن يقبل منى نصفـه هبة خـالصة لوجـه الله فعـسى أن يكون ذلك كفـارة لما وقع منى، فنظر الرسول إلى أبى بكر وقـال أقبلت يا أبا بكر من الرجل هديته؟ قـال لا يا رسول الله ما قبلت منه شيئًا. قال ولم؟ فـقال يا رسول الله أخشى أن يفعل المال بنفسى مثلما فعل بنفسه فيسلبنى حلاوة التواضع ويبدلنى مكانها عجبًا وغرورًا، فقال له النبى ﷺ : **«ردع عنك الصِّدِّيق فوالله ما فتنه المال يومًا ولا خدعه الشيطان»**.

وكـان عطاء بن أبى رباح من علمـاء مكة وأئمـة الدين الأجلاء وكـان له مجلس فى الفقـه والحديث وآخر فى الزهد والورع، وكان كثيـرًا ما يأخذه حال أثناء درسه فيبكى خوفًا من عذاب الله، فـيبكى أصحابه لبكائه، ثم يتفرقون عنه ويجلسون فى مـجالس غيره من العـلماء فلا يجدون فى دروسـهم الحلاوة التى يجدونها فى دروس عطاء ولا يحسون حلاوة الكلمة وعمق العظة وحرارة الزجر التى يجدونها وهم فى مجلسه فينصرفون عن هذه الدروس ولسانهم يلهج بالثناء على عطاء حتى أوغر ذلك قلوب إخـوانه عليه وقال فى حقه سعـيد بن المسيب كلامًا لم يعجبه، قـال وأى شىء يفعله عطاء إنه بكاء ولا شىء غير ذلك، فنقل أحد التـلاميذ كلمتـه تلك إلى عطاء ليوغر بهـا صدره على سعيـد، وكان عطاء على علمه وزهده ودينه وورعه سمـحًا متواضعًا، فقد نهر السـاعى بينهما بالشر والمؤجج بينهمـا نار العداوة وقال له يا أخى لم تكن أمـينًا على سر سعيـد حتى نقلته إلى ولا مـراعيًا لصـحبتى حـتى نقلت إلى ما أكره وأوغـرت صدرى على عالم من فقهاء المسلمين، فإن كنت تخاف الله فلا تسع بين اثنين بعد يومك هذا وعد إلى سعـيد فقل له إن أخاك عطاء يقرئك السلام ويقـول لك يا أخى اشتغل بعـيبك عن عـيب غيـرك واعلم أن الموت يعمنـا والقبـر يضمنا والتـراب يأكلنا والقيامة تجمعنا والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين.

فلما بلغت هـذه الكلمات مسـامع سعيـد نالت من نفسه حـتى بكى وقال والله لا تطمئن نفسى ولا يسـكن قلبى حتى أستحل عطاء، وذهب إليه مـعتذراً فتعانقا وتصافيا وكأن لم يكن بينهما وشاية ولا عداء.

ولما سئل سيدنا عبد الرحـمن عن أعجب شىء رآه من عمر قال وأى شىء لم يكن فى عمر عجيبًا وغريبًا لقد وقـعت لى معه قصة مازلت أستغفر الله منها كلما ذكرتها فقالوا له وما ذاك يا ابن عوف؟

قـال كنت عائدًا إلى المـنزل ذات ليلة وكان الظلام شـديدًا والبـرد قارسًـا والسكون شاملاً وبينما أنا اختلس الخطى إلى بيـتى اختلاسًا إذ وقعت عينى على عمر يسعى إلى وجهة مجهولة وقصد غير معلوم،، فلعب بى الشيطان وداخلتنى ريبة فى أمر عمر فقلت أتبعه لأعلم غايته واكتشف وجهته، وقد آن الوقت الذى آخذ فيه على عـمر مأخذًا وأحصى عليه عيـبًا فتبعته فى حذر، وراقـبته من بعد فكان يدخل دربا وينعطـف إلى زقاق حـتى انتـهى إلى بيت ظننت أنه مـهجـور وليس فيه أحد، فتبعته حـتى دخل عقر هذه الدار فمكث هنيهة وأنا كامن له فى مكان خفى، حتى قضى حاجته وكر راجعًا من حيث جاء، فلما غاب عن عينى دخلت المكان الذى غاب فيه من قبل فوقعت عينى على ذبالة تصارع الظلام حتى يوشك أن يصرعها فمشيت على شعاعها إلى أن اقتربت منها فسمعت أنينًا خافتًا يشق حجب الليل، ويغالب سـكونه وهدوءه، فاقتربت من مصدره فـإذا عجوز شـمطاء ترقد على فـراش غليظ لا تكاد تقلب جنبًـا إلى جنب فـسلمت عليهـا فردت على السلام فـقلت لها يا أمة الله. من الذى كان عندك الساعـة فقالت لا أدرى، غير أن أبا بكر كان يعلم قصتى أيام أن كان خليفة وكان يعلم أنه لا عائل لى ولا كـاسب، فكان يأتـينى كل ليلة إذا جن الظلام بما يـكفـينى من الطعـام والشراب، فلما مـات حزنت عليه وظننت أن السبيـل قد انقطع بى لولا أن يسر الله لى رجـلاً من المسلمين لا يقل عـن أبى بكر سمـاحة ورقـة ولا ينقص عنه تواضعًا ولينًا، يجيئنى كل ليلة بمثل ما كان يجيئنى به أبو بكر من طعام وشراب، ثم لا ينصرف عنى حتى يقضى حاجـتى ويزيل القذر عن جسمى ويدنى إلى كل

بعيد، ثم يتركنى على أمل أن يعود ووالله ما عـرفت اسمه حتى الساعة وما أظن إلا أنه ملك من عنـد الله فـإن كذب ظـنى وكـان بشـرًا لم يكن إلا عـمـر بن الخطاب.

قال ابن عـوف فوالله ما أتمت حديـثها ولا أكملت قـصتهـا حتى تقطعت نفسى حسـرة وتفتت كبدى لوعـة، وسال الدمع من عينى غزيرًا هتـونًا وجعلت أقول وأنا أبكى «ويحك يا ابن عوف ثكلتك أمك أمثلك يتتبع عثرات عمر؟» فأنا كلمـا ذكرت تلك الزلة اسـتـغفـرت الله لى ولأميـر المؤمنين، وأيقنت أنه كـان متواضـعًا قد باع نفسه لله، ولما مـات سيدنا على زين العابدين وجدوا فى كـتفه ورمًا لا يعلمون سببه ولا متى حدث له فأشاع عنه من حضر غسله هذه الصفة، فقال الفقـراء جميعًا كنا إذا جن الليل واشـتد الظلام طرق بابنا طارق فكنا نهرع إليه فى خوف ونفتح له الباب فى ذعر فنرى رجلاً متلثمًا قد دثر نفسه فى عباءته وأخفى وجـهه وسط لثامه وهو يحـمل عدلاً من الدقيق على كتـفه وكنا لا نرى هذا إنسانًا فنأخـذ منه ما يعطينا دون أن نسأله عن شـأنه ودون أن نعرف من هو فينصرف عنا ونكتم أمرنا ونخفى سرنا، خـوفًا عليه من الذيوع والانتشار، حتى إذا طلع الصباح تحدث الجيران بأنهم قـد حدث لهم مثلما يحدث لنا، ثم يتناقل الناس شـأن هذا الطارق وحديث هذا الطـيف، وأنه يزورهم بين الحين والحـين ويأتيهم من آن إلى آن وما نشك اليوم أنه غـير على زين العابدين الذى غاب عنا عطاؤه واحتجب عـنا طيفه منذ أن مرض مرض الموت ولازم الـفراش حتى لقى الله وهو يحمل هذه السـمة على كتفـه لتشهد له بين يدى الله على مـا فعله من خير ومـا أسداه من معروف، فلطالما أشبـع بطونًا جائعة وداوى نفوسًا مـوجعة، وأطفأ أكبادًا حَرَّى، دون أن يشـعر بشىء من الحرج أو يحس مرارة أو إهانة لأن حلاوة التـواضع تأخذ عليـه كل جوانب نفـسه وتهيـمن على وجدانه وحـسه، وتدفعه دفعًا إلى خدمة الفقراء والضـعفاء، يحمل عنهم الأثقال ويسعى إليهم بها فى غسق الليـل دون أن ينتظر من أحدهم جزاء ولا شكـورًا ولا يحب أن يعرف

من يتعـامل معه، إن جـزاءه جزاء المخلصين الأوفـياء والصالحـين الكرماء الذين تحدث الله عنهم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[1].

جعلنا الله من عبـاده الصالحين وحشرنا فى زمـرة أوليائه المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(١) المؤمنون: ٥٧-٦١ .

في ذم الكبر والنهى عنه

جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات التى تذم الكبر وتحقره، كما تلعن أهله والمتخلقين به وتتوعدهم بالحزن الأليم والنكال الشديد، ويخبر الله عن مصيرهم ومآلهم وأنهم إلى جهنم وعذاب النار، فيقول سبحانه وتعالى ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[1] ويقول سبحانه في حقهم ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2] ذلك هو جزاؤهم في الآخرة أما جزاؤهم في الدنيا فهو تحقير الناس لهم وإبعادهم عن مصالحهم ومقاطعة أعمالهم والتعاون معهم، كى يستريحوا من شرورهم وسيئات أعمالهم لأن الناس لا يحبون المتكبرين ولا يأنسون بهم ولا يرجون قربهم ولا يميلون إلى سماع كلامهم ورؤية وجوههم، بل على العكس من ذلك إنهم لا يحبون لهم إلا الأضرار ولا يتمنون لهم إلا المصائب والأخطار، والسبب فى ذلك أنهم يتعاظمون عليهم بنعمهم ويتطاولون على ضعفهم بقوتهم دون أن ينفعوهم بشفاعة يقدمونها إليهم أو نعمة يمنحونها لهم أو واجب يقومون به فى شهامة وكرامة، أو معروف يصنعونه فى صمت وسكوت، إن المتكبر طبل أجوف وبالون منتفخ وشجر عاقر لا ثمر فيه، وهو إلى الشوك والحطب أقرب منه إلى الظل والثمر، وخير دواء للمتكبرين ألا يحترمهم الناس ولا يعيرونهم اهتمامًا فى مجالسهم ومعاملاتهم وأن يقابلوا تكبرهم بالازدراء والتحقير، فإن فى ذلك تفويتًا لغرضهم وقضاء على لؤمهم وإهانة لشيطانهم، ولأن يعزل هؤلاء عن المجتمع الذى يعيشون فيه وينتفعون بمروءاته وأعماله خير من أن يعبثوا بأفراده ويتعالوا على ضعفائه ويسخروا من الصالحين والأتقياء، حتى يدركوا أنه ليس فى الكبر ثمرة ولا فائدة وأنهم لم يكتسبوا من ورائه منفعة ولا نتيجة، ويوقنوا أنه شر كله ولا خير فيه وأنه تخييل من عمل الشيطان أوهمهم به أنهم شيء والله يعلم أنهم هباء وقلوبهم هواء.

---

(١) النحل: ٢٣ . (٢) غافر: ٧٦ .

ويكفى ذمًا لـهم وتحقيـرًا أن الله أبغضـهم وأن الرسول ﷺ ذمهم وقبح مصيـرهم، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**بئس العـبد عبـد تكبر واخـتال ونسى الكبير المتعال. بئس العـبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبـار الأعلى بئس العبد عبد سَهَا ولَهَـا ونسى المقابر والبلى. بئس العبد عبـد طغى وبغى ونسى المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد يقوده الطمع ويضله الهوى ويغره الشيطان فى دنياه**».

وقال ﷺ: «**إن فى جهـنم واديًا يسمى هبـهب حق على الله أن يسكنه كل جبار عنيد**».

وقال أيضًا: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه كبرًا وخـيلاء حتى يكتبه الله فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب**».

وقال رسول الله ﷺ: «**أهل النار كل جعـذرى جواظ متـكبر وأهل الجنة الضعفاء المقلون**».

وقد سئل رسول الله ﷺ عن السيئة التى لا تغفر؟ فقال: هى الكبر. وقال لأصحابه يعظـهم ويذكرهم ويبين لهم مداخل الشـيطان حتى يأمنوها، ويوضح لهم مسالكها حـتى يجتنبوها قال لهم: «**إن للشيطان مـصائد وفخاخًـا وإن منها كفران نعم الله والفـخر بعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهـوى فى غير ذات الله**».

وكان سيدنا عـمر بن عبد العزيز قبـل أن يتولى الخلافة يختال فى مـشيته ويتطاول على إخوانه فـأبصره الحسن البـصرى رضى الله عنه وكان بينهـما حب وود وصداقة فلما رآه يختال فى مشيته ويتمايل غمزه فى جنبه وقال له يا أخى ما هذه مشية من فى بطنه الغائط والبـول وتحت جلده العرق والدم، فقال له سيدنا عـمر لا تلمنى على هذا يا أبـا سعـيد فـوالله لقد ضـربت على كل عضـو من أعضائى كى أتعلم هذه المشيـة حتى تعلمتها، فقال له الحسن دعـها يا أخى فإنها ممقوتة وإن الله يمـقت عليها واقرأ إن شئـت قول الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي**

الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾(١).

وكان قيس بن عاصم من حكماء الإسلام ومن جلساء رسول الله ﷺ وكان إلى جانب ذلك سيدًا من سادات قومه وعظيمًا من عظماء عشيرته، وكان من صلاحه وتقواه يتعهد أولاده بالخير ويُنَشِّئُهم على الخلق الحسن ويحبب إليهم كل أدب عظيم ويجمل فى أعينهم كل سلوك قويم، كما كان ينهاهم عن الأخلاق المرذولة والخصال البغيضة، أبصر ابنًا من أبنائه يومًا يزهو بنفسه ويختال فى مشيته فلم يعجبه منه ذلك وقال له يا بنى لا تذهب بنفسك هكذا ولا تتطاول على الناس وقف بنفسك عند حدها واقدرها قدرها ولا يغرنك الشيطان بأمك وأبيك، أما أمك فقد اشتريتها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين من أمثاله واعلم يا بنى أن أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين هذين تحمل العذرة، فاستقامت أخلاقه وطابت نفسه وترك العجب والغرور.

وقالوا إن الحسن البصرى رضوان الله تعالى عليه كان يحس من بعض تلامذته عجبًا ويدرك فى أخلاقه تكبرًا، فلما يشأ أن يعظه فى وجهه أو ينصحه على ملأ من الناس حتى لا يخجل منه وحتى لا يلج فى الكبر والعناد فتحين فرصة جلس فيها تلميذه أمامه ليسمع منه درسه فأنشد الحسن هذه الأبيات:

لنا صاحب مولع بالخلافة ... كثير الخطاء قليل الصواب
أَلَجُّ لجاجًا من الخنفساء ... وأزهى إذا ما مشى من غراب

فلما سمع صاحبه الحكمة وتدبر تلك النصيحة رجع عن الكبر وأقلع عن الغرور وأمسك عن المراء والجدال، وكان كثيرًا ما يردد هذه الأبيات:

أيها الشامخ الذى لايرام ... نحن من طينة عليك السلام
إنما هذه الحياة متاع ... وعند الموت تستوى الأقدام

وفى الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال:

(١) الإسراء: ٣٨ .

«ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، شيخ زان وملك جائر وعائل مستكبر».

وقالوا إن ابن عوانة كان من أقبح الناس كبراً وأكثرهم غروراً. قالوا إنه دعا يومًا بخادمه ليحضر له شيئًا فأسرع الخادم إليه وقال نعم يا سيدى. فأمر بصفعه على وجهه وقال إنما يقول نعم من يستطيع أن يقول لا، ومن أقبح ما روى عن كبره وعجبه أنه تكلم إلى أحد العامة فى شأن من شئونه فلما فرغ من الحديث إليه دعا بماء فتمضمض وغسل فمه استقذاراً لحديثه إلى الرجل، وقالوا إن رجلاً من أصحابه سأله مالك ألا تغشى المساجد؟ ولا تحضر الجماعة؟ قال أخشى أن يزاحمنى البقالون.

ومن أعجب ما روى فى الكبر والخيلاء ما حدث به أبو داود فى سننه نقلاً عن صحابة رسول الله ﷺ، حدث أبو هريرة رضى الله عنه قال. أتى وائل بن حجر وافدًا على النبى ﷺ فأعلن إسلامه وبايع رسول الله على السمع والطاعة والجهاد فى سبيل الله، فأقطعه النبى أرضًا وعرف له قدره وأحسن ضيافته لأنه ملك من ملوك كندة، فلما أراد العودة إلى بلاده أمر النبى معاوية بن أبى سفيان أن يذهب معه ويزرع له الأرض التى أقطعها النبى إياه وأن يقيم له على أطرافها الحدود تمييزاً لها عن أرض غيره، فذهب معه معاوية تنفيذاً لأمر النبى وكان وائل يركب ناقته ومعاوية يمشى خلفه وكان الفصل صيفًا والجو حاراً فآلمت الشمس معاوية وأحرقت رأسه، فقال لوائل أركبنى خلفك على ناقتك، فغضب من قولته وأخذته العزة بالأثم فأجابه قائلاً لست من أرداف الملوك ولا ممن يركبون وراءهم، فقال له معاوية. فشىء أستظل به من وهج الشمس وحرها، فقال وائل: والله ما بخل يمنعنى يا ابن سفيان ولكن أكره أن يبلغ أهل اليمن أنى أعطيتك شيئًا يختص بى ولكن امش فى ظل ناقتى فحسبك بذلك شرفًا، ويقال إنه عاش إلى زمن معاوية ودخل عليه بعد أن ولى الخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين فرحب به معاوية وتواضع له وأجلسه على سريره معه وذكره بهذا اليوم فبدا على وجهه الخجل والاستخذاء، وقال صدق الله العظيم: ﴿**إن الشيطان للإنسان عدو مبين**﴾، وقد كان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: «مثل المتكبر كمثل رجل على

جبل عال يرى الناس صغارا ويرونه صغيرا) وفى الحديث القدسى عن الله عز وجل أنه قال: **«الكبرياء ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى فيها شيئًا قصمت ظهره ولا أبالى»**.

وكان المسرور بن هند من ألعن الناس كبرا وأكثرهم غرورًا وخيلاء حتى قال فيه بعض من رآه إنه وضع نفسه مكانًا لو وقع منه لتحطم، ومما روى فى كبره وغروره بنفسه وتعاليه حتى على ربه أنه خطب الناس يوما خطبة بليغة صال فيها وجال وسرد الحكم والأمثال حتى أثار إعجاب الحاضرين وانتزع احترام المستمعين فقام إليه واحد منهم يشكره ويثنى عليه ويظهر له شدة إعجابه به وتقديره له فقال له أكثر الله فى الناس من أمثالك فزاد به الغرور وقال للرجل إذن فقد كلفتم الله شططًا وسألتموه ما لا يقدر عليه وحملتوه ما لا يطيق، فانظر يا أخي إلى أى حد يفعل الكبر بصاحبه وإلى أى مدى يصل به وكيف ينسيه ربه ويجرئه على خالقه ليكون مطرودًا محرومًا فى عالم السماء بقدر ما هو شقى تعس ومبغوض محقور عند أهل الأرض.

لقد قابل المسرور رجلاً من عامة الناس يوما فمالت نفسه إلى أن يتطاول عليه، فقال له يا هذا ألا تعرف من أنا؟ قال له الرجل لا: فضربه وقال تعسًا ونكسًا لك كيف لا تعرف القمر؟، ومن هنا نعلم لماذا كان يحرص الصحابة رضوان الله عليهم على التواضع والسماحة، إنهم كانوا يتجنبون لعنة الكبر ووصمة الغرور والعجب ورذيلة الزهو والخيلاء وتفويتًا لكل أغراض الشيطان حتى لا يلعب بهم لعب الصبى بكرته وقد رأى سيدنا عبد الله بن عمر رجلاً من الصحابة وهو عبد الله بن سلام الصحابى الجليل والعالم الحبر والحافظ الفقيه، رآه وهو يحمل حزمة من الحطب فوق ظهره، فقال له: أصلح الله شأنك يا أخى فهل من خادم كان يحملها عنك، فأجابه الشيخ: يا أخى عندى من يحملها ولكن أردت أن أرغم أنف الشيطان.

وقالوا إن على بن أبى طالب رضى الله عنه لما توجه إلى الشام خرج للقائه كثير من أهلها وجعلوا يترجلون عن ركائبهم ويالغوا فى تعظيمه وتكريمه ومالوا على يديه ورجله ليقبلوها فأنكر عليهم على ذلك الفعل وقال لهم يا قوم ما هذا

أولستم مسلمين، قالوا بلى نحن مسلمون ورب الكعبة قال فما هذا الذى نراه منكم وليس من الإسلام فى شىء؟ قالوا خلق نعظم به أمراءنا، فقال والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم وإنكم لتشقون على أنفسكم وتشقون بهذا الخلق وتعذبون به فى الآخرة، وما أخسر المشقة والتعب وراءهما العذاب والحساب، وما أجمل التواضع فى الدنيا وراءه الجنة والنجاة من النار.

وكان سيدنا عمر يكره الكبر ويمقت المتكبرين وكان إذا مشى أسرع فى مشيته، فقالوا له يا أمير المؤمنين مالك تسرع فى مشيتك؟ قال ذلك أبعد عن الكبر وأسرع فى قضاء الحاجة، فقالوا له إن فلانًا وفلانًا يتكبرون ويختالون وهم أقل منك فقال والله الذى لا إله إلا هو، ما تكبر إلا وضيع ولا اختال إلا لئيم ولا افتخر إلا لقيط، وما تكبر أحد على عباد الله إلا من ذلة يجدها فى نفسه وإهانة يشعر بها فى شخصه، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**التواضع سلم الشرف**».

وكان جذيمة الأبرش من المتكبرين على الناس وكان أميرًا على قومه ولكنه لم يتخذ له سميرا يجالسه ولم يجعل له نديما يؤانسه، فسأله أحد أصحابه مالك لا تتخذ لنفسك سميرًا ولا نديمًا، فأجابه قائلاً: لم أجد أهلاً لهذا الشرف ولا من هو خليق بهذه المرتبة ولو شئت لنفسى نديمًا لنادمتنى الكواكب والنجوم فقالوا نراك لا تذهب إلى الخليفة ولا تجلس فى مجلسه، قال أخشى ألا يحمل الجسر شرفى!!

وقالوا إن عمارة بن حمزة كان فظا غليظًا وكان يسرف فى غروره ويمعن فى كبره إلى حد يوغر الصدور عليه ويجعل الناس يتحاشون لقاءه وكان من جلساء الخليفة المهدى فكان إذا حضر مجلسه تكبر عليه وأوجز الخطاب والجواب حتى نفر الخليفة من لقائه واستثقل ظله ورغب فى التخلص منه وحرمانه من هذا الشرف الذى لا يستحقه، فكلم أصحابه فى ذلك فقال أحد الأذكياء نحن نكفيكه يا أمير المؤمنين فقال لهم وماذا عساكم أن تفعلوا قالوا نغرى به رجلاً يدعى عليه شيئًا فى مجلسك، فإذا فعل هذا أقمته من جوارك وأوقفته إلى جوار خصمه ثم

تحكم عليه بهذا الشيء فإن أداه إليه أداه وهو ساخط عليك فلا يحضر مجلسك بعد اليوم، وإن أبى حبسناه قال: افعلوا ما ترون، فترقبوا الساعة التى جاء فيها عمارة إلى مجلس الخليفة ثم أوعزوا إلى رجل أعرابى بتنفيذ المؤامرة، فدخل الأعرابى على مجلس الخليفة وجعل يصيح بأعلى صوته، العدل العدل يا أمير المؤمنين، الإنصاف الإنصاف، فأدخلوه على الخليفة. فقال له يا هذا من ظلمك؟ فأشار إلى عمارة وقال هذا الذى يجلس بجانبك، قال وما الذى ظلمك فيه؟ قال اغتصبنى ضيعتى فالتفت الخليفة إلى عمارة وقال له يا هذا قم فقف بجوار خصمك حتى ننظر فى قضيتكما، فشمخ عمارة بأنفه وقال فى تعاظم وتكبر يا أمير المؤمنين ما هو لى بخصم إن كانت الضيعة له فقد رددتها عليه وإن كانت لى فقد وهبتها له ولا أقوم من مجلس بوأنيه أمير المؤمنين، فتعجب الناس من كبره وأذهلوا من غروره ولم تنجح المؤامرة فى إبعاده، وأعجب من ذلك الذى حدث أنه كما خرج الأعرابى وقد أخذ الضيعة التى ادعاها قالوا لعمارة من هذا الأعرابى الذى ادعى عليك قال والله ما نظرت إليه ولا ملأت عينى منه احتقاراً له وازدراء.

وقالوا إن محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم كان يعذب الناس فى تنور من حديد حتى تقلبت به الأيام وتنكر له الدهر فعذب فيه كما كان يعذب فيه غيره، وكان من المتكبرين المتعاظمين. كان يغتصب الناس أموالهم وينتهب عقارهم ثم لا يبالى ما يتقولونه عليه من كلام وما يشيعونه حوله من أراجيف، اغتصب ضيعة من أحد أفراد رعيته فاحتال الرجل حتى وصل إليه وجلس ساكتًا بين يديه، فلما رآه صامتًا حدق إليه النظر وكأنما رآه قبل ذلك ثم قال له يا هذا ألك حاجة؟ قال نعم. إنى مظلوم أشتهى العدل قال من ظلمك؟ قال أنت ظلمتنى ولا أستطيع الوصول إليك، قال وما يحجبك عنى وبابى مفتوح على مصراعيه لكل أفراد الرعية، قال يحجبنى عنك هيبتك وتكبرك وقوة حجتك وما أوتيته من فصاحة وبيان، قال: وأى شيء ظلمتك فيه؟ قال: أخذت منى ضيعتى غصبًا، قال: ومتى أخذتها؟ قال الرجل: أخذها منى وكيلك بدون ثمن فإذا وجب خراجها وجاء أوان دفعه أخذتموه منى لأنها لم تزل باسمى حتى اليوم،

فأنتم تأخذون غلتها وأنا أؤدى ضريبتها وهذا جور لم يسمع بمثله قط فانتفخت أوداج الوزير وقال إن قولك هذا دعوى تحتاج إلى بينة وشهود وشىء آخر فقال الرجل أو يؤمننى الوزير على نفسى حتى أدلى بحجتى وأقدم برهانى؟ قال: نعم فأنت آمن، قال: إن البينة هم الشهود فإذا شهد الشهود فلن تحتاج بعد ذلك إلى شىء آخر، فما معنى قولك بينة وشهود وشىء آخر؟ فتطامن كبره واهتز غروره وضحك وقال صدقت والبلاء موكل بالمنطق ثم أخرج من حجته الرجل وأمر بأن ترد ضيعته إليه.

وأخبار المتكبرين والمتعاظمين لا تحصى إلا أن الله لهم بالمرصاد يذل أعناقهم ويخضع رقابهم ويسلط عليهم ما ينال من كبرهم ويجعلهم عبيداً أذلاء يطلبون العون من الله وهذا وعيده الذى خوف به الجبابرة المتكبرين فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(١).

ومن الإنصاف أن نقول إن الإسلام قد فرق ما بين الكبر الممقوت والعزة الحميدة، فالكبر رذيلة يبغضها الدين وينهى عنها، أما العزة فهى فضيلة دينية ومكرمة إسلامية يحبها الله ورسوله ويحب أن يتصف بها كل عباده المؤمنين وفى هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾**(٢)، وقد ربى الرسول عليها أصحابه ونشأ عليها أحبابه ودعا كل مسلم كريم إلى أن يتخلق بالعزة ويسمو بنفسه إلى كل كرامة ويعشق معالى الأمور، ففى الحديث عن الرسول ﷺ قال:

«إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها» وقال ﷺ: **«من أحب أن يكون أعز الناس فليتق الله ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده»**.

---

(١) غافر: ٣٥. (٢) المنافقون: ٨.

وجاء فى كتب السيرة أن عمرو بن العاص لما أسلم رحب به الرسول وأكرمه وعرف له قدره ومنزلته ثم أمر له بشىء من المال فأبى عمرو أن يأخذ وقال يا رسول الله. والله ما أسلمت حبًا فى المال ولكنى عشقت الإسلام وأحببته فجئت أبايعك على السمع والطاعة والجهاد، فقال له النبى ﷺ: «**خذه يا عمرو فنعم المال الصالح للرجل الصالح**»، وقال مقاتل كنت صديق حماد بن أبى سلمة وكان عالمًا فاضلاً وإمامًا فقيهًا يقصد منزله الناس ويؤم مجلسه طلاب العلم وكنت أدخل منزله فلا أجد عنده إلا حصيراً قديمًا ووسادة بالية ومتاعًا يسيرًا، ثم كتبه التى يقرأ فيها ولكن مع هذا التقشف كان عزيز النفس طاهر القلب عفيفًا عن الدنيا قنوعًا عن كل ما فيها، وبينما نحن جلوس عنده نتلقى منه العلم ونأخذه الحديث إذ دق الباب فقال لخادمته انظرى من الطارق، فعادت لتقول إنه رسول الأمير يريد لقاء الشيخ. فقال لها أدخليه. فلما وقف أمام الشيخ دفع إليه رسالة من أمير المدينة وكان مكتوبًا فيها:

باسم الله. أما بعد. فصبحك الله بما يصبح به أولياءه وأهل طاعته وقد عرضت لنا مسألة دينية فإذا وصل كتابنا إليك فإننا نسألك عنها. والسلام.

فلما فرغ الشيخ من قراءتها قلب الرقعة نفسها وكتب على وجهها الآخر:

باسم الله. أما بعد. فصبحك الله بما يصبح به عباده الصالحين وقد أدركنا العلماء من سلفنا الصالح لا يقصدون أحدًا ولا يذهبون إلى لقاء أمير، فإن كان لك سؤال فأتنا ولا تأتى بخيلك ورجلك فلا ننصحك والسلام، ثم ختم الكتاب ودفعه إلى رسول الأمير، فلما ذهب به إليه فضه وقرأه وأدرك عزة المؤمنين وسمو العلم فى نفس الشيخ، فقال لأصحابه إنى ذاهب إليه وحدى. فجاءه واستأذن عليه وجلس مؤدبًا فى حضرته ثم سأله عن مسألته التى يريدها فأفتاه الشيخ فيها كما علمه الدين، فلما فرغ الشيخ من فتواه قال له الأمير: أيها الشيخ الجليل مالى كلما نظرت إليك هبتك وداخلنى الرعب منك؟ فأجابه حماد قائلاً: إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شىء، وإذا أراد بعلمه الدنيا هاب من كل شىء، فقيل لمقاتل وهل تذكر المسألة التى سأل الأمير فيها حمادًا؟ قال نعم.

لقد سأله قائلا: ماذا تقول فى رجل له ابنان وهو يريد أن يخص أحدهما بشىء من ماله دون الآخر. فقال له الشيخ: لا تفعل فإن الله سبحانه إذا أراد عذاب عبد فى الدنيا والآخرة وفقه إلى وصية جائرة، وقد حاول الأمير جهده أن يدفع إلى الشيخ مالا فأبى، فانصرف عنه وهو يعجب من عزته وقناعته ويقول صدق رسول الله: **«ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»**.

وقالوا إن أمير المؤمنين هارون الرشيد خرج حاجا فى سنة من السنين فلما فرغ من حجه تاقت نفسه إلى زيارة المدينة حيث يقيم جثمان رسول الله ﷺ فى مثواه الطاهر وفى تربتها المباركة، فلما قدم المدينة ومعه صحابه وخاصة من العلماء والفقهاء طلب الإمام مالك رضى الله عنه وقال لأصحابه إنى أريد أن أسمع منه كتاب الموطأ فلما وصل رسول الخليفة إلى منزل مالك بن أنس قال له أجب أمير المؤمنين الرشيد، فأنف مالك من إجابته اعتزازًا بنفسه وإكرامًا لعلمه واستغناء بالله عن كل ما سواء وقال له أقرئه السلام وقل له: إن العلم يزار ولا يزور ويؤتى ولا يأتى، فعاد إليه الرسول وأبلغه رسالة الإمام، فأعجب الرشيد بعزته وقال: صدق الشيخ نحن أحق الناس بزيارته وتكريمه، وهم أن يتوجه إليه وكان من بين أصحابه الذين صحبوه فى زيارته إلى المدينة الإمام أبو يوسف فلما رآه مصمما على زيارة إمام دار الهجرة أمسك بيده ومنعه عن ذلك وقال له يا أمير المؤمنين لا تفعل ولا تأته فى بيته إنك وجهت إليه رسولك ليحضره فامتنع عن إجابتك وخالف أمرك فتضعف هيبتك فى نفوسهم، والرأى عندى أن تعزم عليه وترغمه على المجىء ففعل الرشيد فلما جاء مالك سلم على الرشيد بالخلافة وجلس فأقبل عليه الرشيد مغضبًا وقال له يا ابن أبى عامر أبعث إليك لتحضر فتخالفنى، فقال مالك يا أمير المؤمنين: حدثنى نافع عن أبى هريرة عن ابن عمر أنه قال: كان الوحى ينزل على رسول الله بالقرآن فكتب أحد كتاب الوحى ما أملاه عليه رسول الله: **«لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله»**، وكان ابن أم مكتوم حاضراً وهو مكفوف فقال يا رسول الله أنى ضرير وقد بلغ فضل الجهاد وأجره ما تعلم وأنا محروم منه، قال كاتب الوحى فوالله ما جف قلمى حتى نزل قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ**

﴿أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] فهـذه كلمة واحدة يا أمـير المؤمنين تعب فيهـا جبريل والملائكة من مسيـرة ألف عام أفلا ينبغى أن أعتـز بها وأجلها وقد رفعك الله وأجلك وأنزلك فى هذه المـكانة فلا تكن أنت أول من وضع عزة العلم والعلماء فيضع الله عزتك ويغمـد سيفك فسكنت ثورة الرشيد وذهب عنه الغضب ثم قام فى خاصته وذهب معهم إلى منزل الإمام ليسمع منه كتاب الموطأ وهو أول كتاب ألف فى علم الحـديث قام بجمعه الإمـام مالك فلما وصلوا إلى منزله جلس معه على كرسيه وأخذ الإمام يقـرأ الكتاب وأذن للعامة فقال الرشيد لا أحب أن أسمعـه مع عامة الناس، فقال يا أمـير المؤمنين إن العلم إذا منع منه العامة من أجل الخاصة لم ينفعهم الله بـه، فرضى الرشيد أن يكون ممن يسمعون الإمام، وقد بدأ مالك درسه بقـوله: أدركنا أهل العلم وهم يحبون التواضع فى مجلس رسـول الله فأدرك الرشيـد قصده ونزل عن كـرسيه إلى الحلقـة شأنه فى ذلك شأن غيره من المسـتمعين، وهكذا استطاع الإمام بعزة نفـسه وقوة إيمانه أن يعز العلم ويكرم الدين واثقا بالله مؤمنًا كل الإيمان بأن من أعز نفسه أعزه الله.

ومثل ذلك روى عن الإمـام الشافعى رضى الله عنه وأرضاه قـال عبد الله ابن الحكم، لما أراد الشافعى الذهاب إلى مـصر حذرته ذلك وقلت له: إذا أردت الذهاب إليـها فليكن لـك قوت عـام ومنزلة من السلطان تتـعزز بهـا وشىء من الدراهم والدنانير، فأنفت نفس الشافعى من كلامه وقال له: يا أخى من لم تعزه التقوى فلا عزة له ووالله لقد ولدت بغزة وتربيت بالحجاز ونشأت فى المدينة ولم يكن عندنا قوت ليلة ووالله ما بتنا جياعًا قط، ولما قدم معاوية إلى المدينة بعد أن استتـب له الأمر وانتهت إليه الخـلافة وتكدست عنده الأموال ومالت نـفسه لأن يأخذ البيعة من المسلمين لابنه يزيد فى حياته، دخل مسجد رسول الله ﷺ وقام فخطب المسلمين فلما فرغ من خطبتـه قال: من هنا من أولاد على؟ فقام الحسين وقال أنا هنا فمـا الذى تريده يا معاوية، قال لقد أمرت لك بمال كـثير صلة منى إليك فخذه وأنا ابن هند، فقال له سيدنا الحسين على البديهة، ولقد رددته عليك وأنا ابن فاطمـة فأغلظ له معـاوية فى القول وأراد أن يهم به فلم يستكن سـيدنا

---

(١) النساء: ٩٥ .

الحسين ولم يرضخ له ولكنه قام فخطب المسلمين وقال: إن الله عز وجل لم يبعث نبيًا إلا جعل له عدوًا من المجرمين، يا معاوية أنا ابن على وأنت ابن صخر وأمى فاطمة وأمك هند وجدتى خديجة وجدتك قيلة، فلعن الله ألأمنا حسبا[1] وأخملنا ذكرًا وأعظمنا كفرًا وأشدنا نفاقًا، فصاح الناس آمين آمين، فخاف معاوية فتنة الناس وأسرع إلى الخروج من المسجد مذمومًا مدحوراً.

وهكذا يعز الله أولياءه الذين يعتصمون بعزته ويستظلون برعايته وعنايته ويجعلونه دون غيره ركنهم الركين وسندهم المعين.

رزقنا الله عزة المؤمنين وجنبنا غرور المتكبرين.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

---

(١) ألأمنا: يعنى أقلنا حسبًا وأشرنا خلقًا.

(٢) آل عمران: ١٠١ .

فضل العفة عن الأعراض وتعظيم رذيلة الزنا

من فضائل الإسلام التى شهد له بها خصومه، ومن محاسنه التى اعترف بها أعداؤه أنه لا يحارب الفطرة، ولا يقاوم الطبيعة، فلا يحرم على الناس ما تقوم به حياتهم وتسعد به قلوبهم طالما كان فى دائرة الحلال المباح.

لقد عرف للغرائز حقها وأتاح لها غذاءها دون عنت أو تعسف، وأقرب دليل على ذلك أنه رغب أتباعه فى العفة وحضهم على الطهر، وأمرهم بصيانة الأعراض والحرمات، فاستمع إلى قوله تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾.

وليست الطهارة هنا إذا اقترنت بالتوبة إلا طهارة الباطن والظاهر من جميع الأرجاس والأنجاس.

ويقول سبحانه: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا.. الآية**﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات التى عظم الله فيها شأن العفة، وأهلها، وبقدر ما أعلى من شأن الطهارة والطاهرين. توعد أهل الفاحشة بالويل الشديد والعذاب الأليم، فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[2].

ومن الإنصاف أن نقول إن الإسلام لم يحرم الفواحش ولم يمت الزناة إلا بعد أن أباح الزواج ويسر أمره وجعله سنة من سنن النبيين وأدبًا من آداب المرسلين. فيقول سبحانه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾[3].

---

(١) النور: ٣٠-٣١. (٢) النور: ١٩. (٣) الرعد: ٣٨.

ويقول ﷺ : «تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة».

وقال أيضًا: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء» فكان من سماحة الإسلام وحكمته وبعد نظره أنه لم يحرم الزنا إلا بعد ما أباح الزواج ويسر طريقه على الراغبين فيه حتى تشبع الغرائز وتسكن نهمتها وتهدأ ثورتها، فإذا عجز الإنسان عن الزواج لسبب ما من الأسباب رغبه فى العفة والنزاهة، وحبب إليه الطهر وبصَّره بكل فاحشة حتى لا يقربها، وحرم عليه النظر واللمسة ونهاه عن الخلوة بالأجانب حتى وإن كان ذلك لغرض شريف، وأمره عند عجزه عن الزواج أن يستعين بالصوم على كسر شهوته وضبط غريزته كى لا يغلبه الشيطان على دينه، ولا يستبد به الهوى عن طاعة الله، وأكد له أن الزنا رذيلة كريهة تؤدى إلى سخط الله ومقته، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[1].

ولقد بالغ الله فى تعظيم حرمته والتنفير من رذيلته إلى حد أنه جمعه مع الشرك والقتل فى آية واحدة إشارة إلى أن الزنا مثلهما في الفظاعة والشناعة، وشريكهما فى العقوبة والجزاء، فاستمع إليه وهو يقول فى مدح عباد الرحمن وذكر أوصافهم: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾[2].

وكيف لا يكون الزنا بهذه المثابة وهو الذى يؤدى إلى اختلاط الأنساب وتلويث الأعراض وانتهاك الحرمات وإضاعة الحقوق، وهو بعد ذلك من أهم أسباب الوقيعة بين الناس، بل إنه ليبث فى نفوسهم الشقاق والشحناء، ويزرع فى قلوبهم العداوة والبغضاء، يؤدى إلى القتل وسفك الدماء، فالأمة الناهضة والجماعات الراقية هى التى تتمسك بالدين وتتجمل بفضائله، وتحرص على اتباع تعاليمه، فحافظ أيها المسلم على حرمات الناس وأعراضهم يحافظوا على

(١) الإسراء: ٣٢ . (٢) الفرقان: ٦٨-٦٩ .

أعراضك وحـرماتك، وتخلَّق بما أمـرك به رسول الإسـلام من العفـة والطهارة يحفظ الله شـرفك من الدنس وعرضك من إلضـياع، وفى الحـديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**عفوا تعف نساؤكم**» ورحم الله الإمام الشافعى رضوان الله تعالى عليه فقد كان يقول فى هذا المعنى شعراً:

عفوا تعف نساؤكم فى المحـــرم	**وتجنبـــوا ما لا يليـــق بمســـلم**
إن الزنـا ديـــن إذا أقـــرضـــته	**كان الوفـا من آل بيتـك فاعلـــم**
يا هاتكًا حرم الرجـــال وقاطعـــًا	**سبل المودة عشت غيـــر مكـــرم**
لو كنت حرا من سلالة ماجـــد	**ما كنـت هتـــاكًا لحـــرمة مسـلم**

وقد قال رسول الله ﷺ: «**من زنا أو شرب الخمـر نزع الله الإيمان من قلبه كما ينزع الإنسان قميصه عن جسمه**».

وثبت فى سنن التـرمذى أن رجلاً من المسلمين الذين كـانوا حديثى عـهد بتعاليم الإسـلام جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له يا رسول الله ائذن لى فى الزنا فـغضـبت عليه الصـحابة وزجـره الحاضـرون فى مـجلس النبى وهموا بضـربه والاعتداء عليه، فنهاهم الرسول عن إيذائه ثم قال للرجل: «**اقترب منى فجلس بين يديه فأقـبل عليه النبى وقال له يا هذا أتحـبه لأمك؟** فقال الرجل لا يا رسول الله. **فقال أتحبه لأختك؟** فقال لا ولا لأختى. فقال له النبى: **أو تحبه لعمتك؟** فقال لا. فقال: **أو تحبه لخالتك؟** فقال: لا ولا لخالتى. فقال له النبى ﷺ: **يا هذا إن الناس كـذلك لا يحـبـونه لأخـواتـهم ولا لأمـهـاتهم ولا لعـمـاتهم ولا لخالاتهم**» فخجل الرجل فوضع الرسول يده على صدره ورفع وجهه إلى السماء وقال: «**اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فـرجه وخذ بناصيته إلى أقوم طريق**» فلم يلتفت بعد ذلك اليوم إلى شىء من هذا.

ويقال إن سـيدنا يوشع عليـه السلام لما أراد حرب الجـبارين وتوجـه إليهم اجتمعوا حول شيخ من شـيوخهم وشاوروه فى أمورهم وقالوا له إن يوشع جاءنا بجنود لا قبل لنا بها، ولا طاقة لنا بحربها، فبماذا تشير علينا، فقال إن شئتم أن

تقهروا جموعهم وتفلوا عـزمهم فجملوا نساءكم وزينوا أبكاركم وأعطوهن السلع وابعثوا بهن إلى جـيوشه ليبعن السلع هنالك وأوصـوهن ألا تمتنع فتاة عن رجل وألا ترد فتاة منهن كف لامس، فـإن زنا رجالهم بنسائكم كفيتـموهم، ووقعت فيهم الهزيمة وأحاط بهم الخذلان، وحـقت عليهم كلمة الله ففعلوا ذاك وأرسلوا نسـاءهم إلى جيش يوشع فـخـدعنهم عن أنفسـهم وفسـق بنو إسرائيل بالنسـاء فـغضب الله عليـهم وأرسل عليهم وبـاء الطاعون، فـقتل فى يوم واحـد منهم سبعمائة رجل.

وصدق رسـول الله ﷺ إذ يقول: «**لم تظهـر الفـاحشـة فى قـوم قط إلا ظهرت فيهم الأمراض والأوبئة التى لم تكن فى أسلافهم**».

والنساء حبائل الشيطان وفخاخه كما قد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

قالوا إن رجلاً من الصالحين. كشف الله عن بصيرته رأى إبليس متمثلاً فى صورة إنسان، ورأى فى يده فخـاخًا وشباكًا، فقال له مـا هذه الفخاخ وما تلك الشباك؟ قال: هذه الشراك التى أتصيدكم بها، فقال الرجل هل تستطيع أن تصنع لى فخًا فـتصيدنى به؟ فـقال إبليس نعم سأفعل ذاك، فسكـت عنه حتى مضت أيام ومر الرجل على امرأة جميلة فاعترضت طريقه وقالت له: أو تحسن القراءة؟ فقال نعم. فأدخلتـه بيتها ليقرأ لها خطابًا ورد إليـها، فلما تمكنت منه طلبت منه الفاحشة فتظاهر بالجنون وجعل يعبث بشعره وبثوبه تارة أخرى ويخرج الزبد من فمه ويصيح ويصرخ حـتى خافت على نفسها الفضيحـة وقالة السوء، فلما رأته كـذلك دفعت به إلى خـارج المنزل حـيث كـان وبعد ذلك بأيام رأى عـدو الله إبليس، فسأله مرة ثانية، لماذا لم تصنع لى فخًـا كما وعدتنى؟ فقال اللعين والله لقد صنعت لك أقوى فخ ولكن مزقته بحمقك وسفهك حتى نجوت منه.

ويقال إن (زليخة) زوجة العزيز لما وقع فى قـلبها حب سيدنا يوسف عليه السلام واشتد غرامها وهيامها بجـماله. هيأت له مكانًا خليًا لا رقيب فيه عليهما ولا عزول فيـه لهما، ثم غلقت الأبواب وأحكمت الرتاج ولبست أحـسن ثيابها وظهرت له فى أكمل زينتها، وعرضت عليه نفسـها وأظهرت له شوقها، وجذبته

نحوها. فخاف على نفسه وجعل عينه على سقف الحجرة فإذا مكتوب فيه قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1]. فقوى إيمانه ودارت عينه عن يمينه فوجد مكتوبًا أمامه ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[2] فكمل يقينه وتحول بوجهه ذات الشمال فوجد مكتوبًا أمام عينه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[3] فنظر أمامه فوجد مكتوبًا ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4] فنظر وراءه فإذا مكتوب ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[5] وأبصر مع كل آية صورة سيدنا يعقوب عاضًا بأصابعه كأنما يحذره مخالفة الله، فكان هذا هو برهان ربه الذى أمده به وأيده بسلطانه، ثم كافأه الله بعد ذلك على طهره وعفافه فجعلها زوجة له وأصاب منها فى الحلال ما ترفع عن الظفر به فى الحرام، وهذه سنة الله فى خلقه أنه لا يترفع مؤمن عن شهوة فى الحرام إلا أشبعه الله منها فى الحلال.

وقد جاء فى كتب السنة أن رجلاً من الأشرار كان على عهد الرسول ﷺ، وكان مشهوراً بالسطو والفجور، إلا أنه كان مع فجره وشره لا تفوته صلاة الجماعة مع رسول الله ﷺ وربما حضر مجلسه وسمع منه النصيحة والموعظة، وأخذ من فمه العلم والحكمة، وبينما كان يسمع درس النبى يومًا إذ سمعه يقول ويقسم على ما يقول: «**والذى نفس محمد بيده ما ترك عبد شيئًا حرمه الله عليه إلا منحه الله له فى الحلال**» فصادف هذا القول موقعًا فى قلبه، ونزل منزل العبرة من نفسه، وذات ليلة تسلل الرجل إلى بيت امرأة مؤمنة قد مات عنها زوجها وترملت على أطفالها فجعل يجوس فى منزلها يمينًا وشمالاً، ويتقلب فيه هنا وهناك يطلب حاجته، ويبحث عن غرضه فوقعت عينه على طعام شهى وكان جائعا فأراد أن ينال منه فتذكر حديث النبى فأعرض عنه، ومضى يتجول فى البيت فوقعت عينه على كيس ملىء بالذهب فأعرض عنه، وما زال يسعى حتى رأى المرأة نائمة لا حول لها ولا رجل معها، ولو شاء أن يصيب منها حظ نفسه لفعل ولكنه تذكر عظة النبى، وأخيرا ترك المنزل دون أن

---

(1) الإسراء: ٣٢ . (2) الانفطار: ١٠-١١ . (3) غافر: ١٩ .
(4) المدثر: ٣٨ . (5) طه: ٤٦ .

يأخذ منه شيئا وذهب إلى مسجد رسول الله ﷺ فصلى صلاة الصبح مع النبى، فلما فرغوا من الصلاة أقبلت على مجلس النبى امرأة من أجمل الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا، فسلمت على الرسول وقصت عليه قصة هذا اللص الشريف، فقال النبى: **«اللهم إن كان حاضراً معنا فاهده إلينا ولا تخجله منا»** فصاح الرجل فى شجاعة قد استجاب الله دعوتك يا رسول الله فهأنذا ماثل بين يديك فمرنى بما تشاء، فابتسم النبى فى وجهه وقال له: **«ادن منى»** فدنا حتى لاصقت ركبته ركبة رسول الله، فسأله سيد الخلق **«يا هذا لك زوجة»**؟ قال الرجل لقد ماتت منذ شهور فالتفت إلى المرأة وقال لها **«ألك زوج؟»** فقالت لا زوج لى يا رسول الله فقد مات عنى منذ سنين وخلف لى أيتامًا أرعاهم وأقوم على تربيتهم، فزوجها النبى من هذا الرجل، فلما تم زواجه بها أخذه البكاء، فسأله النبى عن سبب بكائه فأخبره بالقصة وأنه قد ترفع عن الطعام والذهب والمرأة فى الحرام حتى صدق الله ورسوله وأباح له ذلك فى الحلال، فتبسم النبى فى وجه أصحابه وقال للرجل: **«أشهد أني عبد الله ورسوله وأشهد أن وعده حق واقرءوا أن شئتم قول الله عز وجل ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾**[1].

ولم تطلع الشمس حتى تمتع الرجل بكل هذه الأشياء فى دائرة الحلال المباح.

ويشبه هذه القصة ما رواه الشيخ شجاع الدين الشيرازى عن نفسه فقد وقعت له قصة عجيبة وحادثة غريبة تؤكد أن الله لا يخلف وعده مع عباده المؤمنين.

حدث الشيخ عن نفسه فقال: بتنا عند رجل من الصعيد المصرى فأكرمنا وأحسن إلينا إلا إننا أبصرنا فى بيته عجبًا أثار دهشتنا وأطلق فضولنا، لقد أبصرنا سمرة فى وجه الرجل ورأينا أولادًا بيضًا، لا يشبه لونهم لونه فلم نستطع أن نمسك فضولنا وسألناه، أهؤلاء أولادك؟ فدهش من سؤلنا إياه وقال نعم، وأى عجب رأيتموه فى هذا، هل أنكرتم بياضهم وسمرتى؟ فقلنا له نعم، فقال حق

لكم ذلك فإن أمهم افـرنجية تزوجتها أيام حرب صـلاح الدين الأيوبى للصليبيين وكنت يؤمئذ شابًا، فقلنا له وكيف تم ذلك؟ فقـال: حديثى معها عجيب، فقلنا له أتحفنا به الليلة، فـقال الرجل: لقد زرعت هنا بأرض الصـعيد كتـانًا وأنفقت عليه حتى بدا إصـلاحه ودنا حصاده، فقلعـته وأنفقت عليه ألف دينار وعـرضته على التجار هنا فلم يبلغوا به عـشر ثمنه فاستأجرت مركبًـا وحملته إلى القاهرة ليـزيد ثمنه، فلم يأت ثلث الثـمن. فحـملته إلى الشـام فلم يزد على ذلك إلا قليـلا، فتحـولت به إلى مـدينة عكا فكانت الأثمان هنـالك سيئـة، فوجـدتنى مضطرًا إلى أن أبيع بعضه بالأجل والبعض منه ادخـرته عندى واستأجرت حانوتًا لأبيعه بنفسى، فبينما أنا أباشر عـرضه فى السوق إذا مرت بى امرأة جميلة بارعة الحسن ساحـرة الدلال وكانت من الفرنجة، ورأيتـها عارية الوجه ميـاسة القوام، فأرادت أن تشترى منى حاجتها وسامحـتها فى الثمن فسرت لإكرامى لها وعادت بعد أيام فتساهلت معها أيضًا وأدركت أنى أحبها فكانت تتردد على من حين إلى حين وفى صحبتـها عجوز ظننت إنها صديـقتها فأعطيت العجـوز شيئا من المال وكلمتها فى شأنها وعرضت عليها أن تحتـال لى، فكلمتها وعرضت عليها رغبتى فرحبت بى وقـالت نذهب إلى المنزل، فدفعت إليها ألف درهم وللعجـوز مثلها وأرشدتها إلى المنزل الذى أقيم فيه، والوقت الذى سوف يحضران فيه، فلما كان الليل وهدأ الناس وسكن الـطريق جاءتا إلى المنزل، وكـنت قد أعـددت طعامًـا فاخرًا وشرابًا شهيًا، فلما جن الليل عرضـت نفسها على فأدركتنى خشية من الله وقلت فى سرى. أوما تستحيى من الله وأنت ضيفه فى أرض غربة أن تعصيه مع نصرانيـة، فسكنت نفـسى عنها ولم أعـد أشعر بشىء من حـرارة حسنهـا وفتنة جمالهـا، فرفعت وجهى إلى الله وقلت الـلهم إنى أشهدك أنى قد عـفوت عنها بعد ما مـلكتها حياء منـك وخوفًا من عقابك وأشـهدك أنى قد سامـحتها فـيما أخذته من مالى ثم نمنا حتى الصبـاح وذهبت هى إلى حالها مع العجوز وأنا إلى حانوتى، وبعد أيام مرت على مغضبة فـمالت إليها نفسى وتعلق بها قلبى وزينها الشيـطان لى، وقلت أوبخ نفسى من أنت حـتى تعف عن هذا الحسن، وتـترفع عن هذا الجمال الفتـان، ولـم أجد بدا من أن أضرب لها موعدا آخـر نلتقى فيه

ونقدتها المال الذى طلبته، فلما حضرت إلى عاودنى الخوف من الله وغاب عن طبعى وخذلتنى فطرتى، فمضت لحالها، فلما كان الصباح جاءتنى فى حانوتى وكانت مستعربة تجيد النطق بالعربية، فعاتبتنى على هذا الجفاء، ثم قالت مغضبة وحق المسيح لا أعود إليك بعد اليوم إلا بألفين، وبينما كنت أترضاها وأروح عن نفسها وأشرح لها سطوة الحسن وروعة اللقاء إذ نادى المنادى أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى سبعة أيام، فاشتغلت بشأنى وغابت المرأة عنى وجعلت أجمع مالى وأحصل ديونى وما بقى من بضاعتى عزمت على نقله إلى القاهرة، وكان فى قلبى من حبها لوعة مريرة ورغبة حارة، وقد بعت بضاعتى بدمشق وربحت كثيراً من الدراهم والدنانير وأخذت أتجر فى الجوارى عسانى أظفر بمثلها أو بمن يدانيها فى حسنها، ليسكن ما بى من وجد وغرام.

ومرت ثلاث سنين وأنا أعمل فى هذه التجارة وأخيراً انتصر المسلمون على الصليبيين، وبينما أنا مشغول بأمرى إذ جاءنى جندى ومعه كتاب من قائد الجند يطلب منى جارية لسلطان فبعت له واحدة بألف، فدفع إلى تسعمائة وبقى من الثمن مائة دينار، وكان السلطان قد أنفق جميع المال فى الحرب، وكان عادلاً لا يظلم أحداً فكلمته فى شأن المائة الباقية فقال للقائمين على الأمر أعطوه واحدة من السبى، فأعطونى جارية فإذا هى صاحبتى فأخذتها إلى خيمتى وخلوت بها ثم قلت لها أو تعرفيننى؟ فقالت لا. فقلت لها إنى بائع الكتان وقد أقسمت أنك لاتعودين إلى إلا بألفين وقد أخذتك ملكًا بمائة فقط، فبادرت قائلة إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فتراجعت عنها وقلت والله لا أقربها إلا حلالا فهيأت الجو لذلك وتزوجتها فحملت منى، وبعد أيام جاء رسول السلطان يطلب الأسرى بناء على اتفاق تم بين المسلمين والصليبيين، فاستعرضوا الأسرى فلم يكن غائبًا إلا صاحبتى فسألوا عنها حتى علموا أنها عندى، فأحضروها إلى مجلس الأمير وخيروها بين أن تبقى كما هى أو تعود إلى أهلها. فقالت إنى مسلمة وإنى حبلى ولا أختار على زوجى أحداً، فسمع قومها كلامها وأبلغوه إلى أهلها. فعاد رجل من قومها ومعه صرة عظيمة وقال هذه هدية من أمها إليها

لأنها أسيرة، فأخذتها إلى البيت ثم فتحت الصرة فإذا فيها كل ما أخذته منى وزيادة، فحمدت الله على ما كان من عفتى وشكرته على ما كان من عصمتى، وقد بارك الله لى فى ثروتى على يديها ورزقنى منها أولاداً كثيرين، ولا تزال حتى اليوم بصحبتى وهى التى صنعت لكم الطعام.

وقالوا إن محمد بن يزيد كان من الأغنياء الأثرياء، وكانت له جارية جميلة يحبها ويجد طعم السعادة حلوا فى جوارها، ولا يرى لذة العيش وهناءته إلا معها، وحدث أن نزل بماله حادثة أودت به كله وتركته فقيراً معدمًا، فلم يجد أمامه شيئًا من المال إلا هذه الجارية فأراد بيعها، وكانت الجارية تحبه أضعاف ما كان يحبها فتعلقت به وتوسلت إليه بكل عزيز ألا يبيعها فإنها لا تستطيع أن تستغنى عنه، فقال لها والله لأبيعنك لمن يقدر الحسن قدره، ويعرف له حقه فلعلك تنفعيننى عنده، وقد أشاروا على أن أبيعك لابن معمر أمير العراق فاشتد بكاؤها لقوله وقالت له والله لا أختار عليك الخليفة، فبكى الفتى لبكائها وقال لها لا مخرج لنا مما نحن فيه إلا بيعك، فذهب بها إلى ابن معمر وعرضها عليه، فقال له: كم كان ثمنها؟ فقال له الفتى ألف درهم وقد أنفقت عليها مثلها، فدفع إليه ثمنها، فلما تم البيع وقبض المال وهم بالانصراف ألقى عليها نظرة مشتاقة حركت لواعج الحب فى نفسها، فبادلته النظر ثم قالت تعاقبه وتودعه:

هنيئا لك المال الذى قد قبضته
ولم يبق فى كفى غير التحسر
أقول لنفسى وهى فى كرباتها
أقلى فقد بان الحبيب أو أكثرى
إذا لم يكن للأمر عندك موضع
ولم تجد بدا من الصبر فاصبر

فصاح سيدها وأجابها قائلاً:

ولو نهض الدهر بى معك لم يكن
يفرقنا شىء سوى الموت فاعذرى

يروح بهم من فراقك موجع
أناجى به قلبا قليل التصبر

عليك سلام ولا زيادة بيننا
ولاقرب إلا أن يشاء ابن معمر

وكان الأمير رقيق القلب خبيراً بأشواق النفوس وهيام المحبين، فرق للحبيبين المخلصين وقال لهما قد شئت فخذ جاريتك وخذ معها المال الذى أُعطيته، بارك الله لك فيها وفيما أخذته من المال، فانصرف بها الفتى وهو يثنى على الأمير أجمل الثناء.

وكان عبد الله بن سيدنا أبو بكر يحب زوجته ويخلص لها فى حبه، وكانت تبادله هذا الحب وذلك الإخلاص، وحدث يومًا أن بدرت منها إساءة لوالده فأمره بطلاقها مرغمًا امتثالاً لأمر أبيه، فتوجع لفراقها حتى ظهر أثر ذلك شعرا على لسانه، فقال فى مدح حسنها وأخلاقها قصيدة طويلة كان منها:

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها
ولا مثلها فى غير جرم تطلق

لها خلق عف وحسن ورونق
ووجه جميل لا يمل ومنطق

إلى آخر ما قال: وقد نما كلامه حتى وصل أبا بكر رضى الله عنه فلما تبين شوقه إليها وألمه لفراقها أمره بمراجعتها، فراجعها وعاش معها حينًا من الدهر ثم وافته منيته فحزنت عليه حزنًا شديدًا، ورثته رثاءً حارًا بقصيدة طويلة وكان مما جاء فيها:

فآليت لاتنفك نفسى حزينة
عليه ولا ينفك جلدى أغبرا

ثم ضـرب الدهر ضـرباته وتوالـت الأيام وهدأت ثورة الحـزن فى قلبـهـا فخطبها الزبيـر بن العوام فقبلت خطبته وتزوجت منه، وبينمـا كانت فى طريقها إليه اعترض طريقـها عبيد الله بن عمر وقـال لها. ألست القائلة فى بكائك على زوجك:

فـــآلـيت لا تنـفك نفـــسى حـــزيـنة
علـيـــه ولا ينفك جـلدى أغــبـــرا؟

فقالت قد قلت ذلك يا أخـى ولكن الزواج حصن الأحرار، وعون الأبرار وشيمة الأطهـار، ولئن يؤخذ على ما قلت وأنا متزوجـة خير من أن ينسب إلى دنس وأنا أرملة بريئـة، فقـال لها عـبـيد الله، امـضى إلى طريقك بارك الله فى الأبرار الأطهار والأخيـار الأحرار، وكانت هذه المرأة طاهرة حقًا وصـالحة فاتنة، فيقـال إنها استأذنت زوجهـا لتصلى الفجر فى مسـجد رسول الله ﷺ فأذن لها وفى نفسه منها شىء، فلما مضت إلى المسجد خـرج فى أثرها متخفيًا وكمن لها فى بعض جوانب الطريق وبينما كـانت عائدة تعرض لها ليختـبرها، فنفرت منه وأسرعت مهرولة إلى البـيت فسبقها الزبير فلما دخلت عليـه أقسمت ألا تخرج بعد اليوم من بيتها إلى المسجد فقال لها الزبير ولماذا؟ فقالت له كنا نخرج والناس ناس يخافون الله أما اليوم فلا.

وجاء عن الرسول ﷺ أنه قال «**من قدر على امـرأة فتركها خـوفًا من الله أمنه الله يوم الفـزع الأكبـر**» فكن يا أخى المسلم طاهر القلـب قوى الإيمان بعـيد النظر طاهر الذيل، ولا تقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تنتهك محارم المسلمين أو تعبـث بأعراضهم، ليـحفظ الله حرمـتك ويرعى كرامتك. واشـتغل بعظائم الأمور واعلم أن الله مطلع عليك فى سرك وعلانيتك ولا يخفى عليه من أمرك خـافية مهـما دقت ولا يعزب عنه من أمـرك ذرة مهما صـغرت واعلم أن مخـالفة النفس وعـصيان الهـوى من أهم أسباب النـجاح والفلاح، ومن أكـبر عوامل المكاشفة والفتوح.

جاء فى كـتب المناقب أن راهبًا كان مشـهورًا بين الناس بالمكاشفـة، وكان

يحدثهم عما فى ضمائـرهـم ويخبرهم عن كل أسرارهـم وكان يفتن المسلمين عن دينهم بفعله هذا فخرج إليه عالم من الفضلاء ليقتله خوفًا على الناس من فتنته، فلما استأذن عليــه ومعه سكين قد خبأها فى ثيابه ليـقتله بها، قال له الراهب دع السكين وادخل فـتعـجب العالم وقـال له من أين لك هذه المكاشـفة؟ قـال له: خالفت هواى ونفسى، فقـال له هل لك فى الإسلام؟ قال أن لا إله إلا الله وأن محمـدًا رسول الله، فقال له: لماذا أسلمت؟ قال: عـرضت على نفسى الإسلام فأبته فخالفتها، اللهم ارزقنا نفسًا راضية مطمئنة تخافك وتخشاك.

طرائف عربية وقصص دينية

أبو العلاء يدافع عن عقيدته الإسلامية

تقوَّل الناس كثيراً على أبى العلاء وطعنوا فى عقيدته ووصفوه بشىء من الزندقة والإلحاد، واتهموه بإنكار البعث ونسبوا إليه شعراً قد يكون مدسوساً عليه لفقه حساده كقوله مثلاً:

أبعث ثم حشر ثم نشر ... حديث خرافة يا أم عمرو

وقوله مثلاً:

فى الأرض قامت ضجة ... ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدق ... وذا بمئذنة يصيح

كل يؤيد رأيه ... يا ليت شعرى ما الصحيح

وغير ذلك من الأشعار التى لا شك أنها دخيلة على شعر حكيم المعرة، ولعلنا نستطيع أن نقدم للقراء شيئًا بمن تحدى أبى العلاء للفلاسفة والدهريين الذين ينكرون البعث ويخرجون على جميع الأديان، ومن هذه الصورة التى سنسوقها نعلم إلى أى حد كان أبو العلاء يجل الدين ويقدسه، لا بعواطفه ومشاعره فقط، ولكن بعقله ومنطقه كذلك قالوا إنه ناقش فلاسفة عصره والمنجمين الفلكيين الذين يزعمون أن الأفلاك االعلوية بما فيها من كواكب ونجوم ومطالع ومنازل هى التى تتحكم فى تسيير العالم الأرضى ويرى هؤلاء كذلك أن هذا العالم المشاهد هو وحده الموجود وأنه لا شىء وراءه من رب أو إله، وقد أفحمهم أبو العلاء وسجل هذا الانتصار عليهم فى هذه الأبيات:

قال المنجم والطبيب كلاهما

لا تحشر الأجسام قلت إليكما

إن صح قـولـكمـا فلسـت بخـاسـر
أو صح قـولى فـالخـسـار عـليكمـا

طهـرت ثـوبى للـصـلاة وقـبـله
طهـرت أين الطهـر من جـسـميكمـا؟

وذكـرت ربـى فى الضـمـائر مـؤنسـا
خلدى[1] بذاك فـأوحـشن خلديكـمـا

بُرد الشـريعـة إن تهلهـل نسـجـه
خـيـر وحق الله من بـرديكـمـا

الآخـرة خيـر وأبقـى

قـال العلاء السـعـدى وهو من أولياء الله الصـالحين، كـانت لى ابنة عم وكانت من الصالحات القانتات وقد أخذت نفسها بالعبادة وحبستها على الطاعة، فكانت تصـوم النهار وتقـوم الليل وتكثـر من الذكر والـتسـبيح وتطيل الركـوع والسجـود، وكانت دائمة البكاء من خـوف الله وخشيـته، وكان اسمـها (بريرة) وكانت لا تترك المصـحف من يدها لأنها كانت تحب الله وتجـد فى رحابه العزاء والسلوان، وكانت إذا مـرت فى قراءتها بآية رحمة خـشع قلبها واقشـعر بدنها، وإذا مرت بآية عذاب بكت وتضرعت وسألت الله السلامة والنجاة، وهكذا حتى ضعف جسـمها وسقم بدنها وبات نظرها عـلى وشك أن يضعف أو يذهب وقد تكلمنا فى شأنهـا كثيراً خوفًـا عليها وحرصًا على صـحتها، فقلنـا ندخل عليها وننصح لها أن ترحم نفسها من هذا العناء ونلفت نظرها إلى ما يصيبها من ضرر فى عينيها نتيجة لطول السـهر والبكاء، قال فدخلنا عليها وقلنا لها: اتقى الله فى نفسك واعلمى أن الله غفور رحيم وأنه رءوف بالعباد، فقالت لهـم: يا قوم إنكم تدعوننى إلى الغـفلة بدلاً من أن تذكرونى بالعبادة وتدعـونى إلى الله، قالوا لها إننا نخاف على عينيك من البكاء، فقـالت إننا أضياف فى أرض غربة ننتظر متى

(١) الخلد: هو العقل.

نُدعى فنجيب، أما ما تخافونه على عينى فأنا أقول لكم: إن يكن لهما خير عند الله فلن يضرهما ما ذهب منهما فى الدنيا، وإن يكن غير ذلك فسيزيدهما الله فى القيامة بكاءً على بكاء، فقال بعضهم لبعض: قوموا عنها فهى والله فى أمر غير ما نحن فيه.

قبح الله من لا أدب له

جاء فى كتب الأدب أن عالما من علماء العصر العباسى واسمه ابن ناصح، وكان زاهدًا متقشفًا لا يهتم بمظهره وثيابه، مع أنه كان غنيًا ثريًا وكان يدخل على الخلفاء وينال جوائزهم قالوا. إنه دخل يومًا على المأمون فى ثياب قديمة خلقة فلم يعجب المأمون مظهره وقال له: يا ابن ناصح ما هذا التقشف حتى تحضر مجلسنا فى هذه الخلقان. فقال الرجل. يا أمير المؤمنين إنى شيخ كبير وقد ضعف جسمى عن حمل ثيابى وأنا ذو حمية شديدة والجو ساخن حار، فأنا أبترد بهذه الثياب لخفتها وليس بتقشف، ثم دارت كئوس الحديث فى المجلس وجعلوا يتذاكرون العلم ويروون الحديث حتى وصلوا إلى النقاش حول النساء فقال المأمون: حدثنى هشام عن مقاتل عن إبراهيم عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال:

«**إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت له سدادًا من عوز**» «بفتح السين» فقال ابن ناصح صدق النبى ﷺ فيما قال، ولكننى أروى عن إبراهيم عن الحسن عن عمر أن النبى ﷺ قال: «**إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت له سدادًا من عوز**» «بكسر السين». فلما فرغ ابن ناصح من رواية الحديث اعتدل المأمون فى جلسته وكان متكئا، وظهر الغضب فى وجه وقال. يا ابن ناصح كيف قلت؟ فأعاد عليه الحديث. فقال المأمون: أو تلحننى قال إنها بالفتح لحن وكان هشام لحانًا، قال المأمون: فما الفرق بينهما إذن؟ قال إن السداد بالفتح هو القصد فى الدين والسبيل، والسداد بالكسر البلغة، فكل ما سددت به شيئًا كالزجاجة فهو بفتح السين. فقال المأمون أو تعرف العرب ذلك؟ قال نعم يقول أحدهم:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليـوم كريهـة وسـداد ثغر

فقال المـأمون. قبح الله من لا أدب له. ثم أطرق مليًا وقـال: كم مالك؟ قال مالى كثير والحمد لله، فقـال: أو نفيدك معه مال؟ فقال: إنى إلى فضل الله فقير، فأمر له بألف دينار وقال اكتبوا ذلك فى كتب الأدب لينتفع به.

احترام مالك للنبى فى قبره

قال الإمام الشافعى رضى الله عنـه زرت الإمام مالك فى مدينة رسول الله ﷺ فوجدت علـى بابه خيلاً كثيـرًا فسألته شـيئًا منها. فـقال: يا أخى هى لك كلها. فتعجبت من كرمه وقلت له: هـلا أمسكت لك شيئًا منها. فقال: يا أخى لا حـاجـة لى فى ركـوب الخـيل وقـد أهديت إلى من فـواضل الكرمـاء وإنى لأستـحيى من الله أن أطأ أرضـا تضم جثمـان النبى ﷺ بحافر دابـة، فأخذها الشافعى كلها.

إيمان أثبت من الجبل

لما قـبض المشـركـون مـن أهل مكة على زيد بن الدثنـة أخـذوا يعـذبونه وينتقمون من المسلمين فى شخصه بـعد ما دوخهم المسلمون فى غزوة بدر وقتلوا رجالهم وسلبوهم أموالهم وأهانوا كرامتهم وأذلوا عزتهم، فلما ظفروا بزيد فعلوا به الأفاعيل ونكلوا به شر تنكيل وفكروا فى شر طريقة ينتـقمون بها من شخصه وأية وسيلة يسوقون الآلام بها إلى نفسه، وأعلموا أرباب الثأر بيوم قتله ودعوهم إلى مشـاهدته ليتـشفـوا فيه، ومنعـوه الطعام والشـراب أيامًا حـتى إذا جاء يوم الانتقـام، جمعـوا جموعهـم واستلوا سيـوفهم ونصبـوا للصلب أعوادهم، ثم أخرجـوا زيدًا من سجنه مكبلاً مـغلولاً ومريضًـا معلولاً وظلوا يسعـون به حتى بلغوا به أعـواد المنايا وأروه بعينيـه السيوف التى سـتنهش لحمه وتهـشم عظمه، وذكروه بما كان من قـومه يوم بدر،ولكى يمعنوا فى التشفى ويسرفـوا فى الشماتة تقدم أبو سفيان من زيد وقـال له: أو تكفر بربك وتخرج عن دينك ونحن نعفو

عنك؟ فقال زيد: (والله لو كنتم على مـا أنتم عليه الآن أضعافًا مضـاعفة ما نال ذلك من إيمانى شيئًا ولا أنقص من يقينى قليلاً) فـتألم أبو سفيان وقال له يا زيد أستحلفك بالذى تحلـفون به، هل تحب أن يكون محمد مكانك السـاعة تضرب عنقه وأنت آمن فى سربك بين أولادك وأهلك؟ فقال زيد: (والذى بعثه بالحق ما أحب أن محمدًا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة وأنا مقيم فى أهلى وولدى) فتزايد إعجاب أبى سفيان مـن إيمانه وكمال يقينه وإخلاصه لله ولرسوله فنظر إلى أصحابه وقال لهم يا قوم. والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد لمحمد، ثم أمره القوم أن يصعد على أعواد صلبه فـاستمهلهم هنيهة ريثما يصلى ركعتين لله يختم بها عمله ويتوج بهمـا صبره وجهاده، فأذنوا له، فصلى ركعتين خفيفتين ثم التفت إليهـما وقال: «والله لولا أنكم تقولون إنه أطال الصلاة خوفًا من الموت لأطلت الوقوف فيهما بين يدى الله ولكانتا أتم وأكمل مما رأيتم»، فلم يستمعوا لقـوله ولم يلتفتوا إلى كلامه وتكاثروا عليه فشـدوه على خشبة الصلب وجعلوها على غيـر القبلة ثم تقدم شباب قـريش بسيوفهم ورماحـهم واختاركل واحد منهم مكانًا فى جسم زيد وضع فيه سن رمـحه أو ذباب سيفه، ثم ضربوه ضربة رجل واحـد فى لحظة واحدة، فـتقابلـت سيوفـهم فى جسـمه وتحطمت رماحهم فى عظمه ولحمه، فـصاح بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشـهد أن محمـدًا عبده ورسـوله، وسكت برهة يسيرة قـال بعدها، وعليك سلام الله ورحـمته وبركـاته يا رسول الله. ثم فاضت روحـه إلى بارئها وكان القـوم أثناء قتله وصلبه يتـضاحكون ويسخـرون ويلهون ويلعبـون أما زيد فكان ينشد هذين البيتين:

ولسـت أبالى حين أقـتل مـسلمـا
على أى جنـب كـان فى الله مـصـرعى
وذلك فـى ذات الإله فـإن يـشـأ
يبـارك على أشـلاء جـسـم ممزع

وبعد ذلك انصرف القوم عنه وكأنهم عائدون من ميدان كانوا يصارعون فيه

الأبطال ويجندلون فيه الرجال، ولم يعلموا أن الخزى يشملهم والعار يلاحقهم والتاريخ يسجل عليهم أنهم أنذال أخساء تكاثروا بسيوفهم على واحد أعزل، وحشدوا جموعهم على رجل أشل ولم يعلموا أن الله كان معه، فقد جمع وجهه على القبلة رغم أنوفهم، فكانوا كلما حولوه عنها انجذب إليها بعامل خفى لا يعلم أحد منهم مصدره ولا مأتاه، حتى أرغموا واضطروا اضطرارا إلى أن ينزلوه من فوق أعواده، أما ما كان من شأن رسول الله ﷺ بالنسبة إلى تسليم زيد عليه فإنه كان يبكى لغدر قريش بزيد وأصحابه، وبينما كان جالسًا فى اليوم والساعة التى صلب فيها زيد إذ برسول الله يرفع صوته قائلاً وعليك سلام الله يا زيد ورحمته وبركاته، فدهشت الصحابة من قول الرسول وتعجبوا من ذكره لزيد بغتة وإلا فأين نحن من زيد الآن، ورأوا أن يسألوا رسولهم عما سمعوه منه فقال لهم: «إن قريشًا أخرجوا زيدًا الساعة ليقتلوه، فلما شدوه على أعواد المنايا كان آخر كلام ختم به صحيفته أن سلم على وقد أبلغنى الله سلامه فرددته عليه» فبكت الصحابة أجمعون رحمة بزيد وشفقة عليه، فقال ﷺ: «**إن الشهيد لا يجد حرارة القتل ولا يتذوق مرارة الموت لأن الله عصم روحه من كل إيلام**» وقد أصبحت الصلاة التى صلاها زيد قبل موته سنة معمولاً بها إلى يوم الدين لكل من وقف من أجله موقفًا يشبه موقف زيد واجتمع عليه الظالمون الطغاة.

باعوا أنفسهم لله بجنته

جاء فى كتب المناقب أن الزاهد الورع والتقى المؤمن والولى العارف بالله سيدنا حبيب العجمى اشترى نفسه من الله عشر مرات بماله، فكان كل مرة يخرج البدرة من ماله الخاص به والذى أيقن أنه قد جمعه من حلال ثم يتصدق بها على الفقراء والمساكين من أهل بلده، فإذا فرغ منها طهر ثيابه وجسمه وقام يتهجد بين يدى الله ويقول: «إلهى وسيدى ومولاى اشتريت نفسى منك بما أقدر عليه من المال فأسألك قبول صدقتى وفك رقبتى وإقالة عثرتى» حتى إذا أصبح أصبح صائمًا شكراً لله على توفيقه إلى طاعته، فإذا اجتمع له مال بعد ذلك فعل مثلما فعل من قبل وسأل الله التوفيق والسداد والقبول والرشاد، ومازال يشترى

نفسه من ربه حتى كانت المرة العاشرة، فرأى فى منامه كأنما يصلى فى الكعبة وقد نقش أمامه على أستارها بخط واضح مذهب ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ فاستيقظ من نومه وهو طروب ويقول: واشوقاه إلى بقاء الله فإذا سألوه عن حاله قال لهم:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
سر أرق من النسيم إذا سرى

عنى خذوا وبى اقتدوا
وتحدثوا بمحبتى بين الورى

يكتمون حسناتهم حتى يتهمون

قال الدراج وهو صوفى من أهالى بغداد. وصف لى الرازى من أهل قزوين بالصلاح والتقى والمكاشفة والمشاهدة. فقصدته لأشاهد ذلك بنفسى ولأراه بعينى، فلما وصلت إلى مدينة قزوين سألت عنه أهلها، فما سألت واحداً منهم إلا تألم من اسمه ولا استخبرت عنه رجلاً إلا تأفف من ذكره وسيرته، ومنهم من كان يصارحنى رأيه فيه ويقول أى شىء تريده من هذا الزنديق الملحد؟ وما زالوا كذلك حتى قبحوه فى نظرى وضيقوا على صدرى، حتى عزمت على أن أعود من حيث جئت، وكان الليل قد جاء فتخيرت مسجداً من مساجد المدينة أقيم فيه حتى الصباح، فلما أشرقت الشمس كنت حائراً بين أن أعود إلى مستقرى وبين أن أمضى قدماً إلى الغاية التى قطعت عشرات الأميال من أجلها، وأخيراً شرح الله صدرى ويسر على أمرى وهدانى إلى قصد السبيل وقلت لابد من زيارة الشيخ، فهدانى الله إلى من يدلنى عليه فإذا هو جالس فى مسجد قومه يقرأ القرآن يلحن ما رأيت أعذب ولا أرق منه فدنوت منه وسلمت عليه فرفع وجهه إلىَّ وحيانى بأحسن تحية وجعل يسألنى عن شأنى ويستفسر عن حالى، وقال من أى البلاد يا أخى فقلت له من بغداد، فحدق النظر إلى وجهى وأحس بقربه من نفسى ثم قال يا أخى أتحسن من كلام القوم شيئًا؟ يقصد الصوفية والعارفين بالله، فقلت نعم، فقال أو تستطيع أو تنشدنى من كلامهم فإن روحى

ظمأى وصدرى ضيق وقلبى متحجر جحود، فأدركت حاجته وفهمت قصده وأنشدته ذلك البيت بنغمة حركت أشواقه من مكامنها وبعثت أشجانه من مراقدها. أنشدته هذا البيت على لسانهم:

وما حملونى الضيم إلا حملته
لأنى محب والمحب حمول

وما كاد يلمس صوان أذنه هذا البيت ويأخذ طريقه إلى شغاف قلبه وحشاشة نفسه حتى هز روحه من أعماقها وأخذه الوجد بعنف وجعل يهيم طربًا ويهتز عجبًا حتى اشتفى صدره مما وجد ثم قال لى يا أخى أو تلومهم على قولهم؟ إن يوسف بن الحسن الرازى زنديق وأنا أقرأ القرآن من أول النهار وأتلوه بالليل والأسحار ولم أذرف دمعة واحدة ولكن عندما أنشدتنى هذا البيت قامت قيامتى وهطلت دمعتى وهاج بى الشوق والحنين إلى أرباب الأحوال، فقلت له يا سيدى. علام بنيت أمرك فى التوكل والزهد؟ قال على أربعة أشياء علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت إليه نفسى، وأن عملى لا يعلمه غيرى فأنا مشغول به، وأن الموت يأتى بغتة فأنا مستعد له، وإنى لا أخلو من عين الله لحظة فأنا أستحيى منه، فرجعت إلى بغداد وأنا أقول والله لو لم أظفر من رحلتى تلك إلا بهذه الأربعة لكفانى ذلك غنيمة وادكارًا.

أعوان الظلمة

كان الإسلام يحرص كل الحرص على نشر العدل فى الأرض وإقامة ميزانه بين الناس وكان يحذر أتباعه أن يظلموا الناس مثقال ذرة ويتجلى ذلك فى قوله ﷺ: **«أدوا الخيط والمخيط وإياكم والغلول فإنه عار على صاحبه يوم القيامة ومن اقتطع حق مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة. فقالوا له وإن كان يسيرًا يا رسول الله؟ فقال وإن كان قضيبًا من أراك»** ومن أجل هذه الدقة خاف المسلمون الظلم وإن كان يسيرًا، وكانوا كثيرًا ما يسألون علماءهم عن أى عمل تشتم منه رائحة الظلم حتى يتجنبوه ولا يقعوا فيه، وقد سأل رجل طاوس

اليمانى وهو من أئمة التابعين، وكان السائل خياطًا يخيط الثياب للأمراء والخلفاء والجنود، سأله وهو يحذره من الظلم وتعاطيه ويحدث الناس عن مصير الظلمة وأعوان الظلمة يوم القيامة، سأله فقال أمن أعوان الظلمة أنا؟ فقال له الشيخ يا أخى؟ قال إنى أخيط ثياب الخلفاء والأمراء وأعوانهم، فابتسم طاوس وقال: بل أنت من الظلمة أنفسهم ولكن أعوان الظلمة من يبيعونك الإبر والخيط، ويشبه هذا ما روى عن الإمام مالك رضى الله عنه، فقد كان مع طائفة من العلماء يزورون أبا جعفر المنصور فأشار أبو جعفر إلى الإمام مالك أن يعطيه قلمه ليكتب به شيئًا، فأبى الإمام أن يمنحه قلمه، فقال الخليفة: أو تعصينى يا ابن أبى عامر وأنا خليفتك ولى حق الطاعة والولاء عليك؟ قال: لا يا أمير المؤمنين معاذ الله أن أشق عصا الطاعة عليك أو أخرج على جماعة المسلمين فقال الخليفة: فلماذا إذن لم تعطنى قلمك؟ قال: خشيت أن تخط به مظلمة فأشركك فى إثمها وأكتب عند الله من أعوان الظلمة، قال الربيع حاجب المنصور: فوالله لقد لمت ثيابى خوفًا من أن يصيبها شىء من دماء مالك وما شككت فى أن الخليفة سيأمرنى بضرب عنقه الساعة فتلك جرأة على مقام الخلافة لم أرها لغيره، لكن الخليفة تطامنت نفسه واهتز لقوله وقال. أيدك الله يا ابن أبى عامر وأيد الحق بك فلا تقطع عنا نصحك فى الله طرفة عين.

عظة فقيه ورع

قالوا إن الحسن البصرى رضى الله عنه كان شديد الخوف من الله، وكان لا يرى ضاحكًا ولا لاهيًا، وبينما كان فى طريقه يومًا إلى المسجد إذ مر بشاب يضحك ويسرف فى الضحك، فلم يعجبه مجونه ولا خلاعته، فوقف عليه يعظه ويذكره ما ألقى عليه من تبعات وأعباء ووجه إليه هذه الأسئلة، فقال: يا هذا أراك تضحك وتلعب وتسرف فى اللهو والمجون. فهل أخذت على الله عهدًا أن يبقى لك هذا الشباب غضًا طريًا وفتيًا قويًا؟ فقال الشاب: لا. فقال الحسن: وهل أخذت على الله عهدًا أن يؤمنك الفتن فى هذه الدنيا؟ قال: لا. قال: فهل أطلعك الله على خاتمتك فرأيتها حسنة؟ فقال: لا. قال: فهل تعلم متى الموت

وأين تموت وكيف تموت؟ قال: لا والله، قال: فهل آمنت فتنة القبر وهل أعددت الجواب على سؤالك؟ قال: لا. قال: فهل علمت متى تبعث وكيف تحشر وتنشر وهل ستأخذ كتابك بيمينك أم بشمالك؟ قال: لا. قال: وهل تعلم أن ستثقل حسناتك على سيئاتك أم ستخف عنها؟ قال: لا، قال: وهل علمت أنك ستمر على الصراط وهو ممتد فوق متن جهنم دون أن تسقط فيه أو تعلق بك كلاليبه أو خطاطيفه؟ قال: لا، قال وهل أيقنت أنك سترد حوض رسول الله فيسقيك منه أو يطردك عنه؟ قال: لا، قال فهل علمت أنك ستدخل الجنة فتكون فى جوار الرحمن أم ستسوقك الزبانية إلى النار فتكون من أهل الشيطان والعصيان؟ قال: لا، قال: يا هذا إذا كانت تنتظرك كل هذه العقبات ولا تعلم مكانك منها ولا تدرى مصيرك معها، فكيف تسرف فى المجون وتكون من الغافلين؟

قالوا: فاستقام الشاب وحسنت أخلاقه وتبع الشيخ يحفظ منه ويروى عنه ويتأدب بكل آداب الدين الحنيف.

من مناقب السيدة نفيسة رضى الله عنه

كانت السيدة نفيسة رضوان الله تعالى عليها صالحة قانتة تصوم النهار وتقوم الليل وتكثر من صلاة النفل وتواصل الاستغفار والذكر لا سيما أوقات السحر، وكان بيتها كعبة يقصدها الزائرون ليسمعوا منها العلم ويأخذوا عنها الفقه ويسمعوا فى مجلسها أقوال الزاهدين وأحاديث الرسول ﷺ.

وظلت كأقرانها من أهل البيت تجاهد فى سبيل الله وتعلى منار الحق وترشد السالكين إلى أقوم طريق حتى ضعف جسمها وسقم بدنها وأصبحت عاجزة عن أن تقوم وردها وتصلى فرضها، وكان كل من حولها من المصريين يشفقون عليها ويخافون أن يشتد بها المرض وتفتك بها المنية ويوافيها الأجل فيحرمون ريحانة النبوة وسلالة آل البيت الطاهرين، ومن أجل ذلك كانوا يرجونها أن تسمح لهم ليحضروا لها طبيبًا يداويها، فكانت تأبى عليهم ذلك فى إصرار إلى أن جاء شهر رمضان فأحضروا لها الطبيب لأن العلة كانت قد تمكنت

منها وأعجزتها عن الحركة والعبادة، فلما رآها الطبيب قال لابد من أن تفطر وإلا هلكت، فأبلغوها ما قاله الطبيب عنهـا وقالوا لها إنه يحتم عليك الفطر حتى لا تتضاعف العلة، فقالت ويحكم يا قوم. منذ ثلاثين سنة وأنا أسأل الله أن يتوفانى وأنا صائمة. أو بعد أن استجاب الله إلى دعائى أرد ذلك عليه؟ فقالوا لها إن الله قد رخص للمريض فى الفطر ولا حرج عليك فى هذا مادمت ستصومين مكانها عدة من أيام أخـر، وهذا أمر طبـيب مسلم حـاذق وصحة البـدن شرط لصـحة العبادة، فلم تجبهم إلا بهذه الأبيات:

اصرفـوا عنى طبيبى	ودعـــونى وحبيـــبى
زاد بى شـــوقى إلـيه	وغرامى فـــى لهيبـــى
طاب هتكى فى هـواه	بيـــن واس ورقيـــب
لا أبـالى بفـــوات	حين قـد صار نصيبى

ثم أخذت تقـرأ القرآن وتتلوه وتتلذذ بمعـانيه وتأنس بأنواره وأسـراره حتى فاضت روحها عند قوله تعالى: ﴿**لهم دار السـلام عند ربهـم وهو وليهـم بما كانوا يعملون**﴾.

كيف أحبت الصحابة رسول الله

كانت الصحابة عليهم الرضوان يحبون رسول الله ﷺ من صميم قلوبهم. وكانوا يفـدونه بالنفوس والأرواح والأموال والأولاد فى السراء والضـراء والشدة والرخاء، وكانوا إذا حضروا معه غزوة أو خـاضوا معه حربًا قاتلوا الأعداء دونه وحرصوا كل الحرص على ألا يمسه أذى ولا يصيـبه مكروه، وتحدثنا كتب السيرة عن أمثلة من هذا التقدير وذلك الاحترام.

قالوا إنه لما عاد النبى ﷺ من غزوة أحد وكـانت عزوة عنيفة أوذى فـيها رسول الله إيذاء شديدًا فكسرت رباعيتـه ووطئ ظهره وسال دمه ودخلت حلقات المغفر فى وجنتيـه الشريفتين، كما قد أوجع نفسه وآلم كـبده ما منى المسلمون به من هزيمة سـاحقة، وكـانت تلك الغزوة تمـحيصًا من الله لعبـاده المسلمين لأن

بعضهم ما خرج إليها إلا حبًا فى الدنيا ورغبة فى الغنيمة وميلاً إلى الشهرة والسمعة، والقليلون من المسلمين هم الذين خرجوا ابتغاء مرضاة الله وحرصًا علي نيل الشهادة فى سبيل الله، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾[1] ومهما يكن من شىء فإن أفضل ما غنمه الصحابة من هذه الغزوة المريرة العودة برسول الله ﷺ سالمًا دون أن يناله المشركون بشر، وقد مر النبى ﷺ وهو عائد إلى المدينة بامرأة قتل أبوها وزوجها وابنها فلما أبلغت بموتهم لم تحزن عليهم ولكنها قالت أخبرونى ما فعل النبى وهل أصابه المشركون بسوء؟ فقالوا لها لا هو بحمد الله كما تحبين فلم تسكن نفسها ولا هدأ قلبها حتى تراه وقالت أريد النظر إليه، فلما أبصرته فرح قلبها وأشرق وجهها وقالت: كل مصيبة بعدك تهون، فأثنى عليها الرسول ودعا لها بخير.

نسأل الله أن يحشرنا فى زمرة الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

حكم ونصائح

ولا بأس بذكر شىء من الحكم النافعة والنصائح المفيدة والأمثال الهادفة، والوصايا الموجهة لينتفع بها القارئ ويجمل بها حديثه ويستعين بها على تأييد رأيه، وتدعيم حجته. فإن الحكمة الواضحة. خفيفة المحمل، ميسورة الحفظ سهلة التعاطى، توضح الحق الغامض وتزيد الواضح وضوحًا وجلاءً، وهى كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها**» وهى إلى جانب ذلك خفيفة على المستمع عذبة الوقع فى أذنه مستساغة فى عقله توقظ مشاعره وتثير انتباهه، تفيده إن كان مخلصًا وتلزمه الحجة إن كان مجادلاً وتزيد فى علمه إن كان يحب العلم ويحرص عليه، وفوق هذا فالحكمة تكبر قائلها عند الناس وتزيده فى أعينهم جلالاً وجمالاً، وتجعلهم يحفظون قوله ويروون حديثه، وتجعلهم يرجعون إليه فى المشاكل ويستعينون برأيه فى الخطوب

---

(١) آل عمران: ١٥٢ .

والمعضلات، ويثقون بنصحه وتوجيهه مادامت الحكمة تلازم منطقه، وتتخلل كلامه ولذلك مدحها الله ومدح أهلها وأخبر أن من أوتيها فقد أوتى خيرًا كثيرًا، وامتن بها على عباده المؤمنين، فاستمع إلى قوله تعالى فى كتابه الكريم: **﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**(١) وأخبرنا فى كتابه أنها نعمة من نعمه وعطية من عطاياه التى تستحق الشكر وتستوجب الحمد والثناء، وأنها كانت من أبرز ما تفضل الله به على سيدنا لقمان، فأوجب عليه شكرها وذكره بفضلها وألزمه حقها، فقال: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾**(٢) وكفى بالحكمة شرفًا وتكريمًا أن الله يرويها لعباده عند عبد صالح كسيدنا لقمان لينتفع بها محبوها وكل من يقدس العلم ويعشق النصح ويجل الوعظ والتذكير، ولقد كانت من بين النعم التى أسبغها الله على رسوله ﷺ. ومن وأظهر بها قدره بين الأنبياء، وفى ذلك يقول سبحانه مخاطبًا لحبيبه ومصطفاه: **﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾**(٣).

فإذا ما تأملت معى فى هذه الآية وجدت الحكمة موازية للقرآن فى المرتبة وشريكته فى المنزلة وقرينته فى الشرف والفضل، ولذلك أحبها الرسول ﷺ وحض على تحصيلها ورفع من قدرها، فقد ورد عنه أنه قال: «**إن من البيان لسحرًا وإن من الشعر لحكمة**» فاحرص عليها يا أخى جهدك ولقح بها عقلك، وزين بها كلامك وأيد بها رأيك وقوم بها حجتك، واقرع بها خصمك وأوص بتحصيلها ولدك، وانقلها إلى أصدقائك وأصحابك تنزل فى قلوبهم أشرف مكانة وأجل مقام وقد ثبت أن الرسول ﷺ كان جالسًا فى حديقة لرجل من الأنصار واسمه (أبو كاهل) فاستدعاه إليه فقال له الرجل مهلاً يا رسول الله حتى أحضر لك من الثمار أحلاها، ومن الفاكهة أشهاها، فإنى لأشرف الناس بجلوسك فى بستانى اليوم، فقال له النبى: «**دع عنك ثمار الأشجار وفاكهة النخيل وتعال إلى أنفحك من ثمار الحكمة، وأمنحك من جوامع الكَلم، فإن الحكمة خير من الدنيا وما فيها خير ما أعطى الله المؤمن بعد دينه كلمة حق ترشده إلى هدى أو ترده عن ردى، يا أبا كاهل. ألا أخبرك بقضاء قضاه الله على نفسه؟ قلت بلى يا رسول**

(١) البقرة: ٢٦٩ . (٢) لقمان: ١٢ . (٣) النساء: ١١٣ .

الله. قال أحيا الله قلبك ولا أماته يوم تموت القلوب، إن الله لا يغضب على من كان فى قلبه مثقال ذرة من مخافته وإن من ستر عورته حياء من الله سراً وعلانية ستر الله عورته يوم القيامة، وإن من ذاق حلاوة الصلاة وخشع فيها حتى يتمها أرضاه الله يوم القيامة، وإن من واظب على الجماعة أربعين يومًا كتب الله له براءة من النار، وإن من صام ثلاثة أيام من كل شهر مع رمضان أرواه الله يوم العطش وإن من كف أذاه عن الناس آنسه الله فى وحشته ونجاه من عذاب القبر، وإن من بر والديه فى حياتهما وموتهما دفع الله عنه ميتة السوء. قلت: يا رسول الله زادك الله حكمة ومعرفة، كيف يبر الإنسان والديه بعد موتهما؟ قال: «يستغفر لهما ولا يلعنهما ويصل ما أقطع بموتهما، ومن أدى زكاته عند وجوبها كان حقًا على الله أن يجعله من رفقاء النبيين والصديقين، ومن سعى على أهله حلالاً جعله الله مع الشهداء فى درجاتهم، وإن من صلى على كل يوم ثلاث مرات حبًا فى وشوقًا إلى غفر الله له ما يخشاه من الذنوب وأخرجه من كل هم وضيق».

قال رسول الله ﷺ «الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شيء من الجور أو أن تبغض على شيء من العدل وهل الدين إلا الحب والبغض» وقال ﷺ: «العمل أساس الإيمان» وقال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تنتهى القلوب إلى قلبين، قلب أسود مربد مكبوب لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هوى، وقلب أبيض مستنير لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض».

وقال سيدنا عمر رضى الله عنه: «لا تنظروا فى أعمال الناس كأنكم أرباب بل انظروا فى أعمالهم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان مبتلٍ ومعافى فاعذروا أهل البلاد واحمدوا الله على العافية» وقال رسول الله ﷺ: «أكثر أهل النار صياحًا يوم القيامة الغافلون عن التفكر فى آيات الله».

وقال سيدنا على رضى الله عنه: «من علامة إعراض الله عن عبده اشتغال العبد بما لا يعنيه».

وجاء فى كتـاب الحديث أن رجلاً من صحـابة رسول الله باع لرجل جاره أرضًا ليـغرس فيهـا بستانًا، فلما قـام المشترى بحـرثها وغرسهـا وجد فى باطن الأرض جرة مليئة بالذهب فذهب بها إلى البائع وقال له خذ هذه فإنها لك دونى وما اشتـريت منك إلا الأرض فقط، فقال له البائع بـل هى لك وليست لى وقد بعتك الأرض وما فيها جميعًـا، فأبى المشترى أن يقبلها فاحتكما إلى النبى ﷺ، فسألهما الرسول: «**ألكما أولاد؟**» فقال أحدهما: لى ابنة وقال: الثانى: إن لى ابن فزوج الأنثى من الذكر ووهب الذهب لهما.

هكذا كانوا يتنافسون على الخير.

وقالوا إن سيدنا عبد الله بن عباس كان معتكفًا فى مسجد رسول الله فجاءه إنسان له حاجة إلى أمير المؤمنين عمر يريد قضاءها فخرج معه ابن عباس وقضى له حاجته من عمر، فقالوا لابن عـباس أو تترك الاعتكاف فى مسجد رسول الله وهو من أفضل القرب وتخـرج مع هذا الرجل لتقضى له حاجـة، فقال لهم إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سعى مع أخيه المؤمن فى حاجة يريد قضاءها له كان خـيرا من أن يعتق عشـر رقاب وأعظم أجرًا عند الله من أن يعتكـف شهرا فى مسجدى هذا**».

وقال رسول الله ﷺ: «**من ذهبت من عمره ساعة فـى غير ما خلق له كان جديرا بأن تطول حسرته عليها يوم القيامة ومن بلغ الأربعين من عمره ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى نار جهنم**».

وقال سيـدنا عبد الله بن عمر: اجتـمعنا عند رسول الله ﷺ صبيحة يوم فخرج علينا ليحدثنا بما أوحى الله إليه به فـقال لأصحابه وهم يسمعون: «**رأيت البارحـة فى نومى عجبًا، فقـالوا وما رأيت يا رسـول الله؟ فقـال رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ورأيت رجلاً من أمتى قـد احتوشته الشـياطين فجاءه ذكر الله فـرد الشياطين عنه، ورأيت رجلاً من أمتى أحـاطت به ملائكة العذاب فجاءته صلاته فـاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلاً من أمتى يـلهث عطشا كلما دنا من حوض منع وطرد فـجاءه صوم رمضان فـسقاه حتى أرواه ورأيـت رجلاً من أمتى والنبيـون جلوس كلما دنا من**

مجلسهم طرد فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأجلسه إلى جوارى، ورأيت رجلاً من أمتى بين يديه ظلمة ومن ورائه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة وبينما هو حائر وسط هذه الظلم جاءه حجه وعمرته فخلصاه ونورا له الطريق، ورأيت رجلاً من أمتى يتقى شرر النار بوجهه فجاءته صدقته فصارت ستراً بينه وبين النار، وكانت ظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت يا معشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه وصافحوه، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه فى ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتى جاثيًا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته إليه من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه فتهلل واستبشر، ورأيت رجلاً من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه[1] فثقل ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتى قائما على شفير جهنم فجاءه رجاؤه فى الله سبحانه وتعالى فأبعده عن النار ومضى به إلى الجنة، ورأيت رجلاً من أمتى قد هوى فى النار فجاءته دموعه التى بكاها من خشية الله فاستنقذته من النار، ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يرتجف كما ترتجف السعفة فى يوم ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعبه وذهب عنه خوفه، ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط زحفًا يحبو أحيانًا ويتعلق أحيانًا فجاءته صلاته على فأقامته على الصراط فانطلق مسرعًا إلى الجنة، ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى باب الجنة فأغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت الأبواب فدخل مع النبيين والصديقين».

وقال إياس بن معاوية، إذا لم تكن ماء فكن دلوا وإذا لم تكن دلواً فكن حبلاً وإذا لم تكن حبلاً فكن بكرة ولا تكن الحجر الذى يقذف فى الماء ليسمع صوته، يقصد بهذا الحكيم. أن يكون الإنسان شيئًا نافعًا فى الحياة يحتاج إليه ولا يستغنون عن وجوده، ومعنى ذلك أن الإنسان لا يكون كما مهملاً لا يشعر بوجوده أحد إن حضر ولا يحس بغيبته إنسان إن غاب، فهو كما يقول المثل

---

(١) أفراطه: أى الذين ماتوا صغارًا من أولاده.

الشعبى عندنا. كالترمس النيئ حضوره يساوى غيابه، أو كما يقول المثل العربى يصف إنسانًا لا نفع فيه.

فذاك الذى إن عاش لا يعتنى به وإن مات لا تحزن عليه الأقارب

أو كما يقول بعضهم فى هذا المعنى أيضا:

فإن تصبك من الأيام جائحة لم نبك منك على دنيا ولا دين

ولكن كما قال ابن حنبل يوصى ابنه: «يا بنى كن كالشمس للناس والعافية للبدن والهوى للرئتين فلا يستغنى عنك أحد» وقالت فاطمة الزهراء رضى الله عنها: من أجل ما من الله به على أنى لم أفش سرا لعلى ولم أنظر لغيره قط.

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا زوج الرجل ابنته وهى كارهة فنكاحها مردود مردود مردود**» وقال الحسن البصرى: النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، وخير الزواج ما كان عن ود ورضا.

وقال سيدنا على رضى الله عنه: «كلما زاد ما فى حوزتك عن حاجتك زاد همك وكثر رزاك».

وقال ابن المقفع: العلم مثل التجديف ضد التيار إذا لم يحرز تقدما فهو ناقص ويدفع صاحبه إلى الوراء. وقال الصديق رضى الله عنه: «من أمعن النظر فى عيوبه وجدها كثيرة فلا يغضب إذا رأى القليل منها عند غيره» وقال معاوية: إن الحوادث المقبلة تسقط ظلالها أمامها. وقال المأمون: خير لك أن تعمل لتجتنب هم التفكير من أن تفكر لتجتنب هم العمل.

وقالوا: إن سيدنا عبد الله بن عباس حضر وليمة فلما خرج منها قال: الحمد لله الذى جعلنا نشتهى ما نأكله فهنالك من يشتهى فلا يجد وهنالك من يجد ولا يشتهى فكثيرون يملكون ولا يشتهون وكثيرون يشتهون ولا يملكون وكثيرون لا يشتهون ولا يملكون.

وقال يحيى بن اكثم: أسعد الناس من يجد فى بيته السلام والهدوء. ولا يبلغ أحدكم درجة الصالحين حتى يكون مثل الأرض للناس عليها أرزاقهم ومنها منفعتهم.

وقال عبد الملك بن مروان: ليس الإحسان لمن أحسن إليك فإنه تجارة ولكن الإحسان إلى من أساء إليك.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسـول الله إنك تبغض الكبر وأنا رجل أحب أن يكون ثوبى جميلاً ونعلى جميلاً، أفيعد هذا من الكبر؟ قال: **«لا. ولكن الكبر بطر الحق وغـمط الناس إن الله جميل يحـب الجمال. فتـجملوا حتى تكونوا فى الناس كـأنكم شامة. إن هذا الدين بنى عـلى النظافة ولن يدخل الجنة إلا نظيف، وليكن أحدكم كالنحلـة أكلت طيبا وامتصت رحيـقا فأخرجت للناس شرابًا مختلفا ألوانه فيه شفاء لهم»**.

وقال الجـاحظ: من قضى يومه فى غيـر فرض أداه أو حق قضاه أو مـجد بناه، أو علم حـصنه. أو حمد اقـتبـسه، أو خيـر أسسـه فقد عق يـومه وظلم نفسه».

وقالوا: إن قـائد جيش المأمون كتب إليـه من الميدان: إن الجند قد شغـبوا على ونهبوا الغنائم، فكتب إليه المأمـون يقول له: لا كنت ولا كان رأيك. اعدل بينهم فلا يشغبون، ووفى لهم فلا ينهبون.

وقال رسول الله ﷺ لأصحـابه حينما اشـتد بهم العذاب وقـست عليهم المشـركون: **«والله ليـتمن الله هـذا الأمـر حـتى يسيـر الراعى مـن صنعـاء إلى حضرموت لا يخشى على نفسه وغنمه إلا الله والذئب ولكنكم تستعجلون»**.

ولما أكـثر الصـحابة من الثنـاء على أبى بكر قال لهم الرسـول ﷺ: **«ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام وإنما بشىء وقر فى قلبه وهو اليقين»**.

وقال حكيم: إن قصـة الخليقة الناجيـة كما مثلها أبـونا آدم خطأ ومتاب، وقصة الخليقة الهـالكة كما مثلها إبليس جريمة وإصرار، فاخـتر لنفسك ما يحلو لها.

وقـال الغزالى رضى الله عنه: «خـير عـلاج للقلق النفـسى الإيمان بالله»، وقال سيدنا عمر بن الخطاب: «أوتينا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن» رزقنا الله العلم والحكمة وعمر قلوبنا بالإيمان واليقين.

فكاهات وطرائف

ويجمل بنا إتماما للفائدة أن نذكر للقارئ شيئًا من الملح والفكاهات التى أثرت عن سلفنا الصالح، ليروح بها قلبه ويشرح بها صدره، ويلقح بها عقله ويصقل بها ذوقه ويلين بها طباعه، فإن النفوس البشرية تميل إليها والآذان تهفو إلى سماعها، وذلك لخفة وقعها وحلاوة مذاقها، ولما فيها من ترويح عن الإنسان من عناء الجد وعون له على مكابدة الحياة وما فى واقعها من أعباء وأثقال وهموم وأحزان، وأعمال وتكاليف قد يقدر عليها الإنسان وقد لا يقدر، وإن نهض بها فقلما ينهض إلا بتعب ومشقة وجهد وعناء، فإذا أصبح الإنسان وأمسى وهو غارق فى صرامة الجد وقسوة العمل ومواجهة ما كلف به من أمر دينه ودنياه دون أن يمنح نفسه شيئا من الترافة والترويح، نفرت منه نفسه واستعصى عليه طبعه وأحاط به الملل والسأم، وأمات قلبه الضجر، والضيق وتلفت حوله إلى شيء يرفه عنه ويبعد عنه سأمه ومله وينقذه من وحشته وكآبته حتى يعود إليه نشاطه، وترجع إليه قوته. ولا يكون ذلك ممكنًا إلا بشيء من الملح الخفيفة، والفكاهة الطريفة والنوادر اللطيفة، والرقائق التى تدخل على نفسه البهجة وتسوق إلى قلبه الأنس، ويشفى طبعه مما يعانيه، وقد أباح ذلك الدين ورغب فيه الرسول ﷺ. فقد جاء فى سنن أبى داود عن النبى ﷺ أنه قال: **«لا تكرهوا قلوبكم على الجد وروحوها بطرائف الحكم فإن القلوب إذا أكرهت عميت»** وجاء أيضًا فى كتب الحديث أن رجلاً من الصحابة واسمه «حنظلة» وكان من الملازمين لمجلس رسول الله جاء عنه أنه دخل يومًا على سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وقال له يا أبا بكر لقد نافقت. فقال له أبو بكر وما ذاك؟ قال إننا نكون عند رسول الله فى مجلسه فيقرأ علينا الآية الزاجرة ويسمعنا العبرة البالغة، ويعلمنا من كل ما علمه الله حتى تخشع قلوبنا وتزكو نفوسنا وتصفو أرواحنا وتذرف عيوننا ونصبح أقرب ما نكون إلى رضوان الله، فإذا انصرفنا إلى بيوتنا واجتمعنا بأهلنا وأولادنا غفلت نفوسنا وضحكت أفواهنا وأقبلت علينا الدنيا بلهوها ولعبها فأنستنا كل ما زرعه

الرسول فى قلوبنا من مهابة الله، فلمـا سمع أبو بكر منه كلامه قال له: يا أخى إذا كان هذا نفاقا فإنى كذلك قد نافقت فقم بنا إلى رسول الله، فذهبا معًا وقص أبو بكر على رسول الله ﷺ ما قاله حنظلة فأقبل الرسول على الرجل وقال: «**يا حنظلة والذى نفسى بيده لو أنكم ظللتم فى بيوتكم على ما تكونون عليه فى مجلسى لصافحتكم الملائكة فى الطرقات، ولتجلى لأعينكم ملكوت الله، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**»، وقد قيل فى هذا المعنى:

افـد طبـعك المكدود بـالجـد راحـة
تـفـــــده وعلـلـه بـشىء مـن المـزح
ولكـن إذا أعطيـتــه المزح فـليكن
على قــدر مـا يعطى الطعـام من الملح

ويقال إن الجنيـد رحمه الله كـان إذا جلس إلى مريديه فحـادثهم وعلمهم وأمرهم ونهـاهم كانوا يقبلون عليـه ويستمـعون لحديثـه ويعبون من بحـر علمه ومعرفته، حتى إذا تراءى له الملل والسأم فـى عيونهم أنشدهم من شعر الأقدمين متفكها:

اســتـعــجـمـت دار مى مـا تكلـمنا
والدار إن كـلمـــتـنا ذات أســـرار

وقول القائل من الأعراب وكان لصا يجيد الإغارة على الإبل والأغنام:

وإنى لأســتــحـــيى من الـله أن أرى
أجــرر حــبــلا ليس فــيــه بـعــيــر
ومـالى أقاسى الفـقـر والضيق والجـوى
وبعـــران ربى فى الـبــلاد كـــثـيـــر

فلا يكاد القوم يسمعـون ذلك منه حتى يضحكوا وينشطوا ويعودوا إلى ما كانوا فـيه من تحصيل العلم والحكمـة، وجمع المعارف والآداب، ويعجـبنى قول القائل فى هذا المعنى وقد أجاد.

وللجـــد أوقـــات وللهـــزل مـــثلهـــا
لكـن أوقـــاتى إلى الجـــــد أقـــرب

ولـلـه عندى جـــانب لا أضـــيـــعـــه
ولـلـهـــــو عندى والـفكاهـة جـــانب

ولقد كان لرسول الله ﷺ من أصحابه مضحك يؤنس مجلسه ويروح عن أصحـابه إذا أخذهم الجد وقسـا عليهم الواقع واشتـدت بهم الظروف والأوقات فكان هذا الصحابى يحدثهم من طرائفه ويروى لهم من ملحه وفكاهاته ما يشرح صدورهم، ويرسم البسمة على أفواههم ووجوههم وكثيراً ما كان الرسول يطلب إليه ذلك الصـحابى الجليل هو سيـدنا «نعيمـان» الذى كان يعرف بين الصـحابة بمضحـك رسول الله ﷺ والذى كان له مع الرسـول فى هذا المضمـار صولات وجولات حفظتها الصحابة وسجلتـها كتب السيرة والذى كان الرسول يقول له: «أسمعنا من هناتك يا نعيمان» فكان الرجل يقـبل عليه ويسمعه من الحديث أرقه وأحلاه وكان لا يسكت حتى يبتسم الرسول ضـاحكًا فيعلم أنه قد بلغ من نفسه حاجتها، وربما كان ينتقل نعيمان من قول الفكاهة إلى اصطناعها وافتعالها، قالوا إنه رأى رجلاً يبـيع عسلاً فى المدينـة أثناء القائلة وفى أشد أوقـات الحر دون أن يجد أحدًا يشترى منه شيئـا فأخذه نعيمان إلى بيت رسول الله ﷺ وأوقفه بعيدًا وأخذ مـا معـه من العسل ودخل به على نسـاء رسول الله ﷺ فوجـد الرسول هنالك فـوضـعــه بين يديه وقـال له: يا رسـول الله. علمت أنك تحب العـسل فأهديت ذلك إليك ثم انصـرف وقال للرجل إنى سأمضى لشأنى وسـيخرج لك أهل هذا البيت ثمن عـسلك فانتظر الرجل طويلاً فلم يخـرج إليه أحد، فـوجد نفسـه مضطراً لمطالبة أهل البـيت بثمن عسله، فطرق باب الرسـول وقال يا أهل البيت أخرجـوا لنا ثمن عسلنا، فدهش الرسول من قـوله وأدرك على الفور أنها دعابة من دعابات نعـيمان أراد بها إضحاك وإدخال السـرور على نفسه الطاهرة، فلم يقل شيـئا ونقد الرجل ثمن عـسله، فلما لقيـه نعيمان بعـد ذلك ابتسم فى وجهه وقـال «ما هذا الذى صنعته يا نعيـمان بأهل بيت نبيك؟ فضحك نعـيمان وقال: يا رسول الله، علمت أنك تحب العسل وليس مـعى من المال ما أشتريه به

هدية فحملت إليك شيئًا منه وعسانى أكون قد وفقت إلى الخير. وكان للرسول ﷺ نفسه مواقف ضاحكة كان يداعب بها أصحابه ويلاطف بها أتباعه، وقد روت لنا كتب السنة منها طرفًا يسيرًا ونزرًا قليلاً، كقوله مثلاً لامرأة عجوز جاءت إليه تسأله أن تكون معه فى الجنة. فقال لها الرسول: «**يا أمة الله إن الجنة لا يدخلها عجوز**»، فولت وهى تبكى وقد أفزعها قوله، فلما رأى الرسول بكاءها استدعاها إليه وقال لها: «**يا هذه إنك لا تدخلين الجنة عجوزًا لأن الله سيبعث النساء فى سن الشباب، أو ما تقرئين قوله تعالى: ﴿إنا أنشاناهن إنشاء فجعلناهن أبكارًا عربًا أترابًا﴾**» فضحكت المرأة وعلمت أن الرسول كان يداعبها. ومن ذلك أيضًا أن رجلاً جاء إليه وقال: يا رسول الله جئتك لتحملنى على بعير، فابتسم الرسول وقال: «**إنى لا أحملك على بعير ولكنى سأحملك على ولد بعير**»، فاضطرب الرجل وانزعج من قوله وقال: يا رسول الله، فضحك الرسول من فزعه وقال له: «**يا هذا أو ما علمت أن ولد البعير بعير**»، فأدرك الرجل موقع الدعابة فى كلام رسول الله ﷺ.

وجاء فى كتب السنة أن امرأة جاءت إلى مجلسه لتسأله عن زوجها فقال لها الرسول ﷺ: «**عمن تسألين يا هذه؟**» فقالت: عن زوجى يا رسول الله فقال لها: «**زوجك الذى فى عينه بياض؟**» فسكتت وأخذت وأسرعت إلى بيتها فلما لقيت زوجها جعلت تحدق إلى عينيه وتطيل النظر إليهما فسألها زوجها عن شأنها فقالت له: إنى أنظر هل بعينك بياض أم لا فقال: يا حمقاء أوما علمت أن بكل عين بياضًا فأدركت المرأة أن هذه فكاهة من فكاهات الرسول ﷺ.

وقالوا إن والدًا شكا ولده إلى القاضى وقال إنه يشرب الخمر ولا يصلى الفرائض فلما سأل القاضى الابن أنكر، فقال القاضى للأب: ماذا تقول أنت؟ فقال: أصلح الله القاضى إنه مع ما قلت لك لا يحفظ من القرآن شيئًا، فقال الولد: إنى أحفظه كله، فأراد القاضى أن يمتحن حفظه أمام أبيه، فقال له: اقرأ سورة الأعراف. فجعل يقول بسم الله الرحمن الرحيم:

علق القلب ربابا
بعد ما شابت وشابا

إن دين الله حق

لا أرى فيه ارتيابًا

فلما سمع ذلك القاضى التفت إلى الوالد وقال له أرأيت كيف يحفظ القرآن وأنت تزعم أنه لا يحفظه، فقال الوالد والله الذى لا إله إلا هو إنه لم يحفظ هذه السورة إلا بالأمس فقط وليته حفظها من مصحفه وإنما حفظها من مصحف الجيران فقال القاضى: وأنا أحفظ شيئًا من مصحف جيراننا تتمة لسورة الأعراف وأنشد:

فارحمى مضنى كئيبًا قد رأى الهجر عذابًا

ثم قال للابن قاتلكم الله يحفظ أحدكم القرآن ولا يعمل بما فيه.

وقالوا إن القاضى أبا يوسف كان جالسًا يومًا للقضاء بين الناس فدخل عليه رجلان كان يدعى أحدهما على صاحبه عودًا موسيقيًا، فسأل القاضى صاحبه عن دعواه فأنكر أنه أخذ منه شيئا فطلب القاضى إلى المدعى شهودًا وبينة فخرج وعاد ومعه اثنان أحدهما خمار والثانى بائع بوظئ، فقال له القاضى إن شهادة هؤلاء لا تقبل والإسلام يردها. فقال: يا سيدى أو تريد على آله موسيقية أعدل من هذين، فابتسم أبو يوسف وقضى على الرجل برد العود لصاحبه.

وقالوا إن رجلاً تشاجر مع زوجته من أجل شيء فاحتكما إلى أحد القضاة وكانت المرأة جميلة جدًا، فلما وقفًا بين يدى القاضى جعل الرجل يشرح ظلامته والمرأة ساكتة وكان القاضى يمعن النظر إليها، ولكن على الرغم من أن الرجل شرح حجته حكم القاضى للزوجة، فقال له الزوج: أيها القاضى: إن حجتى واضحة جلية وبرهانى ساطع منير فكيف لا تحكم لى؟ فقال له: اسكت يا رجل فإن الشمس أوضح من النهار، فلما رأت ذلك المرأة قالت للقاضى: جزاك الله عن ضعفى خيراً، فقد قويته، فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتى خيراً فقد أضعفتها، ومن أعجب ما جاء فى نوادر القضاة ما روته كتب الأدب من أن امرأة دخلت على أحد القضاة وطلبت منه أن يحكم لها بالفراق من زوجها فقال لها القاضى: ولماذا تطلبين الفرقة؟ فقالت يا سيدى إنه يبول فى فراشه ليلاً،

فاستدعى القاضى زوجها ليسأله عن قولها، قال الزوج: نعم يا سيدى إنى أبول فى الفراش ليلاً وأنا نائم وهى صادقة فى دعواها، فقال له القاضى: ولماذا تبول فى فراشك ألا يمكنك أن تستفرغ بولك قبل أن تنام؟ فقال الزوج: والله إنى لأفعل ذلك كل ليلة ولكننى إذا نمت أرى كأنى فى جزيرة وسط بحر هائج وفوق هذه الجزيرة جبل وفوق هذا الجبل ربوة وفوق الربوة قصر وفوق هذا القصر مئذنة وفوق المئذنة نخلة وفوق النخلة جمل وأنا فوق هذا الجمل وأرى الجمل وهو يطأطئ ليشرب من البحر فأخاف أن أقع من فوق كل هذه الأشياء فى البحر فأغرق فعند ذلك أبول من شدة خوفى. فالتفت القاضى إلى الزوجة وقال لها: يا هذه والله لقد بلت أنا من هول حديثه ووصفه فكيف بمن يرى ذلك بعينيه.

وقالوا إن معلمًا كان يحفِّظ الأولاد القرآن فتشاجر صبى مع صاحبه وضربه ضربا موجعًا، فعضه صاحبه فى أذنه حتى أدماها وكاد يستأصلها فشكاه الصبى إلى المعلم وأراه أذنه ينزف منها الدم فاستحضر المعلم الغلام الذى عضه وقال له كيف تؤذيه هكذا وتعض أذنه؟ فبكى الغلام وقال: والله ما عضضته ولكنه هو الذى عض نفسه. فضربه المعلم وقال له: كيف يعض الإنسان أذنه «هو كان جمل يا ابن كذا وكذا».

وقال الجاحظ لقد وقفت على كثير من نوادر المعلمين حتى اجتمع لى من ذلك كثير فألفت كتبًا فى نوادرهم، وبعد سنين عزمت على تقطيعه والتخلص منه، وبينما أنا أفكر فى ذلك رأيت معلما على هيئة حسنة وسمت جميل فرحب بى ورحبت به ثم دار بيننا حديث طويل علمت منه مدى علمه ومعرفته وأنه ملم بكل شئ، فقلت فى نفسى إن هذا الرجل بعلمه وحكمته يقوى عزمى على أن أتخلص من هذا الكتاب وصممت على تنفيذ ما نويت وعقدت بينى وبينه صداقة قوية، وكنت أزوره فى كتَّابه وأتردد عليه، وذات يوم قصدته فرأيت الكتَّاب مغلقًا فسألت عنه جيرانه فأخبرونى أنه مات له قريب عزيز عليه، فذهبت إليه لأعزيه فى قريبه، فلما دخلت عليه وجدته حزينا كئيبًا، فسلمت عليه وقلت له: عظم الله أجرك إنا لله وإنا إليه راجعون لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنه، فبكى بكاءً حارًا حتى أشفقت عليه ورحمته من شدة الحزن فقلت له

عليك بالصبر يا سيدى فإنه فيه أعظم الأجر وأجزل الثواب، فلم يرد على لقوة حزنه، فقلت له: استثير حديثه: يا أخى أهذا الميت والدك؟ فقال: لا والله فقلت: له أهو والدتك؟ قال: لا. فقلت: أزوجتك؟ قال: لا. قلت: أخوك. قال: لا. قلت: فمن هو إذن؟ فقال: حبيبتى. فقلت فى نفسى: هذه أول المناحس وسكتُّ طويلاً من دهشتى وقلت له: يا سيدى إن النساء كثير ولابد من أن تجد غيرها، فقال لى: أتظن أنى رأيتها؟ فقلت فى نفسى: وهذه الثانية، ثم سألته: وكيف تحب من لم تره، فاعتدل فى جلسته وقد أخذته العبرة وخنقه البكاء وقال: أحدثك عن قصتها معى كنت جالسًا فى كتَّابى يومًا خالى البال فمر بى رجل على ناقته وكان ينشد هذين البيتين:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردى على فؤادى أينما كان

لا تأخذى فؤادى تلعبين به ... فكيف يلعب إنسان بإنسان

فقلت فى نفسى لولا أن أم عمرو جميلة حسناء ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها وهام قلبى بحبها وجعلت أتغزل فى حسنها من حين إلى حين، وبينما أنا جالس بالأمس إذ مر بى هذا الرجل نفسه على ناقته وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمر ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أن المرأة التى كنت أحبها وأحلم بلقائها قد ماتت فحزنت عليها وجلست لآخذ العزاء فيها ولا أظنى أسلو عنها أبدًا، فلما سمع الجاحظ قوله أقبل عليه وقال: يا أخى لقد كنت ألفت كتابًا فى نوادر المعلمين وعزمت على تقطيعه فلما رأيتك قوى عزمى وصحت نيتى على بقائه، وسأبدأ بك وبقصتك مع هذه الحبيبة الموهومة فى أول الكتاب.

ومن نوادر المتنبئين فى عهد الدولة العباسية ما رواه صاحب العقد الفريد فى كتابه قال رحمه الله: ادعى رجل النبوة فى عهد الخليفة المأمون، فلما سمعوا منه دعواه طالبوه بمعجزة لتكون دليلاً على نبوته وأنه صادق فيما يقول، فأخرج من جيبه قطعة من الحجر وقال معجزتى أن أضع لكم هذه الحجرة فى الماء فتذوب لوقتها، ثم طرحها فذابت فقال له يحيى بن أكثم هذه حيلة أنت تعلم

سرها ولكن إذا كانت هذه معجـزتك أعطيناك حجراً من عندنا لننظر هل يذوب أم لا؟ قال: عـجبًا لكم إنـى لست أعظم من موسى ولا أنتم بأجل من فـرعون فقـد جاء موسى بعـصاه إليه مـعجزة من عند الله فلم يقل له فـرعون لا أرضى بعصاك ولكن أعطيك عصا من عندنا حتى تعطونى أنتم حجراً من عندكم، فلما سمع المأمون ذلك منه ضحك من دعابته وأجازه.

وقالوا إن رجلاً تنبأ على عهد المعتصم فلما دخل عليه قال له: إنى نبى من عند الله، فـقال له المعـتصم: وإلى من أرسلك الله؟ قـال: أرسلنى الله إليكم. فقال له المعتصم: والله إنك لأحمق، فقال له الرجل: إنما يبعث لكل قوم مثلهم فضحك المعتصم من قوله وأعطاه جائزة على دعابته.

وقالوا إن رجلاً ادعى النبـوة فى عهد جعفـر المنصور وادعى أنه خليل الله إبراهيم، فقال له أبو جعفر: إن خليل الله إبراهيم كـانت له معجزة، فقد أدخله قومـه النار فلم يحتـرق ونجا منهـا ونحن نحرقك فإن نجـوت من النار آمنا بك، فقال الرجل: ألا تطلبـوا إلى شيئًا أخف من هذه فقال له: نطلب مـنك معجزة موسى تدخل يدك فى جـيبك ثم تخرجـها بيضـاء منيرة، فقـال: يرحمكم الله اطلبوا معجزة أخف من هذا أيضًا، فقالوا له: نطلب معجزة من معجزات عيسى فإنه كان يحـيى الموتى، فقال: الحمد لله مكانكم قـد وصلتم وسوف أحيى لكم الموتى قالوا له: فمـاذا ستفعل؟ فأشار إلى الربيع حـاجب أبى منصور وقال إنى سأقـتل هذا ثم أحييـه، فقال له الربيع: يا أخـى إنى أول من آمن بك وصدقك فجرب هذا فيمن لا يؤمنون بدعوتك. فقهقه أبو جعفر من فزع الربيع من الموت وسرعة إيمانه بالرجل ثم أعطى الرجل شيئًا وصرفه.

وقالوا إن رجلاً دخل حـمصًا وهى قرية من قرى الشام فلمـا خضر وقت الصلاة توجـه إلى المسجد ليـصلى فيه، فوجـد مؤذنًا ينادى فوق المئـذنة ويقول أشهـد أن لا إله إلا الله وأن أهل هذه البلد يشهدون أن مـحمداً رسـول الله قال فتـعجب من قوله وشـأنه وقال: والله لأشكوك إلى إمـام المسجد فـدخلت عليه المحراب فوجدته يصلى وعلى رجله بول، قـال فذهبت إلى المحتسب لأشكوهما معًا فهو يرأسهما فلما وصلت إليه وجدته يبيع الخمر في حجرة من حجر المسجد

ووجدت معه مصحفًا يحلف عليه للناس أنها خمرة خالصة وصنف معتق فزاد تعجبى فذهبت إلى القاضى لأشكو له الجميع فوجدته جالسًا أمام حجرة مغلقة والناس وقوف حوله لا يتكلم ولا يتكلمون، وماهى إلى ساعة حتى فتح باب الحجرة وخرج منه غلام يافع وفتاة جميلة فجعل القاضى يسأل الفتاة عن حال الغلام فأخبرته أنه رجل وقد أدى واجبه معها بصدق وإخلاص، فلما رأيت ذلك قلت للقاضى، هل لك فى أن تحدثنى عن كل هذه العجائب التى رأيتها اليوم فى قرية حمص وأعجبها قصتك فقال القاضى وهل رأيت غيره؟ قلت: نعم وحدثته عن قصة المؤذن والإمام والمحتسب، فقال القاضى والله إنك لجاهل مغرور، قلت: وما ذاك؟ فقال القاضى: يا هذا إن الوقت قد وجب وطلبنا المؤذن فوجدناه غائبا فأرسلنا إليه فإذا هو مريض فاستأجرنا يهوديا ليؤذن مكانه واليهودى يؤمن بالله ولا يؤمن برسول الله، وأما الإمام فإنه خرج مسرعًا إلى الصلاة فوطأت قدمه نجاسة ولم يجد ماءً يطهرها به فبال عليها ليطهر رجله حتى يمكنه أن يصلى بالناس ويصلى الوقت حاضرًا، وأما المحتسب فإنه يقوم بخدمة المسجد ابتغاء وجه الله دون أن يأخذ على خدمته أجرًا من وقف المسجد وقد أوقف رجل على المسجد بستانًا من العنب فوجدنا العنب رديئًا لا يؤكل ولا يباع فرأينا نعصره خمرًا ونبيعه وننفق منه على عمارته، فكان بعض الناس يشكون فى جودة الخمر فاشترينا من ثمنها مصحفًا ليقسم للمرتابين على جودته وأنه أفضل نوع من الخمور وأصبح الناس يصدقونه والحمد لله، وأما ما رأيت من شأن الغلام والفتاة فإن هذا الغلام كان يتيمًا وقد مات عنه أبوه وترك له ثروة، وحتى لاتضيع أقمنا عليه وصيًا، وبعد أعوام زعم الفتى بأنه قد بلغ سن الرشد وقال الوصى إنه لم يبلغ الحلم بعد، فلما أخذتنا الحيرة بينهما استأجرنا له فتاة من ماله وأدخلناه معها وجلست أنا وهؤلاء على باب الحجرة حتى يخرجا، فإذا شهدت الفتاة ببلوغه دفعنا له ماله وقد شهدت أمامك وأصبحت أحد الرجال الذين سمعوا شهادتها للغلام، فأى شىء أثار إعجابك فى هذا البلد، وكان الرجل يسمع كلام القاضى وقلبه يتقطع غيظًا، فلم يفرغ من كلامه حتى كان قد طار طائر حلمه وجف معين صدره، وقد تعجب من فعل هؤلاء القوم.

وقالو إن الإمام الأعمش كان من المحدثين الأجلاء وكان مرجعًا فى الفقه والحديث وإمامًا فى علوم القرآن والدين، وكان قد تقدمت به السن وله زوجة سليطة اللسان سيئة الخلق، وكان يصبر عليها طلبًا للأجر وحبًا فى الثواب، وكان لا يخرج من عندها إلا حزينًا مهمومًا فإذا جلس إلى تلاميذه ليدرس لهم الفقه والحديث سرى عنه، وفى يوم من الأيام اختلف مع تلاميذه فى مسألة فقهية اشتد بينهما الجدل وطال النقاش وأصروا على موقفهم ضده، فغضب منهم وقال لهم. والله لولا أن فى منزلى شرًا منكم حالا وأسوأ منكم مقالا ما خرجت إليكم، ثم انصرف عنهم ودخل منزله مغضبًا فاستقبلته زوجته بسيل من الشتائم وأمطرته وابلاً من السباب، فكاد يموت من شدة الغيظ والألم، فعلم بذلك واحد من تلاميذه الكبار فتوجع لحاله ثم دخل وكانت زوجته جالسة على مقربة من الشيخ، فأقبل عليها وجعل يرضيها عن الشيخ، فقال لها: أيتها المرأة لا تغضبى من أبى محمد ولا يؤلمك ما تشاهدينه فيه من عيوب ولا تتوجعى من كبر سنه وابيضاض شعره وبخر فمه وعمش عينيه وقصر يديه واعوجاج ساقيه واصفرار لونه ونتن إبطه وهزال جسمه وفقر حاله وقدم ثيابه وهمهته فى الكلام. وكان الشيخ بحيث يسمع فكاد يذوب من الألم فأخذ شيئا كان أمامه ورماه به فى وجهه وقال له: يا فاسق اخرج من هنا فوالله لقد عرفتها من عيوبى ما لم تكن تعرف.

وقالوا إن رجلاً كان يمشى قاصدًا غاية فى نفسه فسمع من يناديه ويقول له بأعلى صوته: يا عبد الله. فلم يرد عليه ولم يلتفت إليه، فأسرع إليه الغلام وهز كتفه بعنف وقال له: إنى أناديك منذ ساعة ولم ترد على، ألم تسمع ندائى وقولى يا عبد الله، فقال الرجل: يا أخى لا تعجل على فالطريق ملىء بالناس وأنت تقول يا عبد الله وكلنا عبيد الله فلم أدر من تقصده. فسكن غيظ صاحبه وقال له: صدقت إنك لحكيم ووالله لآخذن عنك الأدب وأروى عنك الحكمة، فقال له وما اسمك؟ قال حمزة بن يزيد فتركه وانصرف، وحدث أن أخرج حمزة هذا لقضاء بعض مصالحه فتبعه أحد الناس وجعل يناديه بصوت واضح:

يا حمزة . فلم يلتفت إليه فأسرع نحـوه وجعل يهزه من كتفه ويقول له: لماذا لم تجبنى ألا تسـمع ندائى لك يا حمـزة؟ فقال له: يا سـيدى أنا لا أدرى من تريد فكلنا حماميز الله، فقال له صاحـبه الآن علمت بأنك أحمق. فسبحان من قسم على عباده العقول والأرزاق.

ولما حـضـرت أبا نواس الوفاة وكـان مـسـرفًا علـى نفسـه فى المعـاصى والشهـوات، اجتمع حـوله أهله ورقوا لحاله فـسألوا عمـا يشتهى، فـقال لهم: أشتهى زجاجة من الخمر مشتراة بثمن خنزير مسروق لنصرانى يتيم، فقيل له ولم ذلك؟ فقال لتكون حرامًا خمس مرات حتى تطيب بها نفسى.

وقالوا أيضًا إن رجـلاً ممن يتصنعون الزهد ويتظاهرون بالصـلاح ويتجرون بالإخلاص والدين، اختلى بفتـاة جميلة كانت تتردد عليه ليـحفظها القرآن، فلم يزل بها حتى أحبلها فاجتمع عليه الناس ليضربوه وينتقموا منه، وتقدم واحد منه وقال له: يا أحمق كيف فعلت ما فعلت؟ فقـال له: إنى أحببتها وزينها الشيطان لى فجامـعتها، فقال له صـاحبه: إذا كنت قد جامـعتها فهلا عـزلت عنها ماءك حتى لا تحمل منك؟ فـبكى وقال: لقد فكرت فى العزل عنهـا فبلغنى أن العزل مكروه، فقـال صاحبه. يـا سبحان الله إذا كـان قد بلغك أن العزل مكروه أفـما بلغك أن الزنا حرام؟.

هذا بعض مـا تيسر فى هذا الـباب عسـاه يا سيـدى يصيب منك غـرضه ويدرك عنه هدفه ويروح عن نفسك ما تجده فى خضم الحياة من ألم وتعب وفكر وجهد ومشقة وعناء فالدنيا ساعة وساعة.

باب جامـع

جـاء فى كتب الأدب أن أبا حـازم وهو من التـابعين الفضـلاء دخل على سليمان بن عبـد الملك حين ولى الخلافة فسأله سليمـان قائلاً: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال له أبو حازم لأنكم عمـرتم دنياكم وخربتم آخرتكم والمرء يكره أن ينتقل من العمار إلى الخراب، فقال لـه سليمان: كيف القدوم على الله؟ فقال

الرجل: إن المحسن يقدم على الله كالغائب يأتى أهله فيسر بهم ويسرون به وأما المسيء فيقدم على الله كالعبد الآبق خائفًا ذنبه ومتوقعًا عقابه. فقال: يا أبا حازم أى الأعمال أفضل؟ قال أداء الفرائض واجتناب المحارم، فقال سليمان: أى الدعاء أرجى للإجابة؟ فقال: دعاء الملهوف لمن أحسن إليه، فقال له: وأى الصدقات أزكى؟ فقال الرجل: ما كان منها بلا من ولا أذى، فقال: يا أبا حازم أى الناس أعدل؟ فقال: من يقول كلمة حق عند من يخافه أو يرجوه، فقال سليمان: وأى الناس أعقل؟ قال: من عمل بشريعة الله ودل الناس عليها، فقال: وأيهم أجهل؟ فقال أبو حازم من باع آخرته بدنيا غيره، فقال له: عظنى وأوجز فقال: عظم ربك أن يراك حيث نهاك أو يفتقدك حيث أمرك. فبكى سليمان لعظته فتألم جلساؤه من أبى حازم وقالوا له: لقد أسأت إلى أمير المؤمنين وأبكيته، فقال لهم أبو حازم: يا هؤلاء إن الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على العلماء أن يبينوا الحق للناس ولا يكتموه، ثم خرج من مجلس سليمان فأمر سليمان أن يرسلوا إليه شيئًا من المال، فأبى الرجل أخذه وأرجع الرسول به إلى صاحبه وقال له: والله ما أرضاه لكم فكيف آخذه منكم؟

وقالوا إن محمد بن جرير الطبرى رضى الله عنه صاحب التآليف المشهورة والكتب المنشورة فى علوم الحديث والتاريخ، قالوا إنه كتب تفسير القرآن فى ثلاثين ألف ورقة وأمر أصحابه بنسخها فتكاسلوا عن ذلك وقالوا له هذا شيء تفنى الأعمار دون بلوغه، فتألم من قولهم وقال: ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ لقد ماتت الهمم ورب الكعبة وقالوا فى الحكم: أشد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك ومواساة الإخوان من مالك، والورع عن المعاصى عند الخلوة عن عيون الناس.

وقال الحكماء: اجمع الخير فى أربعة أشياء وبها صار الأبدال أبدالاً؛ الصيام والقيام والصمت والخلوة. وقال الحسن البصرى: «من قام لله أربعين ليلة مخلصًا كوشف بشيء من أسرار الملكوت».

وجاء فى كتب الأقدمين أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: «**يا موسى استعد للقائى وعليك بطول الصوم وظمأ الهواجر، فإن الصوم مفتاح طاعتى**

وباب رضائى، يا موسى جالس الصائمين والقائمين فهم الذين كشفت عنهم الحجب وأذقتهم حلاوة المناجاة، إن الصوم جنة الأخيار ومصباح الأبرار، وعزتى وجلالى ما استنارت قلوب العارفين إلا بالصيام ولا أشرقت أرواحهم إلا بالقيام، وبه قذفت أنوارى فى قلوب المطيعين وبه أسكنت أسرارى أفئدة المحبين وهو مفتاح خدمتى وأول عبادتى».

لطيفة

قالوا إن رجلاً جاء إلى أبى حنيفة ليسأله عن شيء من أمر دينه، فلما استوى به المجلس بين يديه قال له: أيها الإمام، إنى قد شربت الخمر حتى سكرت فلما أفقت من السكر وقع فى قلبى أننى طلقت زوجتى ولا أدرى أطلقتها أم لا؟ فماذا ترى أنت. فقال له الإمام رضى الله عنه: الزوجة زوجتك حتى تتأكد من طلاقها ولا شيء غير هذا، فلم تعجبه فتوى الإمام فتركه وانصرف عنه إلى سيدنا سفيان الثورى وهو عالم فاضل كأبى حنيفة وإمام جليل من أئمة الفقه والدين وعرض عليه أمره بنفس الصورة التى عرضها على أبى حنيفة، فأجابه سفيان رحمه الله يا هذا راجع زوجتك قطعا لوسوسة الشيطان عن قلبك فإذا كنت طلقتها حقا فقد راجعتها، وإن لم تكن قد طلقتها فلا تضرك مراجعتها، فلم تعجبه فتواه أيضا وانصراف عن مجلسه حتى أتى الأوزاعى رضى الله عنه وهو عالم محقق لا يقل شأنًا عن أبى حنيفة وسفيان، وسأله نفس السؤال: فقال له الأوزاعى: إن شئت أن تقطع وساوس الشيطان عن قلبك فطلقها الآن ثم راجعها، فسخر من كلامه ولم يدر بأية فتوى من هؤلاء يعمل، فذهب إلى الإمام (زفر) من علماء الحنفية ومن أصحاب أبى حنيفة وعرض عليه فتوى هؤلاء الأئمة فقال له زفر: الحق ما قاله لك الإمام أبو حنيفة، فقال له وما دليلك على هذا؟ فقال له (زفر) إنى سأضرب لك مثلا تتبين منه جلية أمرك: رجلا أصاب ثوبه نجاسة وهو لا يعلم مكانها من ثوبه فثوبه على طهارته حتى يعلم مكانها، فسفيان أشار بغسله كله فزاده طهارة، والأوزاعى أمره أن يبول عليه ثم يغسله فأخذ الرجل بقول أبى حنيفة.

نصيحة لمدمنى الحشيش

قال الحكماء إن الحشيشة إذا شربت صار لها بخار ردىء يستر نور العقل، ثم يصعد إلى الرأس فيحدث به خبلا وأوهاما ويخرج صاحبه من السعة إلى الضيق، ويجعله بعد الشجاعة جبانًا وبعد العزة ذليلاً، وبعد الصحة عليلاً ثم يثبط همته عن كل خير، ويحول بينه وبين العبادة ويبعده عن السيادة، وأنشدوا فى ذلك:

ما للحشيشة فضل عند آكلها لكنه غير مهدى إلى الرشد

صفراء فى وجهه خضراء فى فمه حمراء فى عينه سوداء فى الكبد

ورحم الله ذلك الإنسان الذى كان يندب كبده التى أكلها السكّر وأضر بها الشرب:

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح

أباها على الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علة بصحيح

وجاء عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إذا حضر الشراب ودارت الخمر حضرت الشياطين وغابت الملائكة**». وقالوا إن سيدنا يحيى قابل إبليس يومًا فسأله عن أشياء قال له من جليسك؟ قال السكران، قال ومن ضجيعك؟ قال الذى يؤخر الصلاة عن وقتها، قال ومن ضيفك؟ قال السارق أموال الناس، قال ومن رسلك؟ قال السحرة والكهان، قال ومن قرة عينك؟ قال من يكثر الحلف بالطلاق وإن كان صادقا، قال ومن حبيبك؟ قال تارك الصلاة والغافل عن ذكر الله، قال ومن أعز الناس عليك؟ قال من يسب دينه.

وقال رسول الله ﷺ: «**من أعان سكيرا ببيع أو شراء أو خدمة حشر ولا حجة له**».

قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه «وطنوا نفوسكم على عداوة الناس

فى الله، فإنما أعلمكم لتعملوا وتنشروا الدين، ولم أعلمكم لتـعجبوا أو تفخروا فإنكم لا تبلغـون ما تأملون إلا بالصبر على مـا تكرهون، ولا تنالون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، إياكم والنظر إلى المحارم فإن ذلك يزرع الشهوة فى القلوب وكفى بها فتنة، فطوبى لمن كان بصره فى قلبه ولم يكن قلبه فى بصره».

حكمـــة بالغـــة

قال موسى يا رب إنك خلقت الخلق وربيتهم بنعـمتك وحفظتهم برعايتك وعنايتك فكيف تحـرقهم بالنار؟ فـأوحى الله إليه يا موسى لـو أنك زرعت زرعًا فأثمـر ثمره وآتى أكله فماذا كنـت تفعل فيه؟ قـال موسى آخذ لبه وأدع قـشره، فقال له الله ولماذا تفعل بزرعك هذا الفعل؟ قال أخذت ما له فائدة وتركت ما لا نفع فيه، فقال الله: كذلك أفـعل بعبادى، أكرم خيارهم بجنتى وأدخل النار من لا خير فيه.

من كلام سيدنا على

كان رضى الله عنه وكرم الله وجهــه يكثر من ترديد هذه الأبيات إذا حز به الأمر واشتد به الكرب، ويقول ما أنشدتها فى ضيق إلا أوسع الله على، ولا فى كرب إلا فرجه الله ولا فى مرض إلا عوفيت منه وهى هذه:

وكــــم لله من لطـــف خفـــى	يـــدق خـــفاه عن فهم الذكـــى
وكم يسر أتى من بعـــد عســـر	ففرج لـــوعة القلـــب الشـــجى
وكــم أمر تســاء به صــباحًا	وتعقــبه المســـــرة بالعشـــــى
إذا ضـــاقت بك الأسباب يومًا	فثــق بالـــواحد الأعـــلى العلى

أعجوبـــة

قالوا إن رجلاً أكل كثيرًا من الأفيون فأثر على حرارة دمه حتى فقد الإدراك وغاب عنه الوعى فظنه الناس قد مـات وهموا بتجهيـزه ودفنه وكانوا لا يعلمون

من أمره شيئا، وبينما هم يجدُّون فى تجهيزه إذ سقط عليه عقرب من السقف الذى ينام تحته فلدغه فأفاق لوقته واستيقظ من رقدته وكان السر فى ذلك أن حرارة السم الناتجة من لدغة العقرب أزالت برودة الأفيون فعاد دمه إلى التوازن من جديد.

من وصايا رسول الله ﷺ

قالوا إن أعرابيًا قدم إلى المدينة فسأل عن رسول الله ﷺ فدلوه عليه وقالوا إنه فى مسجده، فلما دخل عليه وجده جالسا بين أصحابه لا يميزه شىء عنهم، فسلم عليهم فردوا عليه السلام فسألهم أيكم رسول الله؟ فأشاروا جميعًا إليه وأوسعوا له الطريق إليه، فلما جلس عنده أخذ بيده وقال: يا ابن عبد الله إنى سأسألك وأُكثر فلا يضيق صدرك بى فقد وصفك الله بأنك بالمؤمنين رءوف رحيم، وإنى مؤمن أحب دينى وأحرص عليه، فأوسع له النبى صدره ورحب بمقدمه وقال له: سل يا أخا العرب وبالله التوفيق فقال الأعرابى: يارسول الله أى العملين أفضل. أرغيف أتصدق به على فقير أم ركعتان أصليهما؟ فقال له النبى بل رغيف تتصدق به، فقال الأعرابى: أيهما أفضل ترك درهم من الحرام أم عشر ركعات أصليها؟ فقال له النبى ترك الحرام أحب إلى وإلى الله، فقال الأعرابى: أيهما أفضل ترك الغيبة فى أعراض المسلمين أم عشرون ركعة أصليها؟ قال النبى ترك الغيبة أفضل من مائة ركعة، قال الأعرابى: قضاء حوائج الناس أفضل أم صيام ثلاثة أيام؟ قال النبى قضاء حاجة أخيك أفضل من صيام شهر، قال الأعرابى الجلوس فى المسجد فى غير أوقات الصلاة أفضل أم الجلوس مع أهل بيتى؟ قال النبى، جلوسك مع أهل بيتك تعلمهم الإسلام وتحفظهم القرآن أحب إلى من الاعتكاف فى مسجدى هذا قال الأعرابى أيهما أفضل النفقة على العيال أم الإنفاق فى سبيل الله؟ قال النبى درهم تنفقه على أولادك أحب إلى الله من ألفى درهم تنفقها فى سبيل الله، فقال بر الوالدين أم الجهاد؟ فقال يا أخا العرب جاء الحق وزهق الباطل بر الوالدين أحب إلى وإلى الله من حملك السيف فى سبيل الله حتى تموت.

نصيحة مخلصة

قال حـاتم الأصم: ثلاثة أشياء دواء لثلاثة أشـياء: قيام الليل دواء لقـسوة القلب، وكثرة الصدقة دواء للبخل وكثرة النوافل دواء لكثرة المعاصى والذنوب.

دقيقـة

اجتمع رجل من الصالحين الذين كـشف الله عن قلوبهم الحجاب ومنحهم كرامته وولايتـه اجتمع بابليس وطاب له أن يسأله عن شأنه فـقال له يا عدو الله لماذا أضللت الناس؟ فـسكت إبليس طويلا ثم بكى وقـال إذا كنت أنا أضللتـهم فمن أضلنى؟ فهتف هاتف لذلك الولى من قـبل الله عز وجل يقول له: «اشتغل بنفسك عن أسرار تدبيرى لشئون ملكى وإلا فعلت بك مثلما فعلت به».

نظرة عابرة

قالوا إن رابعـة العدوية رضى الله عنها مـرت يومًا ببائع الشـواء وأبصرت خروفًا يشوى على السـيخ، فوقفت أمام التنور الذى يشوى عليه فـقال لها البائع لعلك تريديـن شراء شـىء منه؟ فـقـالت لا ولكنى أعـجب من شـأن الإنسـان والحيوان والفرق بينهما، يدخل الحيوان النار مسلوب الحياة، أما الإنسان فيدخلها حيًا مدركًا وسميعًا بصيرًا.

مر سيـدنا أبو ذر رضى الله عنه على النبىﷺ وكان مـعه سيدنا جـبريل فانتظر منه أن يسلم عليـه فلم يفعل، فقال جـبريل للرسول ﷺ: من هذا يا أبا القاسم: فـقال له النبى: **«هذا أبو ذر»**. قال: والله لو سلم لرددنا عليـه. فقال النبى: **«أو تعرفه يا أخـى جبريل؟»** فقال: والذى بعـثك بالحق لهو فى ملكوت السموات العلى أشهر منه فى عالم الأرض، فقال له النبى: **«وبما نال هذه المنزلة يا أخى جبريل؟»** قال: بزهده فى الدنيا.

وقال رسول ﷺ: **«إن الله ليدفع بالمسلم الصالـح عن ألف بيت من جيرانه البلاء»**.

وقال عمر بن عبد العـزيز لرجل من أهل البصرة بما بلغ الحسن فيكم هذه المنزلة العظيمة؟ قال الرجل وكان حكيمـا: لقد كان جديرًا بما هو أرفع منها فقد قرأ كتاب الله وهو ابن عشر سنين ولم يجاوز سـورة إلى غيرها حتى يعرف فيما نزلت، ولم يقلب درهمًا فى تجارة قط ولم يلى عملاً لخليفة من الخلفاء ولم يأمر بشيء إلا فعله قبل الناس ولا نهى عن شيء إلا انتهى عنه قبلهم، فسر عمر من شهادته وقال بهذا بلغ، فقال: يا أمير المؤمنين من تتبع حياة الحسن وجده يستثنى من كل غاية فـيقـال فلان أزهد الناس إلا الحسن، ويقـال فلان أفـقه الناس إلا الحسن، ويقال فلان أفصح الناس إلا الحسن، وفلان أخطب الناس إلا الحسن.

وقال الجنيد رحمه الله تعـالى: لا يكمل ورع الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء، المنع والعطاء والعـز والذل ومنذ أربعين سنة ما أقامنى ربى فى حال فكرهتـهـا، ولا نقلنى إلى حـال فـسخطـت عليه، وقـالوا إن إخـوانه جلسـوا يتدارسـون الزهد فى الدنيا ويتعـرفون على معنى الغنى فـيها. فقـال أحدهم إن الغنى فى هذه الدنيا من لا يحتـاج إلى الناس، وقال آخر إن الغنى فى رأيى من كان له بيت يأويه وقـوت يكفيه وثوب يستـقر به وفضل من مال يسـتغنى به عن الناس. وغير ذلك من الأقـوال، ثم التفتوا إلى إمامهم الجنيـد وقالوا وماذا تقول أنت يا تاج العارفين، فقال لهم رأيت جوامع الغنى فى التوكل على الله وجوامع الفقر فى القنـوط من رحمة الله، والغنى حقًا من أسكن الله فى قـلبه من فضله يقينا ومن معـرفته توكلاً ومن قسمـته رضا فذلك الغنى حقًـا وإن أمسى وأصبح معوزًا فقيرًا، فبكوا من كلامه وقالوا له صدقت، وقال عطاء لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميـراثه ويوم حشره ميزانه وليكن حظ المؤمـن منك ثلاث؛ إن لم تنفعه فلا تضـره وإن لم تسره فـلا تحزنه وإن لم تمنحـه عطاءك فلا تحـجب عنه عطاء سواك.

مثـــل عليـــا

لما بنى الخليفة الأندلسى الناصـر مدينة الزهراء، شغله بناؤها عن كل شيء حتى عن صـلاة الجمـعة، فلما كـان يوم الجمـعة المقابلة قـام الخطيب المنذر بن

سعيد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم بدأ خطبته بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(1) وأخذ يتناول الخليفة بكلماته اللاذعة، ونقده المرير، وأطال فى ذلك، والخليفة جالس يتململ من هول ما يسمع، فلما فرغ من الصلاة، وأقسم لا أصلى خلف المنذر مادام حيا، ثم شكاه لولده الحكم بن المنذر وكان له شأن فى دولة الخلافة، فقال له: والله لقد أساء إلى المنذر، ولقد تعمدنى المنذر بخطبته، فقال له ابنه الحكم بن المنذر، وما يمنعك من عزله إذا كرهته، فزجره الخليفة ثم قال له أمثل المنذز يعزل فى فضله وعلمه، لا أم لك لقد قوم نفسا ضالة عن الرشد، سالكة غير القصد هذا والله ما لا يكون أبدًا، وإنى لأستحيى من الله ألا أجعل المنذر شفيعًا بينى وبين الله فى صلاة الجمعة، ولكن أحرجنى، فأقسمت اليمين، ووددت أنى وجدت سبيلاً إلى التكفير ووالله ليصلين بالناس حياته، ثم بعث إليه بجائزة.

وقالوا: إنه وقعت جفوة بين بكر بن قتيبة قاضى مصر فى عهد أحمد بن طولون، وقد سجنه بسبب تلك الجفوة، وكان خلاصتها أنه لما خرج لقتال الموفق ولى عهد الخليفة العباسى، لأن الموفق ضيق على الخليفة المعتمد، حتى إنه لم يبق له من الخلافة إلى الاسم فقط، فكتب المعتمد إلى أحمد بن طولون يستنجده، فذهب إليه ليحضره إلى مصر، فعزله الموفق، ولكن أحمد بن طولون أبى أن يقبل العزل، وكان إذ ذاك معه القاضى بكر بن قتيبة، وجماعة من العلماء فأمرهم ابن طولون أن يلعنوا الموفق على منابرهم، فامتثلوا جميعًا لأمره، إلا ابن قتيبة، فإنه أبى، فغضب عليه ابن طولون وسجنه، وكان ابن طولون يجيزه بجوائز ثمينة فى الأعياد والمناسبات، فطلب إليه أن يؤدى تلك الجوائز، فردها جميعًا عليه بختومها كما هى، وكان عددها عشرين ألف دينار، فتعجب منه أحمد، ورضى عنه فى قرارة نفسه، ولما حضرت ابن طولون الوفاة بعث إليه ليخرج من السجن ويترضاه، ويعتذر إليه، فأبى ابن قتيبة أن يخرج من السجن، وقال لرسول الأمير: اذهب إليه وقل له: أنت مريض، وأنا شيخ كبير، والموعد قريب، والملتقى الله، فمات ابن طولون، وابن قتيبة فى سجنه، فلما أبلغوه موته، ترحم عليه، وأبى أن يتفوه بكلمة سوء.

---

(1) الشعراء: ١٢٨، ١٢٩ .

وقالوا: إن الطبيب أمين الدولة، كان لا يأخذ عطية، ولا جائزة إلا من ملك أو سلطان، وكان بارعًا فى الطب، حاذقا فيه، وحدث أن مرض غنى من الأغنياء، وتمكنت منه العلة، وعرض نفسه على كل أطباء زمانه، فلم ينتفع بهم، فقال له خاصته: ليس لك إلا ابن التلميذ، وكانت هذه هى كنية أمين الدولة التى اشتهر بها، فقال لهم: إنه لا يقبل عطاء من أحد، وهو مع ذلك لا يقصد أحدًا ولا ينتقل إليه، فقالوا له: لتذهب أنت إليه، وهو لا يرد عن بابه قاصدًا، ولا يبخل بطبه على إنسان، فذهب إليه، فعالجه حتى تم برؤه، وبالغ فى إكرامه، فعرض عليه مالا فأبى، فلما عاد إلى بلده، بعث إليه بمال كثير، وهدايا ثمينة، وتحف غالية مع أحد التجار، فلما وصل بها إليه، وقدمها له، رفضها وأبى قبولها، فقال له التاجر: إنها مقدار كبير، وتحتوى على أشياء نفيسة، فقال له ابن التلميذ: إنى لما حلفت ما استثنيت، فقال له التاجر: إذا لم تأخذها، فسوف أستحوذ عليها لنفسى، وهأنذا أسافر، ولا أعود إلى صاحبك بعطيته، فيظن أنها وصلتك فتتقلد منها، وتفوتك منفعتها، ولا يعلم أحد أنك رددتها، فقال الطبيب: ولكننى أعلم ذلك من نفسى، وأنا أشرف بذلك، علم الناس أم جهلوا، فانصرف عنه التاجر، وقد أخذ كل ما حمله إليه لنفسه.

وقالوا: إن السلطان أيوب، خرج على قومه فى زينته يوم العيد، وكان فى أبهة الملك، وجلال السلطان، وكان من علماء عصره العاملين، وأوليائه الورعين العز بن عبد السلام، وحدث أن حضر هذا الموكب الحافل، فناداه باسمه مجردا عن الإمارة والسلطنة، وقال له على ملأ من أعوانه وجنوده: يا أيوب. ماذا تقول لله يوم القيامة، وقد بوأك عرش مصر، وأطلق يدك فى ملكها، ماذا تقول له فيما هو شائع من الخمر، وفيما هو منتشر من الفجور فى هذه الديار، فقال له السلطان: وهل يُفعل ذلك؟ قال له: نعم، قال له: وأين؟ قال له: فى الحانة الفلانية فى مكان كذا، فقال السلطان إن هذا من عهد أبى، فقال الشيخ: أنت إذن ممن قالوا «إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون» فخجل السلطان، وأمر بإغلاق هذه الحوانيت، وانصرف الناس إلى منازلهم، وانصرف العز كذلك، فلما جلس بين أولاده قال له ابنه، لم فعلت هذا؟ قال: أردت أن

أكدر عليه هذه النعمة حتى لا تطغيه، فقال له ابنه: أو ما خفت منه؟ قال له: لا والله، ولكننى استحضرت هيبة الله فى نفسى، فكان فى عينى أصغر من القط.
وقدم الشاطبى إلى مصر، فبعث إليه الأمير عز الدولة، يستقدمه إليه، فأبى أن يأتيه، وكتب هذين البيتين:

قل للأمير نصيحة ... لا تركنن إلى فيه
إن الفقيه إذا آتى ... أبوابكم، لاخير فيه

أدب رفيع

كان الجاحظ كثير الميل إلى محمد بن عبد الملك الزيات، وزير المتوكل فى عهد الدولة العباسية، وكان يكره القاضى أحمد بن أبى داود، وكان سيئ الرأى فيه، فلمّا نكب الوزير ابن الزيات، قبض على الجاحظ، وجاءوا به إلى القاضى ابن أبى دؤاد مكبلاً مشدود الوثاق، فنظر إليه القاضى نظرة شامتة، وقال له: والله لا عرفتك إلا كافراً بالنعمة، متناسيًا للصنيع، معددًا للمساوئ والعيوب، وما زلت أصلحك والأيام لا تصلحك، لأن فساد طويتك، ورداءة دخيلتك، وسوء طبعك، تحول بينك وبين الصلاح والإصلاح فقال له عمرو الجاحظ: خفض عليك يا سيدى، أصلحك الله، فوالله لأن يكون الأمر لك علىّ، خير من أن يكون لى عليك، ولئن أسىء وتحسن، خير من أن أحسن وتسىء، ولئن تعفو عنى حال القدرة علىّ، خير من أن تنتقم منى حال عجزى عن مقاومتك، فعفا عنه لفصاحته، وقرب مجلسه، وأدنى منزلته. وتنازع عبد الله بن الزبير مع الحكم بن العاص عند معاوية، وكان معاوية هواه مع الحكم، لأنه من أعوانه ومن قبيلته، وتكررت الإساءة من العاصى لعبد الله، ومعاوية ساكت، فقام إليه ابن الزبير، وقال له: اتق الله يا معاوية، إن لك حقًا وطاعة، وإن لك بسطة وحرمة، فأطع الله نطعك، فإنه لا طاعة لك علينا، ما لم تطع الله فينا، فأنصف الناس من نفسك وفى مجلسك، ولا تطرق إطراقة الأفعوان فى أصول الشجر [الأفعوان هو الثعبان الكبير].

وقالوا: إن عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الأموى، قام ليخطب فى الناس ذات يوم، وكان بالكوفة، فقام إليه رجل اسمه سمعان بن معمر، وقال له: مهلا يا أمير المؤمنين، اقض لصاحبى هذا بحقه، ثم اخطب، فقال عبدالملك، وما ذاك؟ فقال له: إن الناس قالوا لهذا الرجل: لا يخلص لك ظلامتك من الخليفة إلا سمعان، فجئتك به، لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل توليتك الخلافة، فقال عبد الملك: قل ما بدا لك أن تقول، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنكم تأمرون ولا تؤخرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، افنقتدى بسيرتكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم: أطيعوا أمرنا، واقبلوا نصحنا، فكيف ينصح غيره من غش نفسه؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا؟ وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا؟ أو ما تعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات، وأبلغ فى العظات؟ فإن كانت الإمامة قد عجزت عن إقامة العدل فيها، فخلوا سبيلها، وأطلقوا عقالها، يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم فى البلاد، وشتتم شملهم فى كل واد، أما والله لئن بقيت فى يديكم إلى بلوغ الغاية، واستيفاء المدة، لتضمحل حقوق الله وحقوق العباد، فقال عبد الملك: وكيف ذلك؟ فقال سمعان: لأن من كلمكم فى حقه زجر، ومن سكت عن حقه قهر، فلا قوله مسموع، ولا ظلمه مرفوع، ولا من جار عليه مردوع، وبينك وبين رعيتك مقام تزول منه الجبال، حيث ملكك هناك خامل، وعزك زائل، وناصرك خاذل، والحاكم عليك عادل. فبكى عبد الملك، ثم قال: ما حاجتك؟ فقال: عاملك بالسماوة ظلمنى، وليله لهو، ونهاره لغو ونظره زهو، فكتب إليه بإعطائه ظلامته، ثم عزله.

ووصف أعرابى امرأة، فقال: كان الغزال يكونها، لولا ما تم منها ونقص منه.

ونزلت برجل حاجة. فكتب إلى صديقه يسأله شيئًا: سيدى سلام الله

عليك، أما بعد: فأرجو الله أن يطيل بقاءك وأن يمتد بك عمرك حتى تظفر برضوان الله والجنة، ولقد كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج بها النفوس، وتستريح إليها القلوب، وكنا نعفيها من النجعة، استتماماً لزهرتها، وإشفاقًا على خضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت اشتد علينا من سنى يوسف، فاشتد علينا كلبها، وغاب عنا قطها، وكذبتنا غيومها، فإن رأيت أن تواسى، أو تؤاسى، فافعل والسلام.

وقالوا: إن المهلب، سمع امرأة وهى تقول: عباد الله قوم متظلمون، نبت عنهم العيون، وعضتهم السنون، قد بادت رجالهم، وذهبت أموالهم، وكثرت عيالهم، وهم مع ذلك كله أبناء سبيل، وأنضاء[1] طريق، فأعطاها ألف دينار، فقالت له: كلأك الله فى سفرك، وخلفك بخير ما تأمل فى أهلك، فزاد فى عطائه. وكتب صديق إلى صديقه يسأله فى حاجة له، فقال: بعد السلام والدعاء له، لقد عرضت لى قبلك حاجة، فإن قضيتها، فالفانى منها حظى، والباقى حظك، وإن تعذر قضاؤها فالعذر مقدم لك، والسلام.

وقال ابن المقفع فى (كوثجى):

بليت بكوثج فى عارضيه ... يعز الشعر عز الكيمياء

ومهما أجدب الوجنات فاعلم ... بأن لم يسقها ماء الحياء

وكان رجل قبيح الوجه يتكلم بين يدى سيدنا على، فأحسن فى كلامه، فقال له، إن حُسن أدبك غطى قبح وجهك.

ذكاء عجيب

قال الشعبى: أرسلنى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم، فكان لا يسألنى عن شىء فى العلم والأدب، والفقه والحكمة، إلا أجبته، فلما

(١) أنضاء: ضعفاء.

فرغت من مناقشته، قال لى: من أهل المملكة أنت؟ فقلت له: لا، فدفع إلى رقعة مختومة، لأحملها إلى الخليفة عبد الملك، وأجازنى بأموال كثيرة، وخلع ثمينة، وبالغ فى إكرامى وإعظامى، فلما جئت إلى أمير المؤمنين دفعت الرقعة إليه، ففض عنها ختامها، وجعل يقرؤها وينظر إليها، فلما فرغ من قراءتها، التفت إلى وقال: أقرأت هذه يا شعبى؟ فقلت له: لا يا أمير المؤمنين، فقال: أتدرى ما فى هذه الرقعة، فقلت له: لا. فقال: إن ملك الروم يقول فيها، عجبت لقوم فيهم مثل هذا الرجل، ويؤمرون غيره عليهم، فقلت له: والله لو قرأتها ما حملتها، فقال عبد الملك، أتدرى ما يريد ملك الروم من وراء هذه الكلمات؟ فقلت: لا، قال: لقد حسدنى عليك فأراد أن يغرينى بقتلك، فقلت: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، إنه قال ما قال، لأنه لم يرك، ولو رآك ما قال ذلك، فقال عبد الملك: لا والله، بل نجلك ونكرمك ونحسن إليك، ثم أجازه على ذكائه وفطنته، فلما بلغ ذلك ملك الروم، قال: والله ما أردت إلا أن أغريه بقتله، فلله أبوهما معا. وما يؤثر عن الشعبى هذا: أن أمير البصرة ابن هبيرة قد قبض على جماعة من المخالفين، فحبسهم، فذهب إليه الشعبى ليشفع فيهم، فقال له: إن كنت حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم، وإن كنت حبستهم بالحق فالعفو يسعهم، فعفا عنهم وأطلق سراحهم.

ولقى قوم منِ الأعراب رجلاً ومعه جارية، وكانت على جانب من الجمال فأرادوا أن يغتصبوها منه، فقالوا له: خل عنها، فأبى، فأرغموه على أن يتركها، وتكاثروا عليه، فأخرج نبله وجعل يرميهم، ومازال يقاومهم حتى انقطع وتر نبله، فهجموا عليه، وأخذوها منه، وكان فى أذنها قرط ثمين، فمد أحدهم يده إليه، فوجد فيه درة عجيبة، فقال: وما هذه الدرة؟ إنها درة ثمينة، فقالت له الجارية: كيف لو رأيتم التى فى قلنسوة صاحبى؟ فقالوا: وهل فى قلنسوته درة؟ فقالت لهم: نعم، فتبعوه، وقالوا له: ألق القلنسوة، وكان بها وتر لنبله قد نسيه

من هول المفاجـأة، فتذكره، فلما قـالوا له ذلك، أخرجه وشده فـى قوسه، ثم أخذ يكر عليهم حتى استرد الجارية.

وقالوا: إن أميـر المؤمنين الهادى، كان يتريض فى بسـتانه يومًا وهو راكب حمارًا، فخرج عليه رجل يريد أن يغتـاله، وكان أعزل لا سلاح معه، فلما رأى أن الرجل سـيقـتله لا محـالة، صاح قـائلاً: اضرب يا غـلام، فالتـفت الرجل مرتبكًـا، فوثب عليه، وقـبض على عنقه وقـتله، وحلف بعد الـيوم، لا يركب حمارًا، ولا يمشى أعزل.

وقـالوا: إن أبا تمام، دخل على المتـوكل، ولى عـهد الخـلافـة، ومدحـه بقصيدة عـصماء، وكان من بين الجالسين مع ولى العهـد، أبو يعقوب الكندى، الفيلسوف المشـهور، فحقد على أبى تمام، وأراد أن يحط من شـأنه، ويحقر من شعره، فـقال له: لم تقول مـا لا يفهم؟ فقال له أبو تمام على البـديهة: ولم لا تفهم ما يقال، فأحرجه وأسكته.

وقالوا: إن شاعرًا دخل على المعتصم، فمدحه بقصيدة قوية، فلما فرغ من إنشادها، قالوا لـه: إنها مسروقة، يريدون أن يخـتبروا ذكاءه، وأن يعـرفوا حدة بديهته، فحلف لهم بكل ما يحلف به إنها من شـعره ولـم يسرقها، فأصروا على موقفهم، ثم أجازوه عليـها بقدح من شعير، ليستثـيروا فطنته، فخرج ولما ذهب بعيدا دسوا له من يخـتبر عقله وقريحته، فقـال له أحدهم: هل قلت فى الخليفة شيئا، قال نعم، قلت قصيدة لم يقل أحد مثلها، فقال له: وهل سمعها الخليفة؟ قال نعم، وأجازنى عليها بقدح من شعـير، فقال له: وهل قلت فى ذلك شيئًا؟ قال نعم، فقال له السائل: فما هو؟ فقال الشاعر:

يقولـون لى أرخصت شعـرك فى الورى

فــقـلت لهم مـن عـــدم أهل المـكارم

أجـــزت عـلى شــــعـــــرى وإنــه

كــثـــيـــر إذا خلصـــتــه من بهـــائم

فأعجب به الخليفة، وأجازه جائزة ثمينة.

تم بحمد الله الجزء الأول من كتاب سمير الصالحين

ويليه إن شاء الله الجزء الثاني

فهرست

الموضــوع	الصفحة



أمام الباب الأخضر ـ سيدنا الحسين

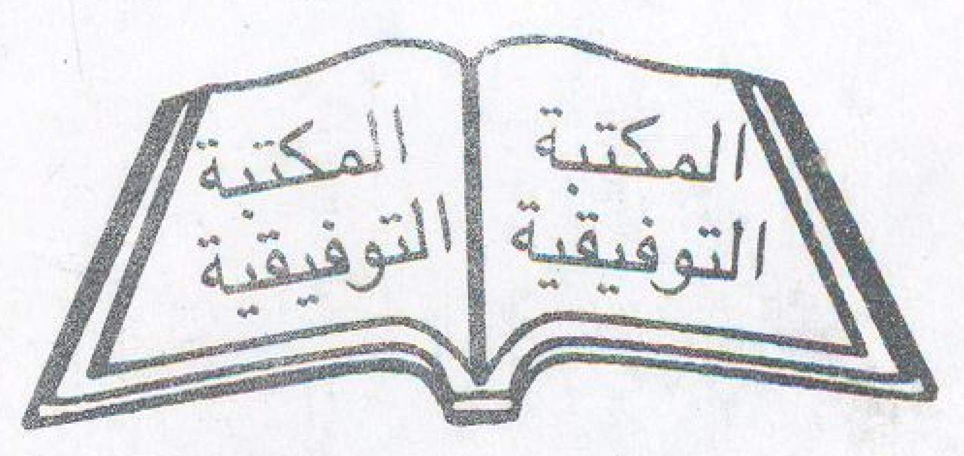
صدر عن المكتبة التوفيقية

من مؤلفات فضيلة الشيخ
أحمد الشهاوى سعد شرف الدين

صرخات على المنبر
« أربعة أجزاء »

تيسير الخطابة
« ثلاثة أجزاء »





أمام الباب الأخضر ـ سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ ـ ٥٩٢٢٤١٠